العدد السابع والخمسون - السنة الخامسة عشرة - محرم ١٤٤٠هـ - اكتوبر ٢٠١٨م

رسالة القلم

إسلامية . ثقافية . شاملة

عاشوراء

الثورة الحسينيّة

حوار مع سماحة العلّامة الشيخ محمود حسن العالي

- ثقافة المظلوميّة في عاشوراء
- ركنية المأساة في إحياء عاشوراء
- الثورة الحسينيّة بين هدفيّة الشهادة وإقامة الحكومة
- نظرة جديدة لحركة مسلم بن عقيل.. وظيفته في الكوفة! وأين ذهب من بايعوه؟
- أنصار رغم الحصار
- دروس في التوبة من موقف الحرّ الرياحيّ في كربلاء

مجلّة طلابيّة فصليّة
تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية
تصدر عن طلاب البحرين في الحوزة العلميّة
بمدينة قم المقدسة

برعاية مكتب البيان للمراجعات الدينيّة

علماً بأنّ المقالات لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة

الهيئة الاستشارية

الشيخ عبدالله علي الدقاق

الشيخ علي فاضل الصددي

المشرف العام

الشيخ عبدالرؤوف حسن الربيع

رئيس التحرير

الشيخ محمد علي خاتم

مدير التحرير

الشيخ عباس علي الصايغ

المدير المساعد

الشيخ جعفر عبدالنبي الجبوري

هيئة التحرير

الشيخ عزيز حسن سلمان

الشيخ جاسم بدر المطوع

الشيخ علي عقيل الجمري

الشيخ منصور إبراهيم حسين

السيد جلال عدنان علوي

الرسالة والأهداف

* ترويج الفكر المحمّدي الأصيل عبر البحوث العلميّة والمقالات العامّة والتخصّصيّة.

* إعداد وتأهيل كتّاب ومحقّقين من طلبة العلم البحرانيّين في حوزة قم المقدّسة.

* إبراز نتاج الطلبة البحرانيّين والتعريف بمؤلّفاتهم.

* مخاطبة قرّاء العالم الإسلامي أجمع، والتمسّك بالثوابت الإسلامية والخط العلمائيّ الأصيل، مع الحفاظ على مبدأ الوحدة الإسلامية.

* مجابهة الأفكار الدخيلة والمنحرفة عن الدين.

* السعي للرقي والتقدّم بشكل مستمر على مختلف المستويات، والاهتمام بتطوير الكفاءات وزيادة الخبرات.

* السعي للغاية الكبرى وهي التمهيد لدولة صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

رسالة القلم
العدد ٥٧

المحتويات

كلمة العدد

٥ معرفة ومودّة
رئيس التحرير

حوار العدد

٩ الثورة الحسينيّة
حوار مع سماحة العلاّمة الشيخ محمود حسن العالي حفظه الله

محور العدد: عـــاشـــــوراء

٤٥ ثقافة المظلوميّة في عاشوراء
الشيخ علي أحمد الجفيري

٥٧ ركنيّة المأساة في إحياء عاشوراء
الشيخ علي عبد الحسين البني

٦٩ الثورة الحسينيّة بين هدفيّة الشهادة وإقامة الحكومة
الشيخ عيسى مكي الجزيري

٨١ نظرة جديدة لحركة مسلم بن عقيل.. وظيفته في الكوفة! وأين ذهب من بايعوه؟
الشيخ محمد علي الخاتم

١١١ أنصار رغم الحصار
الشيخ إبراهيم عبد النبي زين الدين

١٢٣ دروس في التوبة من موقف الحر الرياحيّ في كربلاء
الشيخ حسين أديب الناصر

بحوث ومقالات اخرى

١٤٩ حقيقة القيام لنصرة دين الله
الشيخ حسين عبد الله الأعرج

١٧٥ (دعاء التوسل) في تراثنا
الشيخ علي حسين يعقوب

١٩٧ رجوع أحد الزوجين في هبته
الشيخ علي فاضل الصددي

معرفة ومودّة

رئيس التحرير

إذا ما نظرنا إلى حركة الإمام الحسين عليه السلام ورأينا ما فيها من عطاء فإنّ الواحد منّا يقف مذهولاً أمام هذا العطاء الذي قُدّم في عاشوراء من الحسين عليه السلام وأصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجلّت كلّ الكمالات في ذلك الزمان المحدود لينطلق صوت الحسين عليه السلام إلى زمان غير محدود، ومع هذا الذهول الذي يصيب المؤمن والمخالف يقف الجميع متواضعاً حائراً أمام ذلك كلّه، فإذا ما اطّلع المنصف على شيء من ما جرى وما برز من قيم وكمالات فإنّه يعيش الإذعان بحقّانية حركة الحسين عليه السلام فما بالك بمن يُدعّم وعيه بها بما جرى في شأنها على لسان النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، والنصوص في ذلك تغصّ بها الكتب الروائية فما على الباحث إلا أن يقرأ ويطّلع ليرى نفسه مديناً لهذا النهضة المباركة، وعليه أن يفتح يد العطاء بما أوتي من طاقة، فكلّ ما يقدّم لها فهو مقدّم للإسلام، وكلّ عطاء مهما قُدّم فهو قليل لا ينظر الفرد إليه إلا أنّه شيء لا يستحق أن يُذكر، وحقّ لنا أن نتعلّم ذلك من الحسين عليه السلام القائل: «**إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى**».

فهذا عطاء ليس محدوداً في نصرة دين الله تعالى قد تجلّت فيه كلّ معاني العزّة والكرامة والوعي والتسليم لأمره تعالى والانصياع لأمر المعصوم.

أمران مهمان:

ولكي يستثمر الواحد منّا هذه الثورة المباركة ليعكسها في سلوكه، ويساهم في نشر أهدافها وقيمها لا بدّ من الالتفات إلى لزوم تنمية أمرين مهمين نستفيدهما من هذه الرواية التي يرويها الهروي عن الإمام الرضا عليه السلام فيقول: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: «**رحم الله عبداً أحيى أمرنا، فقلت: وكيف يحيي أمركم؟ فقال: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا**»[1].

الأمر الأول: لزوم تنمية الجانب المعرفي

وهذا لا بّد من توفّره عن طريق التعلّم بالدرجة الأولى كي يكون المتعلّم قادراً ومؤهّلاً للتعليم والعطاء، وهذا يلقي مسؤولية كبرى على الخطباء وغيرهم من المتصدّين للشأن الحسيني من رواديد وأصحاب مآتم وغيرهم أن يكونوا على قدر عالٍ من المستوى المعرفي -وكلٌّ بحسبه- كيما يحسن العطاء من موقعه، وكلّما تضاءل المستوى المعرفي كلّما انطمست معالم الثورة المباركة التي ضحّى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه الطاهرة من أجل إعلاء كلمة الحق تعالى.

وبعد التعلّم ورفع المستوى المعرفي يأتي الدور على التعليم ونقل المعارف إلى الغير سواء كان هذا الغير من أبناء المذهب الحق أم من غيرهم، وليس على الواحد منّا حمل الغير على اتّباع أهل البيت وموّدتهم وحبّهم، بل علينا بيان معارفهم ونشرها بين الناس بصورتها الناصعة فإذا ما اتضحت عندهم فإنّهم لا محالة

يتّبعون ويودّون أهل البيت عليهم السلام، ولذا كان يقول الإمام عليه السلام: «**فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**» فلا يحتاج الأمر إلى كلفة أزيد من ذلك.

الأمر الثاني: لزوم التنمية لجانب المودّة لأهل البيت عليهم السلام

المحبّة هي حالة انفعال نفسانيّ إيجابيّ نحو المحبوب، والمودّة عبارة عن المحبّة مع الطاعة للمحبوب، ولذا كان الدفع في القرآن لمودّة أهل البيت وعدم الاكتفاء بالمحبّة، ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[٢].

وبهذا يتّضح أنّا أمام تدرّج مهمّ يبدأ بالمعرفة وهي تولّد المحبّة، والمحبّة تولّد المودّة، فلا خير في ادعاء محبّة أهل البيت من دون الالتزام بطاعتهم.

وهذا التعزيز لهذين الجانبين ينتج أموراً مهمّة جداً من أهمّها:

التسليم لأمرهم والانقياد لهم في السلوك العملي كي يكون الفرد صادقاً إذا ما قال في زيارتهم: «**وقلبي لأمركم سلم، وأمري لأمركم متّبع..**»[٣].

والاتّباع لأمرهم وهذا ما يستدعي اقتفاء آثارهم والأخذ عنهم لا عن غيرهم، والسعي لمعرفة منهاجهم كي يمتزج حبّهم ومعرفتهم ومعرفة الإسلام عنهم ليشكّل ذلك منهاجاً يُسار عليه. ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٤].

الهوامش:

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج١، ح٦٩، في مسألة رجل أوصىٰ بجزء ماله.

(٢) سورة الشورىٰ: ٢٣.

(٣) مقطع من الزيارة المعروفة بزيارة وارث.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام
رحم الله
من أحيا أمرنا

الثورة الحسينيّة

في حوار مع سماحة العلامة الشّيخ محمود حسن العالي حفظه الله[1]

حاورته: أسرة المجلة

المقدّمة:

كلّما تقادم الزّمان كان للثورة الحسينيّة الحضوة في إنارة الطّريق، والهداية لكلِّ من أراد النّهل منها لما فيها من شدّة ذوبان في الإسلام الأصيل؛ حيث انعكست فيها مفاهيمه وقيمه ورسالته.

في هذا الحوار مع سماحة العلامة الشّيخ محمود حسن العالي حفظه الله نسلّط الضّوء على شيء من نور هذه الثّورة، وعن سبل التعامل الأصلح معها مع طرح تساؤلات عامّة فيها، وهذا سيكون واقعاً في محاور ثلاث:

المحور الأوّل: حول الثّورة الحسينيّة والتّعامل معها.

والمحور الثّاني: حول الشّعائر الحسينيّة لمعرفة ضوابطها وحدودها.

والمحور الثّالث: حول مجموعة من التّساؤلات العامّة الّتي تثار بين الفينة والأخرى. فإلى هذا الحوار الشّيّق.

المحور الأوّل: الثّورة الحسينيّة والتّعامل معها

◆ ما هو موقع النّهضة الحسينيّة من منظور إسلاميّ؟

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا وحبيب قلوبنا محمّد وأهل بيته الطّيبين الطّاهرين، واللعنة الدائمة المؤبّدة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدّين، بادئ ذي بدء وقبل أن نخوض في هذا الحوار شاكرين لكم هذا الجهد؛ حيث أَتَحْتُمْ للعبدِ الفقير الفرصة للإطلالة على الجمهور الحسينيّ من خلال هذا اللقاء الكريم ومن خلال ما تطرحونه من أسئلة مفيدة ونافعة سائلاً الله لكم الأجر والثّواب العظيم.

نتقدّم بواجب العزاء لبقيّة الله الأعظم أرواحنا لتراب مقدمه الفداء ولمراجع الدّين العظام وللعلماء الأعلام وجميع المؤمنين لهذه الفاجعة والمصاب العظيم الّذي أظلَمّ له الكون، واسودّ له الفضاء، وهذه المصيبة الّتي جزعت لها ملائكة السّماء وسكّان السّماوات والأرض.

عندما نريد أن نتحدّث عن موقع النّهضة الحسينيّة من منظور إسلاميّ يأخذنا الحديث إلى نقطتين، من خلال هاتين النّقطتين يتبيّن لنا مدى الأهميّة الفائقة، ومدى المكان الّذي تحتلّه واقعة كربلاء والنّهضة الحسينيّة من منظور إسلاميّ.

هاتان النّقطتان عبارة عن الحديث أوّلاً عن منطلقات الثّورة الحسينيّة، وثانياً الحديث عن المكتسبات والنّتائج الّتي حقّقتها الثّورة الحسينيّة.

عندما نريد أن نتحدّث عن النّقطة الأولى، وهي المنطلقات الّتي انطلقت من خلالها نهضة سيّد الشّهداء ندرك مدى أهمّيّة هذه النّهضة من المنظور الإسلاميّ من النّاحية الدّينيّة.

الثّورة الحسينيّة لم تنطلق من منطلقات ماديّة كثورة الجياع مثلاً، أو للقضاء على البطالة أو غيرها مما تكون أهدافاً محدّدة أو محدودة، إما محدّدة بحسب الفئة أو محدّدة بحسب الهدف، إنّما انطلقت الثّورة الحسينيّة من أهداف رفيعة ومن أهداف سامية وعالية، ومن الطبيعيّ عندما تنطلق الحركة والنّهضة من أهداف عالية وسامية غير محدودة سوف تحتلّ مكانتها بحسب هذه الأهداف العالية والسّامية والرّفيعة وغير المحدودة.

المنطلق الأوّل: فالثّورة الحسينيّة والنّهضة الحسينيّة انطلقت أوّلاً من الهدف الّذي أصحر به سيّد الشهداء وأعلنه وهو إرادة الإصلاح. شعار الإصلاح هو شعار عظيم، شعار مقدّس، شعار جذوره قرآنيّة دينيّة، فعندما نأتي إلى دعوات الأنبياء... دعوات الأنبياء تحمل في ضمن ما تحمل من أهداف الدّعوة إلى الصّلاح والإصلاح، بمعنى أنّ هناك فساداً يتحقّق من قبل الإنسان بطبيعته وتركيبته، فتأتي دعوات الأنبياء لمحو هذا الفساد وإزالته وتحقيق الإصلاح، فالله يقول على لسان نبيّه شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ﴾[٢] فالأنبياء يريدون إصلاح ما أفسده الإنسان.

فإذاً الصّلاح والإصلاح هو شعار دينيّ جذوره قرآنيّة، وهو شعار الأنبياء وشعار الصّالحين، فالإمام الحسين عليه السلام عندما تحرّك لم يكن تحرّكه لإثارة الشّغب أو لإثارة الاضطرابات أو لإثارة الفوضى، حاشاه وهو سيّد شباب أهل الجنّة وإنّما تحرّك من أجل تحقيق الإصلاح، ومعناه أنّ حركة الحسين جاءت على خلفيّة فساد تحقّق في واقع الأمّة ومشروع يراد له أن يحقّق الفساد وأن يوجِد الفساد على المستوى الواقعيّ للأمّة الإسلاميّة و على مستوى الصّيغة للهويّة الإسلاميّة، وعلى مستوى الفكر، وعلى مستوى العقيدة، وعلى مستوى التّشريع؛ بمعنى أنّ هناك مشروعاً إفساديّاً، هذا المشروع الإفساديّ يراد له أن يحقّق التّحريف في كلّ الصّبغة

الدّينيّة فكراً وعقيدةً وتشريعاً وهويّةً وشخصيّةً للإنسان المسلم.

فتحرّكُ الإمام الحسين عليه السلام كان لتحقيق الإصلاح وهذا هو المنطلق الأوّل.

المنطلق الثّاني: هو منطلق إقامة فريضة من أسمى الفرائض، وهي فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والّتي أشارت إليها الآيات والرّوايات وبيّنت أهمّيّتها. والقرآن عندما يتحدّث عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يحثّ على ذلك بهذه اللغة وبهذا اللسان ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ**﴾[٣]، أشبه ما يكون بإيجاد جهاز وإيجاد تكوّن يأخذ في مسؤوليّته وعلى عاتقه فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٤] لأهمية هذا الأمر ولصيانة واقع الأمّة وصيانة الدّين من التّحريف وصيانة هويّة الإنسان المسلم من التّحريف؛ لذا فالله يحرّض على أن يكون هناك جهاز يمارس ويقوم بدور الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

الأحاديث الواردة عن النّبي وعن أئمّة الهدى عليهم السلام تبيّن ضرورة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأنّ الأمّة عندما تتواكل بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر -بمعنى تتساهل وتتسامح من خلال أنّ البعض يعتمد على البعض الآخر وأنّ هذا الفرد يعتمد على الفرد الآخر، فيكون هناك نوع من التّواكل والتّهاون- تكون هناك نتائج خطيرة على الأمّة الإسلاميّة وعلى المجتمع وعلى الإنسان «**لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهنَّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم**»[٥]، هذه نتيجة من النّتائج الخطيرة المترتّبة على التّسامح والتواكل في هذه الفريضة، وقد جاء في بعض الرّوايات نوع من التّعيير والتّوبيخ بأنّ هناك أُناساً تركوا أسمى الفرائض، وهي فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر عندما تتضرّر مصالحهم وعندما تتضرّر مكتسباتهم.

إذاً بشكل مختصر؛ فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من الفرائض المهمّة جدّاً، والّتي تمثّل صيانة وضمانة لاستقامة الإنسان والأمّة وأشبه ما يكون بحراسة للدّين وسلوك الإنسان المسلم من تحقّق وسريان الانحراف لهما.

فالإمام الحسين عليه السلام انطلق من هذا الهدف وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

المنطلق الثّالث: الذي انطلق منه الإمام الحسين عليه السلام هو العودة بالأمّة الإسلاميّة إلى السّيرة الصّحيحة، هذه السّيرة الّتي تنطلق من مبادئ القرآن ومبادئ التّشريع وهي سيرة النّبي وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام الّذي هو الإنسان المعصوم المنزّه عن الذّنب والخطأ، فكان يقول: «**وأسير بسيرة جدّيّ وأبي عليّ بن أبي طالب**»[٦] فالإمام الحسين عليه السلام انطلق من هذا الهدف المهمّ وهو العودة بالأمّة -على مستوى المسار السّياسيّ والاجتماعيّ- إلى سيرة النّبي الّتي تنطلق من مبادئ القرآن ومبادئ التّشريع وسيرة أمير المؤمنين، وهذه المنطلقات المهمّة الّتي انطلق منها الإمام الحسين لها أثرها البالغ في واقع الأمّة.

إذا جئنا على مستوى المكتسبات فثورة الحسين عليه السلام ونهضته المباركة ـ على مستوى المكتسبات- قد حقّقت للأمّة الإسلاميّة مكتسبات مهمّة جدّاً و بالغة الأهمّيّة؛ الحسين عليه السلام وإن كان على مستوى الحسم العسكريّ قد خسر المعركة، ولكنّه ربح وانتصر على المستويات والمكتسبات الأخرى، ولعلّ هذا ما تشير إليه كلمته عندما كتب إلى بني هاشم: «**أمّا بعد، فإنّ من لحق بي استشهد ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح**»[٧] الحسين عليه السلام يتكلّم عن فتحٍ ومن الطّبيعيّ أنّ المقصود ليس الفتح والنّصر المادّيّ؛ إذ الحسين عليه السلام خسر المعركة على المستوى العسكريّ، ولكنّ الفتح بلحاظ المكتسبات والمعطيات والنّتائج والآثار الّتي تحقّقت بعد استشهاده سواء

كان على مستوى واقع الأمّة الإسلاميّة أو كان على مستوى الشّيعة وعلى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

على مستوى مكتسبات الأمّة الإسلاميّة نستطيع أن نوجز ذلك بكلمة واحدة، فنقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أسقط المشروع الرّامي إلى تغيير الإسلام، وتغيير الصّيغة الأساسيّة للإسلام وتحريفه ومسخه وتحويله إلى إسلام كما يريده بنو أمية.

هذا المشروع الّذي خُطّط له، ودُرّس على أن يكون هو البديل للصّيغة الإسلاميّة الصّحيحة وللإسلام الّذي جاء به النّبي الأعظم ، أُريدَ لهذا الإسلام أن يُحرَّف وأن يُزَيّف، وهناك شواهد كثيرة جدّاً على وجود هذا المشروع، والمتتبّع لثنايا التّاريخ يجد هناك العشرات من الشّواهد المدلّلة على وجود مشروع كان يستهدف الصّيغة الأساسيّة للإسلام بتحريفها وتزييفها، وكشاهد على ذلك ما حُكي عن البرّاء بن عازب أو ما حُكي عن غيره من الصّحابة -ولعلّه جابر- وقيل أنس: إنّه لمّا ذهب إلى الشّام ورأى ما عليه وضع النّاس هناك بكى وتأثّر واستعبر، وقال: إنّه كلّ ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعهدناه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله قد تغيّر، حتى هذه الصّلاة الّتي كنّا نصلّيها مع رسول الله قد تغيّرت[٨]، وهذا واحد من الشّواهد الّتي تدلّل على أنّ هناك مشروعاً خطيراً جدّاً يستهدف ذات الدّين، وذات الإسلام، بتحريف الصّيغة الأساسيّة للإسلام وإبدال الإسلام بصيغة محرّفة مزيّفة، وإعطاء نسخة مختلفة تماماً عن النّسخة الأصليّة للإسلام.

الإمام الحسين عليه السلام أسقط هذا المشروع وأفشله، وهذا مكسب على واقع الأمّة، ويشهد على ذلك ما يُذكر في التّاريخ أنّه لمّا أُخذ علي بن الحسين عليه السلام وبنات

رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا إلى يزيد، ثم التفت يزيد إلى علي بن الحسين، وقال: مَنْ المنتصرُ أنا أم أبوك؟ فقال: «إذا أذّن المؤذن يتبيّن من هو المنتصر»[٩].

فهذا شاهد على أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أسقط ذلك المشروع الّذي كان يستهدف الصّيغة الأساسيّة للإسلام ويريد أن يأتي بإسلام محرّف، إسلام يتجاوب ويلتقي مع رغبات وأهواء النّاس تماماً، لذا فإنّ الإمام الحسين عليه السلام بدمه وبتضحياته حفظ الدّين الإسلاميّ بشكله العامّ من أن تناله صيغة التّحريف.

هذا على المستوى العامّ كمكتسب، وأمّا على مستوى واقع المنتمين لأهل البيت عليهم السلام فهناك الكثير من المكتسبات والكثير من النّتائج الّتي تحقّقت ببركة دم سيّد الشّهداء عليه السلام.

هذه القوّة الّتي يمتلكها أتباع أهل البيت عليهم السلام -وأتكلّم عن القوّة المعنويّة والقوّة في بعض سياقاتها المادّيّة كقوّة الإعلام الّتي يمتلكها الآن أتباع أهل البيت عليهم السلام- جاءت ببركات دم سيّد الشهداء عليه السلام، وتحقّقت بسبب النّهضة الحسينيّة، فلولا النّهضة الحسينيّة لم يكن لنا نحن كأتباع لمدرسة أهل البيت عليهم السلام هذه القوّة الهائلة، من إعلام ومن حضور إعلاميّ وحضور جماهيريّ لا يمكن لأيّ قوّة أن تُوجِد هذا الحضور وأن تُوجِد هذه القوّة الإعلاميّة، اليوم حتّى بعض القضايا الّتي نشهدها في عالمنا حتّى لو استقطبت جمهوراً إنّما تستقطب جمهوراً من خلال المال والأمور المادّيّة، أمّا في قضيّة الحسين عليه السلام نجد أنّ هذا الحضور الجماهيريّ وهذا الاحتشاد الجماهيريّ، والقوّة الإعلاميّة من خلال هذا الاحتشاد الجماهيريّ في كلّ الدّنيا ليس فقط في مناطق وعالم التّشيّع وإنّما في جميع مناطق الدّنيا، هذا الحضور يأتي عفويّاً وحبّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله واستجابة لنداء الله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١٠] إذ يعتبر هذا التّعاطف مع قضيّة

الحسين عليه السلام نحو من أداء أجر الرّسالة، المطلوب منّا كأمّة إسلاميّة أن نجسّد هذا التّعاطف وهذا الولاء لسيّد الشّهداء عليه السلام، وهنا لا بدّ من أن أذكر أنّ الإمام الحسين ليس فقط للشّيعة، وإنّما الحسين عليه السلام سيّد من سادات المسلمين، وعالم من علماء الصّحابة على أدنى مستوى إذا لم ننظر نظرة الشّيعة الإماميّة إلى الحسين كإمام معصوم مفترض الطاعة، فهو يتمتّع بهذه الموقعيّة كما صرّح ابن كثير في البداية والنّهاية حيث يقول: "**فكلّ مسلم ينبغي له أن يحزنه قتله رضي الله عنه، فإنّه من سادات المسلمين، وعلماء الصّحابة، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الّتي هي أفضل بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخيّاً**"[١١] فالتّفاعل مع قضيّة الحسين يجسّد لوناً وشكلاً من أشكال المودّة المأمور بها الإنسان المسلم بغضّ النّظر عن انتمائه المذهبيّ، هذا مكسب من المكاسب الّتي حقّقتها ثورة الحسين عليه السلام.

مكسب آخر في ثورة الإمام الحسين عليه السلام، أنّ القضيّة كأنّها عمليّة تمحيص وغربلة للأمّة وأنّ الأمّة هل هي مستعدّة للتّضحية من أجل مبادئها وقيمها عندما تتعرّض للخطر والتّهديد أم لا.

فمن مكاسب ثورة ونهضة الإمام الحسين عليه السلام أنّها جعلت النّاس على المحكّ، وبيّنت لكلّ متتبّع ولكلّ داعية للإصلاح هذه الحقيقة ومدى استعداد النّاس للتّضحية من أجل مبادئها وقيمها حتّى لا يغترّ أيّ مُصلِح من المصلحين على مسألة بالجمهور، الإمام الحسين عليه السلام يقولها بكلّ صراحة: «**النّاس عبيد الدّنيا**»[١٢] ونحن كلّنا يعلم أنّ هذه الألف واللام للاستغراق وليست للإشارة إلى حصة خاصّة من النّاس، حتّى يقول قائل: إنّ هذا إشارة إلى خصوص النّاس الموجودين في زمانه.

الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يقرّب هذه الحقيقة وهي أنّ النّاس عبيد الدّنيا

والدّين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، يتّبعون الإسلام ويتكلّمون باسم الإسلام ويستحضرون مفاهيم الإسلام، وقيم الإسلام ما دامت تدرّ عليهم المصالح لكن إذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الدّيّانون، هذه حقيقة، حقيقةٌ أفرزتها نهضة سيّد الشّهداء عليه السلام وهي معطى مهمّ جدّاً لكلّ مصلِح يريد أن يعتمد على الجمهور.

مُعطى آخر ومكتسب آخر حقّقته الثّورة الحسينيّة -صلوات الله وسلامه على بطلها ورمزها- أنّه بعد واقعة الطّف إلى هذا اليوم أوجدت حركة الإمام الحسين عليه السلام منبراً متحرّكاً فاعلاً، وفتحت المجال وفسحت الفرصة لنشر تعاليم الدّين وثقافة الدّين وفكر الدّين وإشاعة الفضيلة، إشاعة الكرامة وإشاعة كلّ المبادئ القيّمة من خلال هذا الموسم المعطاء من خلال منابر الخطابة، ومن خلال مجالس الحسين عليه السلام وهي فرصة عظيمة، هذه الفرصة العظيمة أتصوّر أنّها لم تتحقّق لولا بركة سيّد الشّهداء عليه السلام ودماء سيّد الشّهداء.

هذه المآتم الّتي تمثّل مدارس فكريّة وعلميّة تغذّي المجتمع بالثّقافة الدينيّة وبالفكر الدّينيّ، وتحصّن المجتمع تحصيناً تامّاً مقابل كلّ مشاريع الغزو وكلّ أطروحات التّحريف وفي مقابل كلّ تجهيل، فهي تغذّي المجتمع الدّينيّ بالفكر الإسلاميّ الأصيل عقيدة وشريعة وأخلاقاً وفكراً وإيماناً ومعنويّة على كلّ هذه الأبعاد، فهذا معطى عظيم ومكسب كبير لم يتحقّق لولا بركة سيّد الشّهداء عليه السلام، ولراصدٍ متتبّعٍ أن يتتبّع الواقع الإسلاميّ ويجد هذه المدارس المفتوحة الّتي يؤُمّها ويحضرها مختلف النّاس؛ ليتثقّفوا وليتفهّموا وليعرفوا حقيقة الدّين وحقيقة التّشيّع ومظلوميّة أهل البيت عليهم السلام ويتعرّفوا على الفكر الإسلاميّ الصّحيح عقيدة وشريعة وأخلاقاً وقيماً وإيماناً ومعنويّة إنّما وجدت ببركة دم سيّد الشّهداء عليه السلام.

لو أردنا أن نقيم محفلاً فكريّاً وندعو له دعوة عامّة، ونبرز أكبر شخصيّة

فكرية لتلقي وتحاضر لا أتصوّر أنّها تستقطب أكثر من مائة أو مائتين أو ثلاث مائة، إلّا أنّ مدارس الحسين عليه السلام طوال هذين الشّهرين وبالخصوص العشرة الأوائل من شهر المحرّم، وعلى تعدّدها وعلى كثرتها تجد أنّها تستقطب النّاس إلى درجة أن تضيق مساحة هذه المآتم وهذه الحسينيّات على الأعداد القادمة لتتلقّى المعرفة والفهم والعقيدة الصّحيحة والتّشريع والأخلاق، فهذه بركات دم سيّد الشهداء عليه السلام.

إذاً نحن ندرك ما تحتلّه نهضة الحسين عليه السلام من أهمّيّة على مستوى المنطلقات التي انطلقت منها، وعلى مستوى المكتسبات الّتي حقّقتها إن كان على مستوى واقع الأمّة الإسلاميّة أو على واقع أتباع مدرسة أهل البيت، وأشير في هذا السّياق إلى كتابين مهمّين جدّاً لمن أراد أن يتعرّف بشكل مستوعب ومفصّل على الأهداف والنّتائج والمكتسبات، الأوّل كتاب الثّورة الحسينيّة المنطلقات والأهداف للعلّامة الكبير والمفكّر الإسلاميّ الرّاحل سماحة الشيخ محمّد مهديّ شمس الدّين[١٣]، وإلى الكتاب القيّم الآخر وهو كتاب فاجعة الطف أبعادها ثمراتها توقيتها تأليف السّيّد المرجع الكبير آية الله العظمى السّيّد محمّد سعيد الحكيم دام ظله[١٤]، ففيهما الغنى والكفاية.

◆ **هل المظاهر العاشورائيّة الّتي يقوم بها الشّيعة تكفي للاستفادة من القيم الحسينيّة؟**

المظاهر العاشورائيّة فيما عدى المنبر الحسينيّ غالباً ما تكون مظاهر رثائية وإبكائيّة، وبالتّالي لا يمكن الاستفادة منها في بيان ونشر القيم الحسينيّة بصورة كبيرة، ومن هنا ربما مع الأسف تضيع هذه القيم والمبادئ في حين أنّ كربلاء مدرسة مترعة بالقيم والمبادئ، مدرسة مليئة بكلّ الفضائل ومن الضّروري أن

تُجسّد وأن تبيّن هذه القيم من خلال الشّعار والعزاء واللطميّات والمحاضرات، فمن المهمّ جدّاً أن تبيّن تلك القيم الّتي جسّدها الحسين وجسّدها أصحابه، كيف تعامل مع أعدائه بكلّ تلك العاطفة والمحبّة كما في مثل قضيّة علي بن طعّان المحاربيّ الّذي كان آخر من التحق مع الحرّ[١٥] وسقاه الإمام الحسين عليه السلام بنفسه، كيف نجد اهتمام الإمام الحسين وأصحابه بالصّلاة والعلاقة مع الله الّتي جسّدوها ليلة العاشر حيث طلب الإمام الحسين عليه السلام من أخيه العباس عليه السلام أن يذهب للقوم لأجل أن يؤجلوهم عشيّة ليلة العاشر حتّى يتفرّغوا للعبادة والصّلاة، وكيف في يوم العاشر وقد حمى وطيس الحرب لم ينسَ أصحاب الحسين أداء الصّلاة، فقام بعض أصحابه وهو سعيد بن عبد الله الحنفي وقال له لمّا نظر إلى الشّمس وقد زالت حان وقت الصّلاة وإنّي أحبّ أن لا أخرج من الدّنيا إلّا وقد صلّيت هذه الصّلاة معك، فقال: له الإمام ذكرت الصّلاة جعلك الله من الذّاكرين[١٦]، وهذا مبدأ مهمّ جدّاً وهو المحافظة على الصّلاة في أحلك وأصعب الظّروف، فهذه المسألة قيّمة ومبدأ لا بدّ من أن يتجلّى ويُجسّد ويترجم من خلال الشّعار ومن خلال اللطميّة ومن خلال المحاضرة.

أن نستحضر الإمام الحسين عندما ودّع أهل بيته زينب وأخواته وقال لهن عليكنّ بلبس الأزر ولا تقولنّ ما لا يرضي الله، نستحضر أهمّيّة الخدر والحشمة والحجاب. كما أنّنا نجد الإيثار والتّضحية في أرقى صورها قد تجسّدت في أفعال سيّدنا أبي الفضل العبّاس. إذا فكلّ أحداث كربلاء نجد فيها قيم ومبادئ وفضائل ومكارم نحتاج إلى تجسيدها وترجمتها ترجمة فكريّة وسلوكيّة وعمليّة، ولذلك أنا لا أرى أنّ المظاهر العاشورائيّة الموجودة بالفعل كافية لتجلية وتوضيح وبيان كلّ هذه القيم والمبادئ التي امتلأت بها وأترعت بها واقعة كربلاء.

◆ **ما هو المظهر والسّلوك اللائق بالمؤمنين خلال موسم العزاء في شهر المحرّم؟**

هذا السّؤال مهمّ جدّاً وسؤال ينبغي أن يترجم عمليّاً من خلال التّوجيه والإرشاد والنّصيحة.

١ـ البكاء والتّباكي

أقول بشكل مختصر: ينبغي أن يتمثّل الإنسان المؤمن ما جاء في الرّوايات الواردة عن بيان حال أئمّة الهدى وكيف تعاطيهم مع هذه الفترة وعشرة المحرّم، فقد جاء في توصيف أحوال مولانا الإمام الكاظم عليه السلام أنّه إذا دخلت العشرة الأولى من المحرّم لم يُر ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه وإذا كان اليوم العاشر كان يوم حزنه وبكائه[١٧]، وهكذا كان يتعامل أئمّة أهل البيت بنوع من الاحترام والتّعظيم، وإظهار الحزن والجزع على سيّد الشّهداء عليه السلام.

الرّواية تقول: «**وكانت الكآبة تغلب عليه**»، يعني يكون كئيباً، «**فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه**»، هذا سلوك الأئمّة وتعاطيهم مع هذه العشرة، الإمام الصادق في رواية أنّه إذا ذُكرَ الحسين عليه السلام عنده لم يُرَ باسماً أو ضاحكاً طوال ذلك اليوم؛ لعظم تأثّره بمصيبة سيّد الشّهداء عليه السلام[١٨]. الإمام عليه السلام لمّا يُذكر عنده الحسين عليه السلام لا يُرى ضاحكاً؛ فما بالك وأنت تستحضر هذه الواقعة العظيمة والفاجعة الكبرى بكلّ تفاصيلها وبكلّ جزئيّاتها في هذه المدّة من خلال ما يتعرّض إليه خطباء المنبر الحسينيّ، فينبغي على الإنسان أن يتعامل معها التّعامل المناسب كإنسان موالٍ متأثّر يُظهر الحزن.

تصنّع الحزن مطلوب، تصنّع البكاء مطلوب، كما جاء في الرّواية إن لم تبكِ فتباكى، هذا التّصنّع ليس رياءً وإنّما تصنّع بمعنى افتعال البكاء؛ لأنّ افتعال البكاء يؤدّي إلى البكاء وافتعال الحزن يؤدّي إلى الحزن... نفس هذا الافتعال هو أمر مطلوب[١٩].

٢ـ الحضور في المجالس

الحضور في المجالس هذه مسألة مهمّة، أن يسعى الإنسان المؤمن بأن يحضر أكبر عدد من هذه المجالس، فهذا توفيق عظيم وفيه تطييب لقلب النّبي، وتطييب لقلب فاطمة الزّهراء المكسور في هذه الأيّام وقلب أمير المؤمنين وقلب الحسن الزّكيّ، وقلب سائر أئمّة الهدى عليهم السلام. فإذا كان هذا العمل -الّذي لا يكلّف الإنسان شيئاً ولا يأخذ منه جهداً- موجباً لتطييب قلوب النّبيّ وأهل بيته عليهم السلام، فلماذا يتأخّر الإنسان عن مثل هذه الخطوة المباركة والعظيمة والّتي وراءها التّوفيق.

وأن لا نستعيض عن حضور مجالس الذّكر بالاستماع للمحاضرات من خلال الفضائيّات، أو البثّ المباشر عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ، هذه حالة خطيرة.. وهي أن نستعيض بها عن مجالس الذّكر ومنها مجالس المصيبة[٢٠] وعن المآتم بالاستماع إلى خطيبٍ من خلال فضائيّة مثلاً، هذا شيء جيّد لمن لا يتمكّن من الحضور لكونه مريضاً -لا سمح الله- أو لكونه في عمل، أمّا الإنسان الّذي تسمح له ظروفه بالحضور فينبغي له أن يحضر.

وهنا أُريد من خلال هذا اللقاء الكريم أن أبيّن نقطة وهي: أنّ بعض النّاس يتعلّل ويبرّر عدم حضوره؛ بأنّ الخطيب ليس لديه مادّة علميّة غزيرة، أو أنّ ما يقدّمه ليس بالمستوى المطلوب...إلخ.

ليس المطلوب الحضور هنا في المأتم فقط من أجل أن تزداد معرفيّاً، والأهداف من حضور المآتم أهداف طوليّة؛ فالمطلوب بالدّرجة الأولى هو الحضور للعزاء والبكاء ومواساة النّبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ومن ثمّ التزوّد المعرفيّ والعلميّ ولكن ليس هو كلّ الهدف. نفس الحضور هو نوع من التّعظيم والتّجليل

لمقام سيّد الشّهداء عليه السلام والّذي لا ينبغي للمؤمن أن يستعيض عنه بشيء آخر لا يحقّق هذا الهدف.

الحضور هو الّذي يمثّل تعظيماً وتجليلاً لمقام سيّد الشّهداء، أمّا أن أستمع لوحدي أو مع عائلتي لفضائيّة فهذا لا يعكس هذا التّجليل والتّعظيم.

٣ـ إظهار الجزع

كذلك إظهار الجزع، ورد في الرّواية الصّحيحة الّتي يرويها ابن قولويه في كتاب كامل الزّيارات: «**إنّ البكاء والجزع مكروه للعبد في كلّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي ، فإنّه فيه مأجور**»[٢١] الجزع لون من ألوان التّعاطي والسّلوك الّذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان المؤمن في هذه العشرة وهي شدّة التّأثّر والمبالغة في التّأثّر، الجزع مكروه ما خلا الجزع على الحسين عليه السلام، أن يُظهر الإنسان الجزع، أن يظهر ويبالغ في إظهار هذا الجزع، هذا أمر مطلوب وهذا سلوك من السّلوكيات المطلوبة للتّعامل مع هذه الأيّام العظيمة والأيّام الكئيبة على آل الرّسول صلى الله عليه وآله، وعلى المؤمنين.

٤ـ لُبس السّواد

لُبس السّواد، وهو نوع من أنواع إظهار الجزع، ولذلك كتبتُ رسالة فقهية في هذا المجال[٢٢] وهو استحباب لُبس الأسود بعنوان أنّه مظهر من مظاهر الجزع.

مضافاً إلى أنّ ما ورد من كراهية لُبس الأسود ليس تامّاً، فرواياته ليست تامّة من حيث السّند ولا من حيث الدّلالة، وهذا موكول للبحث الفقهيّ. عموماً، التّسربل بالسّواد هو شكلٌ من أشكال الجزع، وإظهار الجزع هو أمر مطلوب دلّت عليه الرّوايات الصّحيحة وفيها نوع من التّحريض على إظهار الجزع.

٥ـ حسن الأدب

الأمر الآخر أن يَظهر الإنسان الموالي في هذه الأيام بالمظهر الّذي يعكس حسن الانتماء ويعكس حسن الأدب.

لا ينبغي لنا لا من خلال سلوكٍ، ولا من خلال تصرّفٍ، أو كلمةٍ أن نعكس ما لا ينبغي لنا أن نعكسه؛ لأنّ هذه التّصرّفات تنجرُّ بالنّتيجة إلى انتمائنا. وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام: «**إنّ الحسن من كلّ أحد حسن وإنّه منك أحسن؛ لمكانك منّا، وإنّ القبيح من كلّ أحد قبيح وإنّه منك أقبح**»[٢٣]، و«**كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً**»[٢٤] و«**جُرُّوا إلينا كُلَّ مودَّة وادفعُوا عنّا كُلَ قَبيح**»[٢٥] فهذه الرّوايات وغيرها تحثّ على أن يكون الإنسان المؤمن عاكساً لحسن أدبه وحسن سلوكه بحكم انتمائه لأهل البيت عليهم السلام.

هذه الفترة الزّمنيّة يكون أتباع أهل البيت تحت المجهر وتحت الأضواء؛ فلا ينبغي أن نعكس ما يسيء إلى انتمائنا من خلال سلوك أو من خلال كلمة أو من خلال تصرّف سيّء.

٦ـ ترك السّعي في الحوائج الدّنيويّة

كذلك ينبغي ترك السّعي في الحوائج الدّنيويّة في خصوص يوم العاشر، ففي الحديث عن الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن علي بن موسى قال: «**من ترك السّعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدّنيا والآخرة**»[٢٦].

المحور الثّاني: الشّعائر الحسينيّة

◆ ما هي الضّابطة في معرفة الشّعائر الحسينيّة المشروعة؟

تنقسم الشّعائر الحسينيّة إلى قسمين:

القسم الأوّل: الشعائر المنصوصة الّتي جاء النّص عليها:

كقول الشّعر في الحسين عليه السلام «**مَن قال فينا بيتَ شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنّة**»[٢٧].

والبكاء والإبكاء: «**مَن ذُكر الحسين عنده فخرج من عينه مقدار جناح ذبابة، كان ثوابه على الله عزّ وجلّ، ولم يرض له بدون الجنّة**»[٢٨].

فالرّثاء الّذي هو عبارة عن قول الشّعر وإنشائه في الإمام الحسين عليه السلام أمرٌ متعارف من زمن أئمتنا عليهم السلام إلى زماننا هذا، وهو الجاريّ والمتعارف بين الشّيعة حيث يأتي الخطيب والرّاثي وينشد الشّعر الّذي يذكّر النّاس بمصيبة سيّد الشّهداء عليه السلام وما حلّ عليه وعلى أهل بيته، فهو أمر مستحبّ منصوص. وكذا البكاء، أي: إيجاد حالة البكاء الّذي يكون بذكر مصيبة الحسين بشكل تفصيليّ، حيث يؤدي إلى التّأثّر والبكاء من باب تعلّق الطلب بالسّبب وإرادة المسبّب[٢٩].

زيارة الحسين عليه السلام، هذه شعائر منصوصة ومستحبّة للدّليل الخاص[٣٠].

وقراءة زيارة عاشوراء[٣١] في أيّ وقت وخصوصاً في هذه الأيّام أمرٌ مطلوب. فهذه نماذج من الشّعائر المنصوصة الواردة بالدّليل الخاصّ.

القسم الثّاني: وهو الشّعائر غير المنصوصة، أي: المستجدّة والمستحدثة. وهذه الشّعائر نشترط في شرعيّتها ومطلوبيّتها شرطين:

الشّرط الأوّل: أن تكون أسلوباً عرفيّاً للتّعبير عن الحزن؛ بمعنى أن تكون في

نظر عامّة النّاس أسلوباً معبراً عن الحزن والكآبة كلبس الثّوب الأسود؛ فإنّ الثّوب الأسود في عادة النّاس والمجتمعات يمثل شعار الحزن.

الشّرط الثّاني: ألّا تكون هذه الشّعيرة المستجدّة سبباً لإدخال الضّعف والتّوهين والتّجريح أو الاستغلال وسوء التّوظيف ضدّ شيعة أهل البيت عليهم السلام.

فإذا ما توفّر هذان الشّرطان عندها تدخل هذه الشّعيرة المستحدثة تحت عموم قولهم: «**كلّ الجزع والبكاء مكروه ما خلا الجزع والبكاء لقتل الحسين**»[٣٢].

فإذاً الدّليل على مشروعيّة الشّعائر إمّا أن يكون نصّاً خاصّاً، وإمّا أن يكون دليلاً عامّاً، لكنّ هذا الدّليل العامّ يلزم في تطبيقه هذان الشّرطان.

◆ **هناك من يقول: إنّ الشّعائر الّتي يقوم بها الشّيعة في عاشوراء، كالجزع في البكاء واللطم وما شابه أساليب غير حضاريّة وغير متمدّنة وتسبّب النّفور من مذهب الشّيعة.. فما تقولون؟**

هذه مغالطة، بعض هذه الشّعائر الحسينيّة هي أمور منصوص عليها مثل البكاء والرّثاء بقول الشّعر واللطم على الصّدر، فهذه أمور إمّا أن تكون منصوصاً عليها بالنّص الخاصّ كالبكاء وقول الشّعر ورثاء سيّد الشّهداء عليه السلام، أو داخلة تحت العموم كاللطم على الصّدر فإنّه من أوضح مصاديق الجزع. فهذه أمور دينيّة ذات جهة تعبّديّة لا يمكن التّنازل عنها أو التّقليل من شأنها بدعوى أنّها ليست حضاريّة، ولا دخل لهذا الأمر فيها بمعنى أنّنا لا يمكننا التّنازل عنها بدعوى أنّها أساليب غير حضاريّة أو أنّ البكاء غير حضاريّ أو أنّه من غير المناسب للرّجل أن يبكي وما أشبه ذلك من التبريرات الواهية وغيرها.

فهذا أمر دينيّ تعبّديّ دعا إليه أئمّة أهل البيت، وحثّت عليه النّصوص والرّوايات، وأكّدت عليه أحاديثهم ولذلك لا يمكن لنا بمبرر أنّها ليست

حضاريّة أن نتنازل عنها أو نرفع اليد عنها، وهذا أمر في غاية الخطورة على الشّعائر الحسينيّة.

نعم بالنّسبة إلى الأمور الأخرى الّتي لم يرد فيها نصّ خاصّ ولا يحرز دخولها تحت العناوين العامّة فتكون من قبيل التّمسك بالعامّ في الشبهة المصداقيّة[٣٣]، وهذه يمكن أن تقع تحت التّساؤل وتحت الاستفسار، أمّا ما هو منصوص عليها فلا يمكن أن يقال أنّه غير حضاريّ أو أنّه أمر لا يتناسب ونرفع اليد عنه، هذا أمر مثل الصّلاة الّتي لا يمكن لنا أن نرفع اليد عنها بدعوى أنّها ليست حضاريّة وما أشبه ذلك.

◆ **يقول البعض: إنّ الممارسات الشّعائريّة التي يقوم بها الشّيعة في زماننا لم تكن معروفة ومتداولة في زمن المعصومين فما هو دليل مطلوبيّتها؟**

لا نستطيع أن نقول: إنّ جميع الممارسات لم تكن موجودة، فاللطم على الصّدر مثلاً لا سبيل إلى نفي وجوده، ولا يمكن أن نقول إنّه فاقد للمشروعيّة، إذ يكفي في مشروعيّته دخوله تحت عنوان الجزع، فإنّ من الواضح أنّ اللطم على الصّدر عند المصيبة مظهر من مظاهر الجزع والحزن، والجزع والحزن على سيّد الشهداء عليه السلام ممّا ندبت إليه النّصوص الصّحيحة.

نعم، الخروج في مواكب العزاء مثلاً يمكن أن نقول: إنّه لم يكن موجوداً في زمن الأئمّة لظروف ومبرّرات، حيث لم يكن الشّيعة بهذه الكثافة ولم تكن لهم القوّة الّتي يمكن لهم من خلالها فرض وجودهم وممارساتهم، ولكنّ عدم وجودها السّابق لا يعني عدم مشروعيّتها؛ إذ يكفي في مشروعيّة هذه الممارسات دخولها في عموم الدّليل «كلّ الجزع مكروه ما خلا الجزع على الحسين» بالإضافة إلى الضّوابط الأخرى.

المحور الثّالث: تساؤلات عامّة

◆ ما هي المصادر المعتمدة والّتي يمكن الوثوق بها فيما يتعلّق بأحداث كربلاء؟

هناك عدّة مصادر جيّدة قديمة وحديثة.

ومن خلال المراجعة إلى فهارس الرّجال وكتاب الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة للمرحوم العلّامة البحّاثة المتتبّع آغا بزرك الطّهرانيّ نجد ما يقارب ٤٦ مصدراً بعنوان مقتل الحسين عليه السلام كمقتل عمّار الدّهنيّ من أصحاب الصّادق عليه السلام، وإن كان الطّبريّ نقلها في تاريخه ولكن لم ينشر ويطبع ونحن نذكر بعضاً من المصادر القديمة:

١ـ مقتل ابن نما الحلي رحمه الله المسمّى بمثير الأحزان.

٢ـ مقتل السّيّد ابن طاووس قدس سره المسمّى بالملهوف على قتلى الطّفوف.

٣ـ مقتل المجلسيّ رحمه الله في بحار الأنوار.

مقتل الطّبري وإن كان في هذا الأخير بعض الملاحظات لكنّ العلّامة السّيّد محمّد الجلاليّ لديه هوامش لطيفة عليه عندما نضمّها إليه تكتمل الصّورة، ومن الواضح أن الطّبريّ ربّما يحاول إنكار بعض المواقف والأحداث ومع ذلك فقد نقل الكثير من هذه الأحداث.

ومن الكتب المتأخّرة:

١ـ مقتل السّيّد المقرّم الّذي هو من المقاتل المعتبرة جدّاً.

٢ـ مقتل السّيّد محمّد تقي بحر العلوم.

٣ـ مقتل الشّيخ محمّد تقي الجواهريّ رحمه الله الّذي كان معاصراً للميرزا النّائيني

والسّيّد أبو الحسن الأصفهاني وهو من الكتب المعتبرة المحقّقة.

ومؤخّراً طبع العلّامة الباحث الشّيخ محمّد الري شهريّ الصّحيح من المقتل ويمكن الاستفادة منه إلى حدّ كبير كذلك.

فهذه مصادر يمكن الاعتماد عليها وخصوصاً مقتل السّيّد المقرّم.

◆ **كثرت في الآونة الأخيرة اللغط حول كتاب الفخريّ للطّريحيّ.. فما هو تقييمكم للكتاب والكاتب؟**

أوّلاً: مؤلّف الكتاب هو العلّامة الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحيّ رحمه الله[٣٤] الذي هو من أجلاء العلماء وأكابر الفقهاء، وله مصنّفات متعدّدة في الفقه وفي اللغة وفي علم الرّجال وفي علم الحديث وله تضلّع واسع في اللغة، وأشهر كتبه ومصنّفاته هو كتاب مجمع البحرين الكتاب اللغويّ المهمّ والّذي يحظى باهتمام بالغ لدى العلماء والفقهاء والمفسرين. فالرّجل من النّاحية العلميّة يعتبر عالماً من العيار الثّقيل لما يتمتّع به من جامعيّة للعلوم الإسلاميّة، وينتهي نسبه إلى حبيب بن مظاهر الأسديّ الشّهيد وسيّد أصحاب الإمام الحسين فهو عربيّ أصيل، هذا بشكل موجز حول الشّيخ فخر الدّين الطّريحيّ قدس سره.

أمّا بالنسبة إلى كتابه المنتخب فهو كتاب أعدّه لمصائب أهل البيت، وبالخصوص مصيبة سيّد الشّهداء بسبك خاصّ ولغة أدبيّة تشتمل على السّجع وتشتمل على نمط خاصّ من التّعابير، وفي الحقيقة له تأثيره العاطفيّ والوجدانيّ. وأنا لا أستبعد أن يكون غرض المصنّف الشّيخ فخر الدين الطّريحيّ لكتابه المنتخب أو الفخري هو استدرار الدّموع فإنّ من يقرأه ويتأمّل في عباراته فإنّه يجد لغة إثارة الدّمعة وأسلوب الإبكاء واضح على صياغته وعلى أسلوبه.

من جهة أخرى إنّ هذا الكتاب في غالب ما ينقله مراسيل لا يسنده إلى

مصادرها من أمّهات الكتب المعتبرة، وهذا بالطبع سوف يؤثّر في قيمة الكتاب، لكن يبقى هنا أمر وهو أنّه إذا كان ما ينقله ليس فيه منافاة لبديهيّات العقل، وليس فيه ما يوجب الاستبعاد وليس فيه ما هو مستغرب أو شاذ فيمكن تقبّله؛ حيث إنّ القضيّة التّاريخيّة ومنهجها تختلف عن القضيّة الفقهيّة الّتي هي إثبات المنجّزيّة والمعذّريّة، ففي القضيّة التّاريخية إنّما يراد حكاية أحداث، ولذا فمن الضّروريّ عدم التّعامل مع القضايا التّاريخية بأداة الفقيه.

نعم الكتاب فيه بعض الأمور الّتي هي خلاف ما هو مشهور ومعروف مثل: قضية زواج القاسم بن الحسن وتفاصيلها، والّذي يقْرُب أو لا يُستبعد أنّه قد حدث هذا الزّواج أو حدث عقد في كربلاء للقاسم، ولكن ليس بعنوان الزّواج[٣٥]، ولعلّ الّذي أعطاه هذا العنوان هو العاطفة التي يحملها أتباع أهل البيت من أجل إثارة العاطفة واستدرار الدّمعة، يعني ليس هناك استحالة أو استبعاد بأن يعقد الإمام الحسين عليه السلام لابن أخيه ويزوّج القاسم، لكن قطعاً ليس في يوم عاشوراء، فالقضيّة ممكنة وغير مستبعدة ولكن لا شكّ في أنّ المسألة تحتاج إلى دليل.

أو قضية الطّيور والحمام الّتي ظلّلت جسد الحسين وطارت إلى المدينة، ورأت فاطمة بنت الحسين أرجل هذا الحمام مصبّغة بالدّم فعرفت بمقتل أبيها، فهذه أيضاً من القضايا الغريبة، فإنّ قضية مقتل الحسين يمكن أن نقول إنّ أهل المدينة قد علموا بها بواسطة أم سلمة خصوصاً - على الأقلّ- أنّه لو خفى على غالب النّاس فإنّه لا يخفى على أهل البيت عليهم السلام الّذين أودعهم النّبي هذا الأمر، وخصوصاً السّيّدة أم سلمة وحديث تربة كربلاء أحاديث معروفة مشهورة رواها السّنّة والشّيعة[٣٦] ويمكن أن ندّعي أنّ هذه القضيّة مستفيضة، فلمّا جاء يوم العاشر ورأت أنّ التّربة قد صارت دماً علمت بمقتل الحسين عليه السلام وأخذت بالبكاء

فاجتمعن عليها نساء بني هاشم، فخبر مقتل الحسين عليه السلام قد عُلم بهذا وليس بواسطة الطّير أو الحمام... هذه من القضايا الّتي فيها شيء من الغرابة، ولكن يبقى أنّ هناك لغة تضخيميّة، وهذه لا بدّ من الالتفات إليها بمعنى أنّ اشتمال الكتاب على حادثة أو اثنتين أو ثلاث غريبة لا يوجب إسقاط الكتاب عن أصل الاعتبار والمبالغة في المسألة، فالإنسان مثلاً يأتي إلى كتاب البحار -هذه الموسوعة الرّوائية العظيمة- فيجد فيها مفردتين أو ثلاث أو أكثر غريبة فيعطي هذه اللغة التضخيميّة والمبالغة الشّديدة أنّ كلّ الكتاب مشتمل على مثل هذه الأخبار، فهذه لغة مبالغة وتضخيم ولا ينبغي اعتماد القضايا العلميّة على لغة المبالغة والتّضخيم بل ينبغي اعتمادها على لغة التّحقيق.

فالخلاصة: إنّ وجود بعض أو مقدار من الأمور المستغربة لا يسقط الكتاب من الاعتبار من رأس، أو أن ينظر إلى الكتاب على أن لا قيمة له، نعم لا يعني أن نعتمد كلّ ما فيه وأن نقول بأنّ كلّ ما جاء فيه صحيح وثابت، بل نقول إنّ هذه قضايا محتملة وممكنة ومشمولة لتلك الحكمة المعروفة "كلّ ما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه واضح البرهان"، فبعض هذه الأمور ليست بعيدة أو مستحيلة، ويبقى أنّ مؤلف الكتاب من العلماء الفقهاء الأجلّاء، والكتاب مع اشتماله على بعض الغرائب إلّا أنّ ذلك لا يسقطه من رأس عن الاعتبار.

◆ **ما المقصود بلسان الحال الّذي يردّده الخطباء؟**

المقصود بلسان الحال أنّ الّذي يقوله الشّاعر ليس هو بالفعل الّذي صدر أو الواقع الّذي تحقّق وإنّما هو خيال الشّاعر وتصوّره، مثلاً يتخيّل الشّاعر أنّ أمّ القاسم تريد أن تزوّج ابنها وتفرح به وأن يبقى معها إلى سنّ الشّيخوخة فيأتي بأبيات تصوّر وتحكيّ هذا المعنى، وهذا لا محذور فيه، ولكن هنا نؤكّد على أنّ لسان الحال لا يبرّر لنا أن نتحدّث عن المعصوم أو عن أهل بيته أو أصحابه

بنحو لا يليق بمقامهم بدعوى لسان الحال[٣٧].

◆ **يقول البعض: إنّ التّصدّق بالأموال على الفقراء خيرٌ من بذلها على إطعام النّاس أيّام عاشوراء، فماذا تقولون؟**

هذا من الخطأ بمكان أن يأتي الإنسان بعقليّته المنفردة فيعطي أولويّات ويقول: أنْ أصرف هذه الثّلاث مائة دينار من أجل ترميم منزل أو مساعدة محتاج أو شابّ مقبل على الزّواج خيرٌ من أن تبذل في إطعام الطّعام؛ لأنّ العقليّة المنفردة منفصلة عن ملاكات الأحكام.

إطعام الطّعام في مصاب وعزاء سيّد الشّهداء عليه السلام حكم مستحبّ كاستحباب بقيّة الأمور المستحبّة، فلا ينبغي للإنسان أن يأتي ويقول: إنّ هذا العمل أفضل من ذلك العمل؛ لأنّ هذا يتوقّف على نصّ شرعيّ.

المقايسة بين المستحبّات وكون هذا العمل مستحبّاً وأفضل من ذلك العمل في بعض حالاته يحتاج إلى نصّ شرعيّ، أو من خلال ما يبيّنه النّص الشّرعيّ من مفاضلة في الأجر بين هذا العمل وذاك.

نعم، لا شكّ في أنّ نفع المؤمن وقضاء حاجته من القربات العظيمة، لكنّ ذلك لا يعني أنّه يمكننا أن نقايس وندرك أفضليّته على بذل الطّعام في مصيبة سيّد الشّهداء؛ لأنّه -كما قلت- يتوقّف على معرفة ملاكات كلّ عمل مستحبّ وعقولنا قاصرة عن معرفة ذلك، هذا أوّلاً.

وثانياً: لا ننسى أنّ نفس الإطعام وبذل الطعام له منافع كثيرة، فكم من العوائل الفقيرة الّتي تجلس على مائدة سيّد الشهداء عليه السلام طيلة هذه العشرة وتوفّر على نفسها مصاريف هذه الوجبات، وبذلك يكون الباذل قد حقّق غايتين في نفس الوقت، وهما: إطعام الطّعام من جهة، ونفع المحتاجين من جهة أخرى.

بالإضافة إلى أغراض اجتماعية يحقّقها الإطعام، كاجتماع المؤمنين وتعارفهم الّذي يزيد من أواصر المحبّة والمودّة والإخاء، الأمر الّذي قد لا يتحقّق في المنفعة الفرديّة في قضاء حاجة المؤمن.

نعم، الأمر الّذي ينبغي أن ننبّه عليه -مع التّأكيد على استحباب بذل الطّعام في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام- هو أن لا يصل الأمر إلى حدّ الإسراف فإنّ الإسراف حرام. "لا تسرف في الماء ولو كنت على نهر" كما جاء في بعض النّصوص. فحتى رمي نواة الطّعام أو ما يفضل من الكوز عدّته الرّوايات من الإسراف[٣٨].

فإذا كان ديننا يحكم بالإسراف على مثل هذه الموارد، فمن من الواضح أنّ الطّعام الّذي يكون زائداً عن الحاجة ويرمى في النّفايات يكون من مصاديق الإسراف المحرّم الّذي ينبغي تجنّبه، وينبغي التّدقيق والتّنسيق بين المآتم والقيّمين عليها وبين الباذلين للطّعام؛ لمعرفة القدر المطلوب حذراً من الوقوع في محذور الإسراف.

وأشير هنا إلى أمر جيّد وهو وجود لجنة عندنا في منطقة عالي[٣٩] مهمّتها تدبير ما يزيد من الطّعام وجعله في ظروف وتوزيعه على البيوتات والنّاس كي لا يرمى، وهو وسيلة جيدة لرفع هذا المحذور.

◆ **ما صحّة نسبة هذا القول إلى الإمام الحسين عليه السلام: «إن كان دين محمّد لم يستقم إلا بقتليّ يا سيوف خذيني»؟**

هذه الكلمة الّتي قد تنسب إلى الإمام الحسين عليه السلام وهي من المشهورات الّتي ليس لها مصدر بحسب التّتبع في كلّ ما جاء عن الإمام الحسين عليه السلام في كلماته وخطبه.

وهي بيتٌ من الشّعر للشّاعر الشّيخ محسن أبو الحبّ[٤٠].

◆ **هناك قبران منسوبان للسّيّدة زينب إحداهما في مصر والثّاني في الشّام.. أيّهما الصّحيح؟**

يذكر العبيدلي[٤١] الذي هو من أحفاد السّيّدة زينب في كتابه الزّينبيّات[٤٢] والّذي يعدّ من مهمّات الكتب الّتي تترجم للزّينبيات من أهل البيت أنّ السيدة زينب قد خرجت إلى مصر وتوفّيت بها. وهناك قول بأن مدفنها عليها السلام في الشّام.

وإذا أردنا أن ننظر إلى المسألة بنظرة تحليليّة نقول:

١ـ لو فرضنا أنّ ذهابها للشّام كان باختيارها، فهذا أمر مستبعد جدّاً؛ وذلك لأنّ السّيّدة زينب تحمل ذكريات مؤلمة وصعبة جدّاً عن الشّام وما حلّ بها وبأهل بيتها وأخواتها وأبناء إخوتها؛ حيث إنّ ما حصل لهم أمر تتفطّر له القلوب وتتصدّع منه الجبال، ومن الصّعب على الإنسان الّذي يحمل صورة مأساويّة ومؤلمة عن مكانٍ ما أن يحنّ ويرجع إليه، بل بحسب العادة والطّبع فإنّ من يحمل مثل هذه الذّكريات فإنّه لا يحبّ استذكارها فضلاً عن الذّهاب إلى مكانها. ومن هنا نقول: إنّ ذهابها الاختياريّ أمر مستبعد جدّاً.

٢ـ إنّ المتتبّع في سيرتهم يجد أنّ لهم تعلّقاً شديداً بمدينة جدّهم المدينة المنوّرة، هذه البقعة المباركة الّتي تضمّ جسد النّبيّ والّتي يجدون فيها انتماءهم وامتدادهم، فلم يخرجوا منها إلّا في الحالات الاستثنائيّة بسبب الظّروف السياسيّة والظلم والاستبداد الّذي لحق بهم وإجبار الظّالمين لهم على الخروج منها كما حدث للأئمّة.

٣ـ لم تذكر المصادر التّاريخية المعتبرة مسألة خروجها من المدينة، وما يوجد مذكورٌ على نحو (قيل) من أنّها كانت تؤلّب النّاس على الوالي وعلى يزيد فأمر يزيد والي المدينة بإخراجها منها.

٤ـ يرجّح الشّيخ النّقديّ في كتابه حياة السّيّدة زينب أنّها دفنت في مصر مستشهداً بكلام العبيدليّ حيث قال: "إنّ زينب الكبرى بعد رجوعها من أسر بني أميّة إلى المدينة أخذت تؤلّب النّاس على يزيد بن معاوية، فخاف عمرو بن سعد الأشدق انتقاض الأمر، فكتب إلى يزيد بالحال، فأتاه كتاب يزيد يأمره بأن يفرّق بينها وبين النّاس، فأمر الوالي بإخراجها من المدينة إلى حيث شاءت، فأبت الخروج من المدينة وقالت: لا أخرج وإن أهرقت دماؤنا، فقالت لها زينب بنت عقيل: يا ابنة عمّاه قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء، فطيبي نفساً وقرّي عيناً، وسيجزي الله الظالمين، أتريدين بعد هذا هواناً؟ ارحلي إلى بلد آمن، ثمّ اجتمع عليها نساء بني هاشم وتلطّفن معها في الكلام، فاختارت مصر، وخرج معها من نساء بني هاشم فاطمة ابنة الحسين وسكينة، فدخلت مصر لأيام بقيت من ذي الحجة، فاستقبلها الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري في جماعة معه، فأنزلها داره بالحمراء، فأقامت به أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، وتوفيت عشية يوم الأحد لخمسة عشر يوماً مضت من رجب سنة اثنتين وستين هجرية، ودفنت بمخدعها في دار مسلمة المستجدة بالحمراء القصوى، حيث بساتين عبد الله بن عبد الرّحمن بن عوف الزّهريّ بالقاهرة"[٤٣].

ونقول تعقيباً على هذا النّص الّذي يذكره العبيدليّ -وكلامه يفتقر إلى المصدر والدّليل والإسناد-: إنّ المحتمل فيه أمران وكلاهما مستبعد:

الأوّل: إنّ موقفها ذاك كان مستقلًّا عن موقف الإمام زين العابدين ومخالفاً لتوجّهه، وهذا أمرٌ لا يمكن القبول به ولا يناسب مقام السّيّدة زينب وجلالتها في أن تخالف رأي إمام زمانها وحجّة الوقت.

والاحتمال الثّاني: أن يكون موقفها في تأليب النّاس ضد والي المدينة ويزيد هو

بأمر وتوجيه من الإمام زين العابدين، لكن من المعلوم والواضح أنّ منهجيّة أهل البيت بعد واقعة الطّف الّتي حقّقت الهدف من كشفها وتعريتها للظّالمين، ونظراً للأسباب والظروف الموضوعيّة الّتي كانوا يعيشونها لم تكن منهجيّة المعارضة المعلنة للأنظمة الموجودة، وهذا يخالف ما يقال من أنّها كانت تؤلّب النّاس علناً ضدّ يزيد.

إذاً خروج السّيّدة زينب من المدينة اختياراً أو جبراً أمرٌ لا تساعد عليه الأدلّة والقرائن، ومن هنا فالرّاجح أنّها بقيت في المدينة ودفنت فيها.

أمّا لماذا لا يوجد لها قبر هناك.. فلّعله بسبب سياسية التكتيم الّتي مارسها بنو أميّة في محو وتكتيم كلّ ما يتعلق بتاريخ أهل البيت عليهم السلام وأخبارهم وآثارهم، حيث إنّ كثيراً منهم لا يُعلم له قبرٌ في المدينة. ومن المحتمل كذلك أنّها أرادت أن تقتدي بأمّها الزّهراء عليها السلام في إخفاء موضع قبرها الشّريف الّذي فيه من الدّلالات ما لا يخفى.

الهوامش:

(١) سماحة العلامة الجليل الشّيخ محمود بن الحاج حسن آل الشّيخ العاليّ حفظه الله، وُلد في عام ١٩٦٧ في قرية عاليّ في البحرين، وفي مرحلة الدّراسة النّظامية المتوسّطة بدأ سماحته بأخذ بعض الدّروس الحوزويّة الأوّليّة في أيّام العطل الدّراسيّة.

ذهب إلى مدينة قم المقدّسة في نهاية عام ١٩٨١ وهو في سن الثالثة عشر تقريباً- حتى أنهى مرحلة السطوح العليا في حدود عام ١٩٨٦م ليشرع في حضور أبحاث الخارج على المجتهدين والمراجع العظام حيث حضر عند كلّ من:

* آية الله العظمى الوحيد الخراسانيّ دام ظله (أصول).

* آية الله العظمى الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ دام ظله (فقه وأصول).

* آية الله العظمىٰ السّيّد أبو القاسم الكوكبيّ قدس سره (أصول).
* آية الله العظمىٰ الشّيخ فاضل اللنكراني قدس سره (أصول).
* آية الله الشّيخ حسين اللنكرانيّ قدس سره (فقه وأصول).
* آية الله الشّيخ جوادي آمليّ دام ظله (فقه).
* آية الله الشّيخ أبو طالب تجليل التّبريزيّ قدس سره (فقه).
* آية الله العظمىٰ الميرزا جواد التّبريزيّ قدس سره (فقه وأصول).
* آية الله العظمىٰ السّيّد كاظم الحائريّ دام ظله (أخلاق).

واشتغل بتدريس المتون الحوزويّة ومنها الكفاية والمكاسب حتّىٰ رجوعه إلى البحرين في عام ١٩٩٢م ليستمرّ في التّدريس في حوزاتها والكتابة والتأليف وتبليغ الدّين.

كما أنّ له عدّة كتب وأغلبها مخطوط منها: كتاب في القواعد الفقهية (مخطوط). بحوث حول الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف (مخطوط). رسائل فقهيّة (مخطوط). استدلال علىٰ اللمعة الدّمشقيّة (مخطوط). مقالات في المرجعيّة والتّراث (مطبوع). وكذا تقريرات أساتذته في أبحاث الخارج (مخطوط).

(٢) سورة هود، آية: ٨٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٥) الكافيّ، الكلينيّ، ج٥، ص ٥٦، باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ح٣.

(٦) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩، من وصيّته لأخيه محمّد بن الحنفيّة.

(٧) كامل الزّيارات، بن قولويه، ص١٥٨، باب ٢٤، ح٢٠.

أي: لم يبلغ ما يتمنّاه من فتوح الدّنيا والتمتّع بها، وظاهر الجواب ذمّه، ويحتمل أن يكون المعنى أنّه عليه السلام خيّرهم في ذلك فلا إثم علىٰ من تخلّف ـ البحار، ٤٢، ص٨١.

(٨) صحيح البخاريّ، ١-١٣٣، كتاب مواقيت الصّلاة وفضلها، باب تضييع الصّلاة عن وقتها.

(٩) ... وتكرّر نفس الموقف علىٰ الإمام عليه السلام كما في أمالي الشّيخ الطّوسيّ، ص٦٧٧، في مجلس يوم الجمعة السّابع من شعبان سنة سبع وخمسين وأربعمائة، ح١١. لما قدم علي بن الحسين عليه السلام وقد قتل الحسين بن علي عليه السلام استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيدالله، وقال متشمّتاً: يا علي بن

الحسين، من غلب؟ وهو مغطّىٰ رأسه، وهو في المحمل. قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «**إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصّلاة، فأذن ثمّ أقم**».

(١٠) سورة الشّورىٰ، آية: ٢٣.

(١١) البداية والنّهاية، ابن كثير، ج٨، ص٢٢١.

(١٢) بحار الأنوار، المجلسيّ، ج٤٤، ص٣٨٣.

(١٣) ولد في عام ١٩٣٦م، شمس الدّين هو أحد علماء جبل عامل يرجع نسبه إلىٰ المرجع محمد بن مكّي العامليّ الملقّب بشمس الدّين والمعروف بالشّهيد الأوّل حيث استشهد في عام٧٨٦هـ. هاجر إلىٰ النّجف وتتلمذ علىٰ يد أبرز فقهاء القرن العشرين منهم آية الله السّيّد محسن الحكيم وآية الله السّيّد أبو القاسم الخوئيّ وغيرهم. وله إسهامات عديدة علىٰ الصّعيد الحوزويّ والاجتماعيّ، كما شغل مناصب عديدة منها رئاسة المجلس الأعلىٰ الإسلاميّ الشّيعيّ في لبنان عام ١٩٩٤م خلفاً للسّيّد موسىٰ الصّدر. وفي عام ٢٠٠١م توفي جرّاء مرض عضال.

(١٤) ولد دام ظله في مدينة النّجف الأشرف، في الثّامن من شهر ذي القعدة الحرام عام ١٣٥٤هـ الموافق ١٩٣٤م، وهو ابن العالم الجليل والمجتهد الكبير السّيّد محمد علي بن السيد أحمد الحكيم، وتتلمذ علىٰ يد والده وآية الله السّيّد محسن الحكيم، وآية الله السّيّد أبو القاسم الخوئيّ، وآية الله الشّيخ حسين الحلّيّ وغيرهم. للسّيّد نبوغ علميّ أهّله لأن يعهد إليه السّيّد الحكيم مراجعة موسوعته الفقهيّة (مستمسك العروة الوثقىٰ) قبل طباعتها. ولا يخفىٰ الدّور الّذي يقوم به السّيّد الحكيم علىٰ الصّعيد الحوزويّ والشّأن العراقيّ، له من المؤلّفات ما يزيد علىٰ ٢٨ عنواناً وبعضها علىٰ أجزاء متعدّدة.

(١٥) الإرشاد، الشّيخ المفيد، ج٢، ص٧٨، وغيره من المصادر والرّوايّة معروفة حيث وصل ابن طعّان المحاربي وهو يلهث من شدّة العطش وقد غارت عيناه فكاد لا يبصر الطّريق لشدّة ما ألمّ به حتّىٰ ذهب إليه الإمام الحسين عليه السلام وسقاه بيده الطّاهرة.

(١٦) مقتل الحسين، أبو مخنف الأزديّ، ص١٤٢.

(١٧) ورد في أمالي الشّيخ الصّدوق، ص١٩١، المجلس السّابع والعشرون، ح٢، عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرّم لا يرى ضاحكاً، كانت الكآبة تغلب**

عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسينعليه السلام».

(١٨) ورد في كامل الزّيارات، ابن قولويه، ص٢١٤ باب ٣٦، ح٢، عن أبي عمارة المنشد، قال: ما ذكر الحسين عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام في يومٍ قط فرُئي أبو عبدالله عليه السلام متبسماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: «**الحسين** عليه السلام **عَبرة كلّ مؤمن**».

(١٩) لا يخفى أنّ التّباكي أمر راجح ولا يقف عند البكاء على مصيبة الإمام الحسين عليه السلام بل يشمل كلّ مصائب أهل البيت عليهم السلام ولا سيّما الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله. ويتعدّى الحثّ على البكاء والتّباكي ذكر المصائب ليصل إلى البكاء والتّباكي عند الدّعاء، فيتكلّف الدّاعي البكاء بتذكّر أحبابه الّذين فارقوا الدّنيا مثلاً أو ما يهيّج أحزانه فيولّد هذا فيه الشّعور نحو البكاء فعندما يبكي يصل هذا بدعائه، فيكون قد رقّ قلبه وهذا يسهّل عليه أمر البكاء في الدّعاء؛ لأنّ الإنسان قد يجد في نفسه الرّغبة في البكاء أو أنّه يستمع إلى ما يبكي كمصيبة الحسين عليه السلام إلا أنّه يجد في نفسه جفافاً عن ذلك فيحرّك المشاعر عنده ليستدر الدّمعة. ويؤيّد ما ذكرناه ما قيل للإمام الصّادق عليه السلام: أكون أدعو فأشتهي البكاء ولا يجيئني، وربما ذكرت بعض من مات من أهلي فأرقّ وأبكي، فهل يجوز ذلك؟ قال: «**نعم، فتذكّرهم فإذا رققت فابك وادع ربّك**» ففعل التّباكي موصِل إلى البكاء عادة.

وليس التّباكي -كما يتصوّر البعض- بأن يحرّك رأسه ويهزّ بدنه ويصدر صوت البكاء تشبّهاً بالباكين، فإنّه سينشغل بهذه الحركات عن الدّعاء أو المصيبة الّتي يستمع إليها فهذا يتظاهر بالبكاء لا أنّه يبكي حقيقة، وإن كان هذا الوجه له وجه لما ورد «**أنّ من تشبّه بقوم فهو منهم**» وهذا ينفع من لم تساعده عينه على البكاء مع طلبه له. ولا يخفى أنّ من يتباكى وليس له غرض التّشبّه بالباكين فضلاً عن طلب البكاء، بل كان بكاؤه لغرض أن يراه الآخرون فهذا بلا شكّ تباكٍ مذموم وقد يؤثم عليه صاحبه لجهة الرّياء.

(٢٠) المجالس الّتي تذكر فيها مصائب أهل البيت عليهم السلام.

(٢١) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص٢٠١، باب٣٢، ح١.

(٢٢) تحت الإعداد للطباعة بمعية رسائل فقهية أخرى.

(٢٣) قول الإمام الصّادق عليه السلام لمولاه شقران معرّضاً به؛ لأنّه كان يعصي ربّه، مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج٣، ص٣٦٢.

(٢٤) فقه الرّضا، ابن بابويه القمي، ص٣٥٦، باب مكارم الأخلاق والتجمّل والمروءة والحياء، الحديث الأخير في الباب.

(٢٥) تحف العقول، الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني، ص ٤٨٨.

(٢٦) عيون أخبار الرّضا ١:٢٦٧ باب ٢٨ الحديث ٥٧.

(٢٧) وسائل الشّيعة، الحرّ العامليّ، ج١٤، ص٥٩٧، باب ١٠٥ من أبواب المزار وما يناسبه، ح١.

(٢٨) كامل الزّيارات، بن قولويه القمّيّ، ص٢٠٢، باب ٣٢ ثواب من بكىٰ علىٰ الحسين عليه السلام، ح٣. وكذا ما ورد عن أبي عمارة المنشد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: «**يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي عليه السلام**» قال: فأنشدته فبكىٰ وقال: ثمّ أنشدته فبكىٰ، قال: فو الله ما زلت أنشد ويبكي حتّىٰ سمعت البكاء من الدّار، فقال لي: «**يا أبا عمارة من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى خمسين فله الجنّة ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى أربعين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى عشرين فله الجنّة ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى عشرة فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى واحداً فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فتباكى فله الجنّة**» وسائل الشّيعة، الحرّ العامليّ، ج١٤، ص٥٩٦، باب ١٠٤، من أبواب المزار وما يناسبه، ح١.

(٢٩) هذا الاصطلاح يذكر في المجاز المرسل وهنا لا يوجد مجاز وإنّما أراد التنظير به لعدم وجود عبارة في البين، وتقريبه؛ يذكر النّاعي مصيبة الحسين عليه السلام بتفاصيلها لغرض تحقيق البكاء والإبكاء والتّأثّر علىٰ مصابه؛ وهنا كان ذكر المصاب سبب لحصول وتحقّق التّأثّر والبكاء والإبكاء.

فالبكاء والإبكاء مسبّب عن ذكر المصاب، وذكر المصاب سبب للبكاء والإبكاء، فالنّاعي يطلب السّبب ويريد تحقّق المسبب.

(٣٠) الرّوايات الواردة في فضل زيارته والمشي إلى زيارته واردة بعدد كبير جدّاً فلتراجع المصادر للاطّلاع على فضلها.

(٣١) المزار، المشهديّ، ص٤٨٠ زيارة يوم عاشر. ولا كلام في سند ومضمون هذه الزيارة، فكلاهما صحيح.

(٣٢) وسائل الشّيعة، الحرّ العامليّ، ج١٤، ص٥٠٥، باب ٦٦ من أبواب المزار وما يناسبه، ح١٠.

(٣٣) هذه قاعدة في علم الأصول مفادها باختصار شديد: أنّه إذا كان عندنا قاعدة عامّة أو أمر عامّ كما في قول أحدهم لي: (أكرم كلّ جار)، فهذا يستفاد منه لزوم تقديم الإكرام لكلّ من أعرف أنّه جارٌ لي. فلو شككت في زيد هل أنّه جار أم ليس بجار -لا لشكّيّ في معنى الجيرة ومتّى تتحقّق بل الشّكّ بسبب تشخيص زيد كما لو انتقلت إلى بيت جديد ومرّ عليَّ زيد فلم أعلم أنّه زيد جاري أم زيد الآخر الذي ليس جاراً لي- فهل يصحّ إثبات كونه جاراً بهذه القاعدة؟ كلا؛ لأنّ القاعدة تقول: إنّ من عرفت أنّه جار لك لزم عليك إكرامه. وهنا في الفرض لم أعرف أنّ هذا جار لي!

فلو اعتمدّت على هذه القاعدة وقلت بأنّ فلاناً جاري، فعندها يقال لي تمسّكت بالعامّ في الشّبهة المصداقيّة.

(٣٤) وُلد رحمه الله في النّجف الأشرف سنة ٩٧٩هـ وتوفّي في ١٠٨٥هـ توفي في الرّمّاحيّة، ونقل جثمانه إلى النّجف الأشرف ودفن بظهر الغريّ وقد شيّعه من الرّمّاحية إلى النّجف خلق كثير. من مؤلفاته: مجمع البحرين ومطلع النيرين، شرح المختصر النّافع، كتاب جامع المقال في تمييز المشتركات من الرّجال، كتاب الأربعين، كتاب المنتخب في المراثيّ والخطب والأخبار في مصيبة سيّد الشّهداء عليه السلام، الفخريّة في الفقه.

(٣٥) المنتخب للطّريحي، ص٣٦٤-٣٦٥. موضع الشّاهد "... فمسك الحسين عليه السلام على يد القاسم وأدخله الخيمة، وطلب عوناً وعباساً، وقال لأم القاسم: ليس للقاسم ثياب جدد. قالت: لا.

فقال لأخته زينب: إئتيني بالصّندوق. فأتته به ووضع بين يديه، ففتحه وأخرج منه قباء

الحسن وألبسه القاسم، ولفّ على رأسه عمامة الحسن عليه السلام، ومسك بيد ابنته الّتي كانت مسمّاة للقاسم، فعقد له عليها وأفرد له خيمة، وأخذ بيد البنت ووضعها بيد القاسم وخرج عنهما.

فعاد القاسم ينظر إلى ابنة عمه، ويبكي إلى أن سمع الأعداء يقولون: هل من مبارز؟ فرمى بيد زوجته وأراد الخروج وهي تقول له: ما يخطر ببالك، وما الذي تريد أن تفعله؟! قال لها: أريد ملاقاة الأعداء، فإنّهم يطلبون البراز، وإنّي أريد ملاقاتهم..".

(٣٦) مما جاء في كتب العامة هذا الخبر "أخبرنا: الحسن بن سفيان، قال: حدثنا: شيبان بن فروخ، قال: حدثنا: عمارة بن زاذان، قال: حدّثنا: ثابت، عن أنس بن مالك، قال: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النّبيّ صلى الله عليه وآله، فأذن له، فكان في يوم أمّ سلمة، فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: أحفظي علينا الباب، لا يدخل علينا أحد، فبينما هي على الباب إذ جاء الحسين بن علي عليه السلام فظفر، فاقتحم، ففتح الباب، فدخل، فجعل يتوثّب على ظهر النّبيّ صلى الله عليه وآله، وجعل النّبي صلى الله عليه وآله يلثمه ويقبّله، فقال له الملك: أتحبّه، قال: نعم، قال: أمّا إنّ أمّتك ستقتله، إن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، قال: نعم فقبض قبضة من المكان الذي يقتل فيه، فأراه إيّاه، فجاءه بسهلة أو تراب أحمر، فأخذته أمسلمة فجعلته في ثوبها، قال ثابت: كنّا نقول إنّها كربلاء". صحيح ابن حبان، كتاب التّاريخ، بإخباره صلى الله عليه وآله عمّا يكون في أمّته من الفتن والحوادث ج١٥، ص١٤٢. المنتخب من مسند عبد بن حميد، ج١، ص١٤٢. الإرشاد في معرفة علماء الحديث، أبي يعلىٰ الخليليّ، ج١، ص٣٠٧. وغيرها، أمّا من طرق الشّيعة فكثير.

(٣٧) نعم لا شكّ أن لسان الحال لا يبرّر التّساهل في نقل وتصوير الوقائع المأساويّة الخياليّة علىٰ أنّها أحداث واقعيّة، حذراً من تحوّلها ولو بمرور الزّمان إلىٰ كونها أحداثاً حصلت بالفعل فنقع في محذور التقوّل والكذب، فلا بدّ من إفهام المستمع وإشعاره ولو بنحو ما علىٰ أن ما يقال هو محض خيال شاعر.

(٣٨) إشارة إلىٰ ما رواه إسحاق بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**أدنى الإسراف هراقة فضل الماء، وابتذال ثوب الصّون، وإلقاء النّوى**» وسائل الشّيعة، الحرّ العامليّ، ج٥، ص٥١ باب ٢٨ من أبواب الصلاة، ح١.

الكوز: إناء للشّرب كالكأس.

(٣٩) وهي مسكن سماحة الشيخ المحُاوَر، وهي من قرىٰ البحرين.

(٤٠) الشّيخ محسن الحائريّ المعروف بـ(أبو الحَبّ) ولد في كربلاء سنة١٢٢٥هـ ومات أبوه وهو طفل صغير فنشأ يتيماً فقيراً، عرف بالفطنة والنّباهة، كانت له شديد الحُبّ للحضور في مجالس الشّعر والأدب، مما أوقد قريحته الشّعريّة ممزوجة بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، فصار بفطنته ينشد العذب من الشّعر الّذي كان يحاكي الواقع، لا سيّما إذا ما سطّر أبياته في شأن الحسين عليه السلام وما جرىٰ عليه.

عرف بأبي الحَبّ لأنّه أصيب بمرض السّعال وضيق الصّدر فعمل له بعض الأطباء حَبّاً يهوّن عليه ما ابتلي بمرض، فكان يحمله معه ويعطي منه من ابتلي بذلك الدّاء فعرف بأبي الحَبّ.

وهو إضافة إلىٰ كونه شاعراً كان خطيباً بارعاً يشعل قلوب المؤمنين حرقة علىٰ مصائب أهل البيت عليهم السلام حتى وافاه الأجل في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ١٣٠٥هـ بعمر ثمانين عاماً. (مختصرٌ من نبذة كتبها عنه حفيده الشيخ محسن أبو الحب المتوفى عام ١٣٦٧هـ).

وللشّيخ ديوان طبع طبعته الأولىٰ في عام ٢٠٠٣م بعنوان: (ديوان الشيخ محسن أبو الحَبّ (الكبير) المتوفى ١٣٠٥هـ ـ١٨٨٧م) وقد كتب علىٰ غلاف الدّيوان هذه العبارة:

صاحب القول الخالد علىٰ لسان الحسين عليه السلام:

إن كـــان ديـــن محمّـــد لم يـــستقم إلا بقتلـــيّ يـــا ســـيوف خـــذينيّ

أمّا البيت فقد ورد في قصيدته المعنونة بعنوان بيضة الإسلام برقم (٨٠)، في الصفحة ١٦٨ من الكتاب، ومطلعها:

إن كنـــتِ مـــشفقةً علـــيّ دعـــيني مـــا زالَ لومُـــكِ في الهـــوىٰ يغـــريني

لا تحـــسبي أنّـــي للومـــك ســـامعٌ إني إذاً في الحُـــبّ غـــيرُ أمـــين

إلىٰ أن يقول في البيت ٢٣ من هذه القصيدة:

(إن كـــان ديـــن محمّـــد لم يـــستقم إلا بقتلـــيّ يـــا ســـيوف خـــذينيّ)

(٤١) أبو الحسين يحيى بن الحسن بن جعفر العبيدليّ العقيقي (٢١٤-٢٧٧هـ). هو كاتب ومؤرّخ

ونسّابة من قدماء علماء الشّيعة الاثني عشريّة، من أهل المدينة المنوّرة ومولده بها، وأمّا وفاته فكانت في مكّة.

(٤٢) السّيّدة زينب وأخبار الزينبات للعبدلي، ص٥٧. وأنقل النّص للفائدة ومنه سيتّضح ظلامة أخرىٰ للسّيّدة زينب وهي أنّها نفيت من المدينة بأمر من يزيد لعنه الله لمّا كانت تحرّض علىٰ القيام عليه، ولما وصلت مصر لم تبقَ فيها إلّا القليل حتّىٰ توفيت ودفنت هناك. "قال العبدلي في أخباره والحافظ ابن عساكر الدّمشقيّ في تاريخه الكبير والمؤرّخ ابن طولون الدّمشقيّ في الرّسالة الزّينبيّة بعد شرح ما تقدّم: ثمّ إنّ والي المدينة من قبل يزيد لعنه الله وهو عمرو بن سعيد الأشدق، اشتكى من إقامة السّيّدة زينب بالمدينة فكتب بذلك إلى يزيد لعنه الله وأعلمه بأنّ وجودها بين أهل المدينة مهيّج للخواطر، وأنّها فصيحة عاقلة لبيبة وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين عليه السلام، فلمّا وصل الكتاب إلى يزيد لعنه الله وعلم بذلك أمر بتفريقهم في الأقطار والأمصار فاختارت السّيّدة زينب الإقامة بمصر طلباً لراحتها، واختار بعض أهل البيت بلاد الشّام، فعند ذلك جهّزهم ابن الأشدق فخرجت السّيّدة هي ومن معها من أهل البيت وفيهم سكينة بنت الحسين وأختها فاطمة فلمّا اتصل خبر ذلك إلى والي مصر إذ ذاك وهو مسلمة بن مخلد الأنصاريّ توجّه هو وجماعة من أصحابه وفي صحبتهم جملة من أعيان مصر ووجهائها إلى لقائها فنقلوها من قرية بين طريق مصر والشّام شرقيّ بليس (عرفت أخيراً بقرية العباسة بنت أحمد بن طولون) ولم يبقَ بالمدينة من جماعتهم إلا زين العابدين عليه السلام، وأقام الحسن المثنّى بخارجها ووافق دخول السّيّدة مصر أوّل شعبان سنة ٦١ من الهجرة -٦٨٤م. وكان قد مضى على الواقعة نحو ستة أشهر وأيّاماً بما يسع مدّة أسفارها، فأنزلها مسلمة بن مخلد هي ومن معها في داره بالحمراء القصوى ترويحاً لنفسها إذ كانت تشتكي انحرافاً- فأقامت بها ١١ شهراً ونحو ١٥ يوماً من شعبان ليلة الأحد لأربعة عشر يوماً مضت من شهر رجب من السّنة المذكورة، وبعد تجهيزها وشهود جنازتها دفنت بمحلّ سكناها على العادة في ذلك، ثمّ بعد وفاتها رجع من كان معها من أقاربها إلى المدينة وفيهم السّيّدة سكينة وفاطمة على ما ذكر ابن زولاق في تاريخه.."

(٤٣) النّقل من الكاتب بالمعنى وليس بالنّص مع زيادة وتغيير في بعض المواضع.

اللهم رحمتك أرجى عندي من عملي
وبك يا حسين عليك السلام

ثقافة المظلوميّة في عاشوراء

الشيخ علي أحمد الجفيري

الملخّص:

تعرّض الكاتب إلى الجواب على إشكالية تمسك الشيعة بثقافة المظلوميّة، وأنّ ذلك يعني أنّ المذهب يعتمد على العاطفة وليس البرهان، بالإضافة إلى بعض الآثار المترتبة على هذه الثقافة، وذكر جوابين مفصلين حول هذه الإشكالية..

مقدمة:

من الإشكاليات المطروحة على أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام -والتي تتردد على الخصوص في مثل أيام عاشوراء الحزينة- الإشكالية القائلة: بأنَّ هناك اعتماداً تاماً على منهج نشر المظلومية بغية إثبات الأحقية، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا المذهب عاطفي، يفتقر إلى الأدلة المقنعة، ويعتمد أسلوب الإلفات العاطفي من أجل استجرار التجاوب مع مطالبه لا عن تعقل وبرهان..

وتبرز هذه الإشكالية في الممارسات التي يصرُّ عليها أتباعُ هذا المذهب في خصوص الأيام العاشورائية؛ إذ أنَّها ممارسات تؤول إلى التمسُّك بهذا المنهج، فهي مليئة بالإشارة إلى مظلومية الحسين عليه السلام، وإذاعة ما وقع عليه من مصائب، والجهر على نحو المبالغة بها بما ينشر الحزن، والكآبة، والغم..

وفي هذا البحث نحاول أن نتناول هذا الأمر من خلال نقطتين: الأولى: في ذكر جهات الإشكال المختلفة، والثانية: في رفع الإشكال، وذكر جملة من الأجوبة الشافية إن شاء الله تعالى..

النقطة الأولى: بيان جهات الإشكال

يُطرح هذا الإشكال عادة بصورة تسويقية مبتذلة لا تستحق الوقوف عندها في حدِّ ذاتها، إلا أنَّ جوهر هذا الإشكال يمكن أن يكون مادة خصبة لتفعيل العديد من المغالطات، وبالتالي إثارة شبهة حاصلها يعتمد على إبراز هذا المذهب على أنَّه مذهب العاطفة، لا مذهب العقل، ونذكر ما يمكن أن يعبِّر عن بعض التساؤلات التي قد يقوي ظاهرُها هذا الإشكال، ومنها:

أولاً: من الناحية النفسية:

أليس الدوران في دائرة المظلومية له مردودات سلبية جداً على المستوى النفسي؟! فإنَّ في ذلك ترسيخاً للانغلاق على الذات، والانكفاء على تحديد طاقاتها، وانئسارها في حلقات الماضي المظلم، وهذا كلُّه يشكل مانعاً من بناء الحاضر، وصياغة المستقبل، والنتيجة أنَّ ثقافة المظلومية تؤدي إلى صياغة حالة نفسية غير سوية، بعيدة عن الإنتاج، والتفاؤل، والرغبة في التقدم والعطاء، والأجدر هو تجاوز هذه الحالة، والانعتاق عن سلطتها.

ثانياً: من الناحية الاجتماعية:

ألا يتسبَّب الإصرارُ على نشر المظلومية بالحؤول دون تجاوز أخطاء الآخرين؟! وهذا أمر منفِّر، يتهدد العلاقات الاجتماعية، خصوصاً عند الفئة المتعاطفة مع الخصم.

ثالثاً: من الناحية التربوية:

ألا يؤثر منهج نشر المظلومية على الأجيال، بحيث يفرض عليها أن تعايش ماضيا لم يكن لها ذنب في صياغته، ولا تحمل القناعة -ربما- تجاه جميع أطرافه؟! وهذا سيستنزف طاقة الجيل، ويهدرها في غير موضعها.

وبما تقدَّم يمكن أن ننظر إلى هذا الإشكال على أنَّه بحاجة إلى جواب، فإنَّ هناك آثاراً سلبية مدّعاة على أصعدة مختلفة، تنتج من هذا المنهج الذي نمارسه كعقيدة في أيام عاشوراء الحسين عليه السلام.

النقطة الثانية: الأجوبة ورفع الإشكال

هناك عدة أجوبة على هذه الإشكالية، نذكر منها جوابين:

الجواب الأول: وهو ما يوضح خطأ مستند أصل الإشكال:

ينبغي الالتفات أولاً -وقبل كلِّ شيء- إلى أنَّ مسألة بناء الدين على العاطفة، والاعتماد على جلب انتباه الآخرين عاطفياً إلى العقيدة الحقَّة، ليست مسألةً مخالفةً للعقل والمنطق كما يصوِّرُ أصحاب الإشكال، بل على العكس من ذلك تماما، فمع التركيز على منهج القرآن الكريم، وسلوكيات المعصومين من الأنبياء والمرسلين والأئمة الأطهار عليهم السلام، نجدُ بوضوح أنَّ هناك اعتماداً واضحاً على منهج التعاطف لديهم، وأنَّ ذلك لا يعدُّ عيباً أبداً، بل هو أمر مطلوب جدا، وإليك ما يدلُّ على ذلك قرآنا وسنة:

١ـ قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[١]، فجعل أجر الرسالة المودة، والمودة: الحب، والحب عاطفة، بل هو أصل العواطف.

٢ـ ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له -وفيه الكفاية- قال عليه السلام: «**يا زياد، ويحك! وهل الدين إلا الحب؟! ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**[٢]. **أو لا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**[٣]، **وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾**[٤]، **فقال عليه السلام: الدين هو الحب، والحب هو الدين**»[٥].

فهنا نرى أنَّ هناك توجيها مباشرا من عندهم عليهم السلام لاتخاذ طريق العاطفة في فهم الدين، وتبني أفكاره، ذلك أنَّ طريق العقل لوحده لا ينتج ديناً كاملاً، بل يوجد نظرية جافة خشنة غير مستساغة، كما أنَّ طريق العاطفة لوحده لا ينتج ديناً

كاملاً، بل ينتج طقوسا خاوية، فالطريق الصحيح هو إنزال الدين البرهاني في قوالب عاطفية، ليجد طريقه إلى التطبيق، والتفاعل..

وكتطبيق لما تقدَّم، انبثق عندنا منهج المظلومية دينياً، إذ أنَّنا نجدُ الدين يدعو لممارسة هذا المنهج دون أيِّ تحرُّج، لكونه منهجاً عاطفياً مستنداً إلى العقل، لا مجردا عنه، ومما يدلُّ على ذلك:

١ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[٦]، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها: «**لا يحب الله الشتم في الانتصار إلا من ظُلم، فلا بأس له أن ينتصر ممن ظلمه مما يجوز الانتصار به في الدين**»[٧].

قال الشيخ الأعظم قدس سره في المكاسب: "وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾، فعن تفسير القمي: "أي لا يحبُّ أن يجهر الرجلُ بالظلم والسوء ويظلم إلا من ظُلم، فأطلق له أن يعارضه بالظلم".. ويؤيد الحكم فيما نحن فيه أنَّ في منع المظلوم من هذا -الذي هو نوع من التشفي- حرجاً عظيماً؛ ولأنَّ في تشريع الجواز مظنَّة ردع الظالم، وهي مصلحة خالية عن مفسدة، فيثبت الجواز؛ لأنَّ الأحكام تابعة للمصالح"[٨].

وقال السيد الخوئي قدس سره في مصباح الفقاهة: "ذكر الشيعة والسنة من مستثنيات حرمة الغيبة تظلم المظلوم، وإظهار ما أصابه من الظالم، وإن كان متسترًا في ظلمه إياه"[٩].

وعلى هذا يبدو أنَّ المسألة اتفاقية بين السنة والشيعة، وهي كما يظهر من كلام الشيخ الأعظم مسألة عقلائية، أقرَّ فيها الشارعُ المقدَّس ما جرت عليه سيرةُ العقلاء من التظلم، والجهر به، كما تقتضيه الفطرة، وإلا لزم الحرج الشديد من تحريم ذلك.

٢ـ جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما زلتُ مظلوماً منذ قبض الله تعالى نبيه حتى يوم الناس هذا**»[١٠]، وعن جعفر بن عمرو بن حريث، عن والده "**أنَّ عليا عليه السلام لم يقم مرة على المنبر إلا قال في آخر كلامه قبل أن ينزل**: «ما زلتُ مظلوماً منذ قبض الله نبيه»"[١١]، وكان أبو ذر يعبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: بـ"الشيخ المظلوم، المضطهد حقه"[١٢].

ومن هنا نفهم أنَّ ما ورد في الإشكال من استنقاص منهج نشر المظلومية لاعتماده أسلوب الاستعطاف للآخرين مبني على فهم منقوص، ونظرة أحادية، تفهم الدين على أنَّه مجرد براهين، دون أن تستطيع أن تفرِّق بين دور البرهان في إسناد خيمة الدين ابتداءً فقط، وبين كونه المصدر الوحيد للتدين، فالأمر ليس كذلك ألبتة! ويدل على ذلك ما يشهد به الوجدان، مما يحتاج إلى تبين نِسَبي إحصائي لما نلمسه من تأثير عقدي وأخلاقي واجتماعي إيجابي واضح، ينطلق من تأثر العديد من الفئات المختلفة من مظلومية الزهراء عليها السلام، ومظلومية الحسين عليه السلام، والأئمة المعصومين عليهم السلام، فإنَّ نشر هذه المظلوميات بالطريقة الواعية، قد تسبب في اهتداء الكثيرين من الضلال، وكانت نقطة انطلاق الهداية شعور بتعاطف كبير مع الزهراء عليها السلام، أو مع الحسين عليه السلام، وهذا دليل وجداني على إيجابية هذا المنهج.

الجواب الثاني: ما يوضّح الخلط في النواحي المذكورة في الإشكال:

ويتناول هذا الجواب رفع الإشكال عن الجهات الثلاث السابقة تباعاً، وذلك عبر فهم ثلاثة أمور:

أولاً: التفريق بين المظلومية المحفزة والمثبطة:

هناك فرق كبير بين الإصرار على المظلومية بما تؤدِّي إليه من تثبيط، وتراجع،

وانئسار للماضي، وعدم اتزان في الحالة النفسية، والانحصار في الكآبة والحزن السلبي، وبين الإصرار على المظلومية من أجل أن تكون دافعاً لبناء الحاضر والمستقبل، وذلك راجع إلى المنطلق في فهم هذه المظلومية، والقرار بيد نفس صاحب المظلومية، فهو بفهمه الضيق يستطيع أن يبقي المظلومية في نطاقها المحدود المعطَّل، وهو بفهمه المنفتح يتمكن من أن يحولها إلى آلة يوظفها للبناء لا للتهديم، فكم من شخصية تعرَّضت إلى الظلم الشديد، فاستطاعت من خلال ما عاشته من شعور الانظلام والحسرة والحزن أن تغيِّر الواقع إلى واقع مغاير متقدِّم جداً، لم تكن لتصل إليه لو لا ما عاشته من مظلومية شكَّلت بالنسبة إليها حافزاً قوياً للتغيير والتطوير، هناك أمثلةٌ كثيرةٌ حوَّلت مراكز الضعف عندها إلى قوَّة، وكان النقصُ الداخلُ عليها مدعاة للمراجعة والتصحيح والأمل والهمَّة العالية، ودونك قصص الملهمين على مستوى العالم، والتي صارت محطاً لاهتمام الدراسات السايكولوجية، والأبحاث والمحاضرات التنموية البشرية، يعتمد عليها المدربون، والمطورون، والمحاضرون، والمحفزون؛ من أجل تغيير واقع الآخرين، وتحويل فشلهم إلى نجاح.

إذن: هؤلاء يخلطون بين المظلومية المحبطة، والمظلومية المحفزة، فعلى الإنسان أن يعرف الفرق بينهما من أجل استثمار فرصة المظلومية، وتحويلها إلى أداة بناء، لا هدم.

وبهذا يتم الجواب عن التساؤل الأوَّل المستشكِل على منهج المظلومية من الناحية النفسية.

ثانياً: التفريق بين المظلومية الشخصية والعامة:

هناك مظلومية شخصية، آثارها مقتصرة على الشخص نفسه، فتدخل عليه

بالنقص الشديد، دون أن تؤثِّر مباشرةً على غيره، كأن يُظلم الإنسان بانتهاب ممتلكاته، أو إسقاط سمعته، أو سلب حريته، أو ما شاكل، وهناك مظلومية عامة، يدخل النقص فيها على المجتمع ككل، فهي تمسُّ شأن الأمة، وتؤثِّر على صلاحها وفسادها..

أما المظلومية الأولى فقد يحسن تجاوزها في بعض الأحيان مراعاةً لمصلحة أكبر منها، كالمحافظة على العلاقات الاجتماعية في أطرها العامة على الأقل، خصوصا مع ملاحظة طبيعة الموضوع، وما يترتب عليه من مكتسبات صغيرة، بينما المظلومية الثانية لا وجود لأمر أكبر منها مصلحةً؛ إذ أنَّها تضرب على وتر المصلحة العليا، وتصرخ من وطأة المفسدة الكبرى، ونشر المظلومية في هذه المساحة يعني تماما: إرجاع الأوضاع إلى نصابها الصحيح، وذلك عبر التأثير على الآخرين بجلب التعاطف الذي يستتبع النصرة، والدعم، وإلا أصبح بقاءُ الوضع على ما هو عليه استمراراً للمفسدة العليا.

والمظلومية التي نتمسك بنشرها في عاشوراء هي مظلومية عامة، وليست مظلومية شخصية، فلا يصحُّ السكوت عنها مهما تقادم الزمان؛ إذ أنَّها مظلومية مسَّت الأمَّة الإسلامية جمعاء، بل البشرية ككل، وقد أدخلت علينا من الفساد التكويني والتشريعي ما نعاني من آثاره حتى يومنا هذا، فاحتاج الأمر حتى هذا الحين إلى تصحيح، وهو لا يمكن أن يكون إلا عبر نشر مظلومية الحسين عليه السلام، وبيانها للعالم..

ويؤيد هذا الفهم ما ورد في بيان طريقة الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف في إعلان ثورته التي تستهدف التصحيح العام، وذلك من خلال استنادها واتكائها على مظلومية الحسين عليه السلام..

وهذا الجواب يرد ما ورد في التساؤل الثاني الذي يتوقَّف في منهج المظلومية من وجهة نظر اجتماعية، فنحن هنا ربما نخسر بعض العلاقات الاجتماعية المحدودة بالإصرار على نشر مظلومية الحسين عليه السلام، وقد نجدد -بنحو طبيعي- خلافات عقائدية كبيرة بالإصرار على نشر هذه المظلومية، إلا أننا بذلك نستهدف غاية عظمى، تهون دونها كلُّ الخسائر وتصغر.

ثالثاً: التفريق بين المظلوميّة الجزئية، والرمزية:

يُفهم من التوجيهات المباشرة من المعصومين عليهم السلام في هذا الشأن ليس فقط رجحان التمسك بمنهج المظلوميّة، بل ضرورته، وأهميته؛ ذلك أنَّ المسألة لا تجمد عند الأشخاص بما هم، بل إنَّها تبدأ منهم لتتعدى إلى الرمزية الكامنة فيهم، وبالتالي فإنَّ التركيز على منهج المظلوميّة هو تركيز على المبادئ، وليس انئساراً لأخطاء وقعت في زمان معين، بين أشخاص معينين..

وهذا ما يفسِّر لنا ما قد يفهمه الآخرون على أنَّه مبالغة في تجديد الذكريات تحت حجة المظلومية، والحال أنَّ المسألة ليس فيها من المبالغة شيء؛ لأنَّها مسألة مبدئية، متحركة بتحرك المبادئ التي لا تُبلى، وبمراجعة الروايات التي تكلمت عن مظلوميتهم عليهم السلام، نلمس هذا البعد الرمزي بكلِّ وضوح، فمظلوميتهم ليست شيئاً آخر غير مظلومية نفس الإسلام، والدين، والعقيدة، ومما يبين ذلك:

١ـ ما عن الكاظم عليه السلام: «**إنَّ الله أعز وأمنع من أن يظلم وأن ينسب نفسه إلى ظلم، ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته**»[١٣].

٢ـ وجاء في تفسير القمي: "وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ يعني: فبنقضهم ميثاقهم ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[١٤]، قال: «**هؤلاء لم يقتلوا الأنبياء، وإنما قتلهم أجدادهم، وأجداد أجدادهم، فرضوا هؤلاء بذلك، فألزمهم**

اللهُ القتل بفعل أجدادهم، فكذلك من رضي بفعل فقد لزمه وإن لم يفعله»[١٥].

٣ـ وجاء في مستدرك سفينة البحار للنمازي: "باب أنَّهم عليهم السلام المظلومون، وما نزل في ظلمهم. منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ لآل محمد ﴿نَاراً﴾، كما قاله الصادق عليه السلام في رواية الكافي، وغيره. ومنها قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ آل محمد حقهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ -إلى أن قال:- ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ لآل محمد حقهم ﴿فِي عَذَابٍ﴾ أليم. ومنها قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: الذين ظلموا آل محمد حقهم ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ يعني أشباههم. ومنها قوله: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ﴾ لآل محمد حقهم ﴿ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ قال: الكلمة الإمام، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني الإمامة، ثم قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الذين ظلموا هذه الكلمة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم قال: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني الذين ظلموا آل محمد حقهم - الخ.

ومنها قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ آل محمد حقهم ﴿فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ يعني النُّصَّاب. وهذه الروايات في البحار. ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ.. ظَلَمُوا﴾ آل محمد حقهم ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ - الآيات كذا نزلت. ومنها قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ آل محمد حقهم ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ آل محمد حقهم ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ في ذلك الوقت، يعني الرجعة. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آل محمد حقهم ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ قال: عذاب الرجعة بالسيف. ومنها قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُون﴾ لآل محمد حقهم ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا﴾، كذا نزلت كما قاله الباقر عليه السلام. ومنها قوله تعالى: ﴿لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، قال: أولاد قتلة الحسين عليه السلام"[١٦].

فكلُّ آية تكلَّمت عن الظلم والمظلومية، فإنَّها متعلقة بهم عليهم السلام كمصداق أبرز، مؤولة فيهم..

وبهذا الجواب يرتفع ما ورد في التساؤل الثالث الذي حاول أن يشكِّك في منهج المظلومية من ناحية تربوية، فإنَّنا بالتمسك بمنهج نشر مظلومية الحسين عليه السلام لا نحاول أن نجمد عند الأشخاص، ولا نحاول أن نربي الأجيال على الأحقاد، والكره، وتفريق المجتمع، بل إننا نحاول أن نحيي الرموز ونميتها، نحيي رموز الحق، ونميت رموز الباطل، فنحيي بذلك الحق نفسه، ونميت الباطل، فنطبق ما جاء في الذكر الحكيم: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[١٧]، وهذا ما أسَّس إليه نفس الحسين عليه السلام حين قال: «**ومثلي لا يبايع مثله**»[١٨]. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) سورة الشورى: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

(٣) سورة الحجرات: ٨.

(٤) سورة الحشر: ٩.

(٥) المحاسن، البرقي، ص٢٦٣.

(٦) سورة النساء: ١٤٨.

(٧) مجمع البيان، الطبرسي، ج٣، ص٢٢٥.

(٨) كتاب المكاسب، الأنصاري، ج١، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٩) مصباح الفقاهة، ج١، ص٥٣٣.

(١٠) الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي، ج٢، ص٧٦٨.

(١١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج١، ص٣٨٢.

(١٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج٢٢، ص٤٣٢.

(١٣) الكافي، ج١، ص٤٣٥.

(١٤) سورة النساء: ١٥٥.

(١٥) تفسير القمي، ج١، ص١٥٧.

(١٦) مستدرك سفينة النجاة، ج٧، ص٢٥-٢٦.

(١٧) سورة الإسراء: ٨١.

(١٨) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٥.

ركنيّة المأساة في إحياء عاشوراء

الشيخ علي عبدالحسين البني

الملخّص:

يشير الكاتب إلى أهمّيّة الحزن والتّفجّع وإظهار النّدبة واللوعة لما جرى للإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، وأنّ ما ذكر من التّفجّع كان مقارناً لذكر الحسين عليه السلام، وأشار إلى تقارن ذكر الحسين عليه السلام مع الدّمعة التّفجّع عند النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن قبله آدم عليه السلام وبعده الأئمّة عليهم السلام، والحثّ على زيارته في تلك الحالة، ثمّ بيّن أهمّيّة التّفجّع والحزن ودوره في إيقاظ واستنهاض الأمّة، واستثمار ذلك من أهل البيت عليهم السلام في بناء الدّين وتشييده.

المقدّمة:

عن عبد الله بن المغيرة، عن أبي عمارة المنشد قال: "ما ذُكر الحسين عليه السلام عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام في يوم قط فرُئي أبو عبدالله متبسما في ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: «الحسين عليه السلام عبرة كل مؤمن»"[1].

عندما نستقرأ الرّوايات الّتي تتحدّث عن الإمام الحسين عليه السلام نجد غلبة لجانب الحزن والمأساة في تلك الرّوايات، فقلَّ أن تجد رواية من الرّوايات الّتي تتكلّم عن الإمام الحسين عليه السلام تخلوا من هذا الجانب، وكأنّ الرّوايات تريد أن تقرن الإمام الحسين عليه السلام بالمأساة فمتى ما ذكر الحسين عليه السلام ذكرت معه المأساة والحزن.

بعبارة أخرى أقول: لو وقفنا على أي كتاب من الكتب الّتي تتحدّث عن شخص السّبط الشّهيد عليه السلام وتأمّلنا في تلك الرّوايات لوجدنا أن السّمة البارزة في تلك الرّوايات هي سمة الحزن والمأساة، وكأنّها أئمّة أهل البيت عليهم السلام تعمّدوا أن يُظهروا شخص الحسين عليه السلام مقترناً وممزوجاً بحالة الحزن والأسى، ولكي يكون للكلام مزيد بيان لنقف على طائفتين من الرّوايات الّتي تصبّ في هذا المعنى:

الطّائفة الأولى: الرّوايات المطلقة:

الرّواية الأولى: في تاريخ بن عساكر، وذخائر العقبى، وتذكرة خواصّ الأمّة عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه قال: "قالت أم سلمة رضي الله عنها كان النّبي صلى الله عليه وآله نائما في بيتي فجاء حسين عليه السلام يدرج فقعدت على الباب وأمسكته مخافة أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فيوقظه، ثمّ غفلت في شيء فدخل على النبي صلى الله عليه وآله فقعد على بطنه قالت: فسمعت نحيب رسول الله صلى الله عليه وآله فجئت فقلت: يا رسول الله والله ما علمت به، فقال صلى الله عليه وآله: «إنّما جاءني جبرئيل عليه السلام وهو على بطني فقال لي: أتحبّه؟ فقلت: نعم، قال: إنّ أمّتك ستقتله،

ألا أُوريك التّربة الّتي يقتل بها؟ قال: قلت: بلى، قال: فضرب بجناحه فأتى بهذه التّربة»، قالت: وإذا في يده تربة حمراء وهو يبكي ويقول: «ليت شعري من يقتلك من بعدي»"[٢]. الرّواية تعطي معنى حاصله أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله لمّا علم بما يجري على سبطه الحسين عليه السلام فإنّه لم يبكِ وكفى بل أخذ ينحب والنّحيب بكاء مع صوت، والرّواية واضحة في بيان جانب المأساة المرتبط بالإمام الحسين عليه السلام.

الرّواية الثّانية: ما ذكره الشّيخ عبدالله البحرانيّ قدس سره في كتابه العوالم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أنَّه رأى ساق العرش وأسماء النّبي والأئمّة عليهم السلام، فلقّنه جبرئيل عليه السلام قال: «يا حميد بحقّ محمّد، يا عاليّ بحقّ عليّ، يا فاطر بحقّ فاطمة، يا محسن بحقّ الحسن والحسين ومنك الإحسان، فلمّا ذكر الحسين عليه السلام سالت دموعه وان خشع قلبه، وقال عليه السلام: يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟، قال جبرئيل: ولد هكذا يصاب بمصيبة تصغر عنده المصائب، فقال عليه السلام: يا أخي وما هي؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول واعطشاه وا قلّة ناصراه، حتّى يحول العطش بينه وبين السّماء كالدّخان، فلم يجبه أحد إلّا بالسّيوف وشرب الحتوف، فيذبح ذبح الشّاة من قفاه، وينهب رحلَه أعداؤه، وتشهرُ رؤوسُهم هو وأنصاره في البلدان، ومعهم النّسوان، كذلك سبق في علم الواحد المنّان، فبكى آدم وجبرئيل عليهما السلام بكاء الثّكلى»، الرّواية تبيّن أن مجرد ذكر اسم الإمام الحسين عليه السلام يبعث على انكسار القلب، فآدم بعدُ لم يعرف بمصاب الإمام الحسين عليه السلام ومع ذلك بمجرد أن ذكر اسم الحسين عليه السلام سالت عبرته وانكسر قلبه.

الرّواية الثّالثة: كما في كامل الزّيارات عن محمّد بن الحسن الخزار، عن هارون بن خارجة قال: "كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فذكرنا الحسين عليه السلام فبكى أبو عبدالله وبكينا، قال: ثمّ رفع رأسه فقال عليه السلام: «قال الحسين عليه السلام: أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلّا بكى»"[٣]، والرّواية مطلقة ولم تقيد ذكر الحسين بحالة معيّنة كحالة سماع النّدبة

والرّثاء، وعليه فمتى ما ذكر الحسين عليه السلام فإنّ المؤمن يبكي لمجرّد أن يسمع بذكر الحسين عليه السلام.

هذه الرّواية إذا ضمّت للرّواية الّتي تقدّمت في أوّل البحث -والّتي تبيّن بشكل واضح بأنّ الإمام الصّادق عليه السلام إذا ذكر عنده الإمام الحسين عليه السلام لا يرى ذاك اليوم ضاحكاً- فإنّ المعنى يكون بأنّ الإمام الصّادق عليه السلام كانت تغلب عليه الكآبة والحزن لمجرّد أن يذكر الحسين عليه السلام، وما هذا الحزن إلّا نتيجة لما جرى على السّبط الشّهيد من المأساة والمظلوميّة.

الطّائفة الثّانية: روايات الزّيارة:

الرّواية الأولى: ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «**إذا زرت أبا عبد الله عليه السلام فزره وأنت حزين مكروب، شعث مغبر جائع عطشان، فإن الحسين عليه السلام قتل حزيناً، مكروباً، شعثاً، مغبرّاً، جائعاً، عطشان، وسله الحوائج، وانصرف عنه ولا تتّخذه وطناً**»[٤] فالرّواية تعطي بأنّ الزّائر لا بدّ أن يزور الإمام الحسين عليه السلام بهيئة خاصّة وبكيفيّة رسم لنا معالمها أهل البيت عليهم السلام وهي أن يكون الزّائر في حالة زيارته تغلب عليه الكآبة والحزن.

الرّواية الثّانية: ورد عن الصّادق عليه السلام أنه قال: «**بلغني أن قوماً إذا زاروا الإمام الحسين عليه السلام حملوا معهم السُّفرة فيها الجداء والأخبصة وأشباهه، ولو زاروا قبور آبائهم وأحبّائهم ما حملوا معهم هذا**»[٥] والرّواية تبيّن أن لا يتّخذ المسافر إذا قصد لزيارة الحسين عليه السلام ما لذّ وطاب من الغذاء والحلاوة، إذ إن مثل هذه الأمور لا تتناسب إلّا مع مجالس الفرح والسّرور بينما الزّائر للإمام الحسين عليه السلام ينبغي أن لا يغيب عنه جانب الحزن والمأساة.

استطراد: ولعلّ من الأمور الّتي تلفت النّظر في زيارة الإمام الحسين عليه السلام أن

الزّيارات الواردة في شأن الإمام الحسين عليه السلام فيها روح النّدبة والحزن في حال الزّيارة لسيّد الأحرار، وهذه النّدبة لا تجدها فقط في زيارة عاشوراء -لوجود نحو مناسبة بين الزّيارة ويوم عاشوراء- بل تجدها في أيام جعلت للنّاس عيداً وأيّاماً جعلت للضّراعة والابتهال كيوم عرفة مثلاً، لذلك تجد مثل هذا المعنى في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة كما أورده أجلّة العلماء وزعماء المذهب والدّين، "إذا أردت زيارته في هذا اليوم -يوم عرفة- فاغتسل من الفرات إن أمكنك وإلّا من حيث أمكنك، والبَس أطهر ثيابك، واقصد حضرته الشّريفة، وأنت على سكينة ووقار إلى أن يقول: «السّلام عليك يا صريع العبرة السّاكبة، وقرين المصيبة الرّاتبة، لعن الله أمة استحلّت منك المحارم، فقُتِلتَ صلى الله عليك مقهوراً، وأصبح رسولُ الله صلى الله عليه وآله بك موتوراً، وأصبح كتاب الله بفقدك مهجوراً»"[٦].

المحصّلة: من خلال الوقوف على الطّائفتين من الرّوايات نخرج بمحصّلة مؤدّاها بأن جانب الحزن والمأساة هي من السّمات الّتي اقترنت بذكر الحسين عليه السلام، فمتى ما ذكر الإمام الحسين عليه السلام ذكرت معه المأساة والحزن والمظلوميّة، بل إن الزّائر إذا قصد الحسين عليه السلام ينبغي أن يستشعر الحزن والكآبة والمأساة.

بناء على ما تقدّم نريد أن نبحث في جنبتين أساسيّتين:

الجانب الأوّل: أهمّيّة جانب المأساة في إحياء عاشوراء.

الجانب الثّاني: توظيف أهل البيت عليهم السلام لهذه المأساة في بعض الأبعاد العقائديّة.

الجانب الأوَّل: أهميّة المأساة في إحياء عاشوراء

هناك بعض الأقلام من حيث تشعر أو لا تشعر تحاول أن تقلل من أهمية الجانب المأساوي في إحياء عاشوراء، بينما هذا الجانب له أهمية بالغة في إحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام ولعل أهمية هذا الجانب تتضح من خلال هذا البيان:

الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين:

القرآن الكريم عندما يتحدّث عن الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين فإنه يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٧]، فالآية تبيّن أنّ هدف جميع الأنبياء هو إقامة العدل الإلهيّ في حياة البشريّة، ولإقامة العدل نحتاج إلى عناصر ثلاثة:

العنصر الأوّل: وجود شريعة جامعة، من خلالها تستطيع أن تستوعب جميع حاجات الإنسان، وهذا العنصر تمثّل في الإسلام لأنّه خاتم الأديان.

العنصر الثّاني: القيادة، فالقيادة الإلهيّة الرّبانيّة تمثّل عنصراً مهمّا لإقامة ولبسط العدل بين البشريّة.

العنصر الثّالث: القاعدة الشّعبيّة، على حدّ تعبير القرآن الكريم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ النّاس لهم دور في إقامة العدل في بني البشر، فالنّاس إن لم يقوموا بدورهم فلا يمكن إقامة العدل، فلهذا لم يقل القرآن (ليُقيموا العدل) وإنما قال: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، لذلك لا بدّ للأمّة أن تصل لمستوى تتحمّل فيه مسؤوليّاتها.

وعليه فالشّريعة الجامعة شرط لإقامة العدل، والقيادة الرّبانيّة شرط لإقامة العدل، والأمّة شرط لإقامة العدل، ونحن على مستوى العنصر الأوّل والثّاني لا يوجد عندنا مشكلة، إنّما وقعت المشكلة في العنصر الثّالث وهو عنصر الأمّة.

عندما لا تنهض الأمّة بمسؤولياتها؟

عندما نرجع للقرآن الكريم نجد بأن هذا العنصر في كثير من المحطّات يتخلّى عن المسؤولية الّتي ينبغي أن يتحمّلها، فلقد قال القرآن على لسان قوم موسى عليه السلام:

قَالُوا ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[٨]، فالنّبي موسى عليه السلام يحرّضهم على الجهاد وأن يتحمّلوا مسؤوليّاتهم ولكنّهم أبوا إلّا أن يتخلّوا ويدعو القيادة الرّبانيّة بمفردها في ساعة العسرة، وكذلك الأمّة الّتي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وآله ربع قرن ما إن ارتحل صلى الله عليه وآله إلى ربّه وإذا بها تنقلب على عقبيها وهذا ما حكاه القرآن إذ قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٩]، وعليه فعندما لا تنهض الأمّة بمسؤوليّاتها ولا تتحمّل ما أوجب عليها هنا يتولّد خطران أساسيّان يتهدّدان الأمّة الإيمانيّة:

الخطر الأوّل: انحراف المسيرة، فالمسيرة الإلهيّة ربّما تتعرّض للانحراف من قبل ضعاف النّفوس ومرضى القلوب، وهذا ما واجهته أمّة النّبيّ صلى الله عليه وآله حتى قال خليفتهم لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل؟!!!

الخطر الثّاني: غفلة الأمّة، أن تعيش الأمّة في غفلة من أمرها فلا تنهض حتّى تقيم العدل الإلهيّ، وهذا من أخطر الأمراض الّتي تبتلى بها البشريّة على طول الخطّ.

وكلا هذين الخطرين ظهرا في أمّة النّبيّ صلى الله عليه وآله ما أن ارتحل من الدّنيا إلى الرّفيق الأعلى، لذلك وصف الإمام الحسين عليه السلام تلك الحالة فقال: «إنّه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدّنيا تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربّه حقّاً، فانّي لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظّالمين إلّا برما». فقام زهير بن القين فقال: "قد سمعنا – هداك الله يا ابن رسول الله – مقالتك ولو كانت الدّنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، لآثرنا النّهوض معك على الإقامة فيها"[١٠].

دفع الأمّة في اتّجاه تحمّل المسؤوليّة:

فإذا كان والحال هذه فلا بدّ من زخم للأمّة يدفع بها باتّجاه تحمّل المسؤوليّة، ولا يكون هذا الزّخم من خلال الخطاب النّخبويّ فالخطاب النّخبوي لا تفهمه إلّا النّخبة، بل نحتاج إلى خطاب جماهيريّ تفهمه كلّ الجماهير، ولا خطاب إلّا خطاب الوجدان وخطاب المأساة، فالمأساة تحرّك في الإنسان العاطفة والاتّباع وبالتّالي يتحرّك جميع شعوره ووجدانه، فلذلك فالمأساة جزء من هُويَّة الحسين عليه السلام لذلك أيّ قلم أو أيّ كلمة تريد أن تقلّل من أهمّيّة المأساة فهي تريد القضاء على هذه الهويّة من حيث تعلم أو لا تعلم.

لذلك عندما نرجع للأئمّة الأطهار عليهم السلام في إحيائهم لذكر الحسين عليه السلام نجد أنّهم كانوا يُظهرون هذا الجانب بشكل يلفت النّاظر، وهذا ما يمكن أن نتصيّده عن غير واحدة من الرّوايات الصّادرة عنهم عليهم السلام، فقد روى محمّد بن الحسن في المصباح، عن عبدالله بن سنان قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام يوم عاشوراء ودموعه تنحدر على عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: ممَّ بكاؤك؟ فقال عليه السلام: «**أفي غفلة أنت؟! أما علمت أنّ الحسين عليه السلام أصيب في مثل هذا اليوم؟**» فقلت: "**ما قولك في صومه؟**" فقال لي: «**صمه من غير تبييت، وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كَمَلاً، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة ماء، فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله**»[١١]، وكذلك ما ورد عن الإمام الرّضا عليه السلام في هذا الجانب حيث يقول ابن شبيب: دخلت على الرّضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرّم فقال لي: «**يا ابن شبيب إنّ المحرّم هو الشّهر الّذي كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه الظّلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها ولا حرمة نبيّها، لقد قتلوا في هذا الشّهر ذرّيّته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً**»[١٢]، كذلك في رواية عن

أخرى عن الرّضا عليه السلام كما ينقلها الشّيخ الصّدوق قدس سره في أماليّه حيث قال: قال: الرّضا عليه السلام: «**إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال، فاستحلّت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، و أضرمت النّيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم ترع حرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله في أمرنا، إن يوم الحسين عليه السلام أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون فإنّ البكاء عليه يحطّ الذّنوب العظام**»[١٣]، فنجد من خلال هذا العرض لإحياء أهل البيت عليهم السلام لذكر الحسين عليه السلام أنّهم كانوا يصرّون على بيان جانب المأساة والمظلوميّة الّتي جرت على الحسين عليه السلام ليكون الحزن والمأساة ركنين أساسيّين في إحياء عاشوراء الحسين عليه السلام.

فلذلك إذا أردنا أن يكون الإسلام سليماً عن كلّ انحراف، وأن نوجد زخماً للأمّة من أجل أن ترتفع لمستوى تحمُّل المسؤولية، فلا طريق إلّا حفظ الحسين عليه السلام في وجدان الأمّة، وذلك من خلال إحياء ذكر الحسين عليه السلام بالكيفيّة الّتي رسم معالمها أهل البيت عليهم السلام وهو إحياء عاشوراء بركنيّة الحزن والمأساة.

تنبيه: وهنا أمر لا بدّ أن ننبّه عليه، وحاصله إن كان إحياء ذكر الحسين عليه السلام أخذ في موضوعه الحزن والمأساة فليس معنى ذلك أن نلقي الحبل على غاربه وأن نبتدع في الدّين ما ليس من الدّين بذريعة الحزن والمأساة، فالإمام الحسين عليه السلام قاد هذه الثّورة المباركة من أجل إحياء السّنّة وإماتة البدعة، فإذا جئنا لنبتدع في الدّين ما ليس منه لزم نقض القرض من إحياء ثورة الإمام الحسين عليه السلام والعاقل لا ينقض غرضه.

الجانب الثّاني: توظيف أهل البيت عليهم السلام لبعد المأساة لتأصيل بعض الأبعاد العقائديّة

بُعدُ المأساة والمظلوميّة في ثورة أبي عبدالله الحسين عليه السلام وُظّف من قبل أهل البيت عليهم السلام للتّأصيل لبعض الأبعاد الدّينيّة والعقائديّة، ولنذكر منها على سبيل

الاختصار تأصيلين:

التّأصيل الأوّل: التّضحية من أجل الدّين:

من الأمور الّتي أكّد عليها أئمّة أهل البيت عليهم السلام في غير واحدة من كلماتهم هو لزوم التّحمّل والتّضحية بكلّ غالٍ ونفيس في سبيل الاصطفاف مع الحقّ وأهله، ومن الأمور الّتي من خلالها أصّل أهل البيت عليهم السلام لهذا الأمر أنّهم وظّفوا الجانب المأساويّ في كربلاء وما جرى عليهم من أجل التّأصيل لبعد التّضحية من أجل الدّين، ولعلّ هذا المعنى يتّضح من خلال ما رُوي عن زين العابدين عليه السلام فقد قال حين سأله المنهال: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: «**أمسينا فيكم كهيئة بني إسرائيل في آل فرعون، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً منها، وأمسى آل محمّد مقهورين مخذولين، فإلى الله نشكو كثرة عدوّنا وتفرّق ذات بيننا، وتظاهر الأعداء علينا**»[١٤]، فمثل هذه الكلمات إذا وقعت في القلوب الطّاهرة فإنّها تبعث فيهم روح التّضحية من أجل الدّين، وهذا الخطاب العاطفيّ من شأنه أن يؤثّر في الوجدان البشريّ، فالإمام عليه السلام ومن خلال بيانه للظلم الّذي وقع عليهم شحذ الهمم والنّفوس في الأمّة حتّى تضحّي من أجل القيم والدّين.

إشكال وردّه: فإن قلت: إن الإمام عندما يُبرز المظلومية والمأساة بهذا الكيفيّة فهذا يتعارض مع الإباء والشّموخ الّذي ينبغي أن يتحلّى به المؤمنون فضلاً عن الأئمّة الأطهار الّذين هم في القمّة من حيث الإباء والشّموخ؟

قلت: من قال بأن التّعريض بالظّالم من خلال بيان المظلوميّة والمأساة الّتي ارتكبها بحقّ المظلوم يتعارض مع الإباء والشّموخ؟! بل وكما قرّر في محلّه أنّه ربّما يقال: بأنّه يستحب -إذا توقف عليه- فضح الظّالمين على رؤوس الأشهاد فإنّه

نوع من الضّغط والتّنفير الاجتماعيّ، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ففي تفسير علي بن إبراهيم رحمه الله في تفسير الآية الشريفة قال: "وقوله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي لا يحبّ الله أن يجهر الرّجل بالظّلم والسّوء ولا يظلم، إلّا من ظلم، فقد أطلق له أن يعارضه بالظّلم"[١٥].

التّأصيل الثّاني: توظيف المظلوميّة ومبرّرية الأخذ بثأره عليه السلام:

تشير بعض النّصوص الرّوائيّة إلى أن المأساة التي جرت على الحسين عليه السلام لم تفجع البشريّة وحسب بل حتّى الملائكة ضجّت لمقتل الإمام الحسين عليه السلام، وهذا الجانب -وهو بكاء الملائكة على الحسين عليه السلام- وظّفه أهل البيت عليهم السلام لتأصيل واحدة من أهمّ العقائد ألا وهي العقيدة المهدويّة فقد رُوي عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «لمّا كان من أمر الحسين عليه السلام ضجّت الملائكة وقالوا: يا ربّنا هذا الحسين صفيّك وابن صفيّك وابن بنت نبيّك، فأقام الله ظلّ القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف وقال: بهذا أنتقم لهذا»[١٦]، وقد انطلق أئمّة أهل البيت عليهم السلام من مظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام موظّفين ذلك لبيان هذه المسألة الإلهيّة، وبالتّالي فإنّ الظّلم والمأساة الّتي جرت على سيد الشّهداء الحسين بن علي عليه السلام جعلت أرضيّة لتثبّت حقيقة المنقذ الإلهيّ الّذي ينطلق تحت شعار يا لثارات الحسين عليه السلام، من هنا بيّنت جملة من الرّوايات بأنّ الحجّة عجل الله تعالى فرجه الشريف عندما يخرج يقتل ذراري قتل الحسين عليه السلام وذلك لأنّهم رضوا بأفعال أجدادهم، ففي الرّواية عن عبد السّلام بن صالح الهرويّ، قال: قلت لأبي الحسن الرّضا عليه السلام: يا بن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصّادق عليه السلام أنه قال: «إذا خرج القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائهم؟ فقال عليه السلام: هو كذلك»، فقلت: وقول الله عزّ وجلّ: ولا تزر وازرة وزر أخرى ما معناه؟ قال: «صدق الله في جميع أقواله

ولكن ذراري قتلة الحسين عليه السلام يرضون بأفعال آبائهم ويفتخرون بها، ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه، ولو أن رجلاً قُتل بالمشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الرّاضي عند الله عز وجل شريك القاتل، وإنّما يقتلهم القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم»[١٧].

الهوامش:

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، المحدث النوري، ج١٠، ص٣١٢.

(٢) تاريخ ابن عساكر، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، ص٢٥٩.

(٣) كامل الزيارات؛ ص١٠٩.

(٤) الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٤، ص٥٨٧.

(٥) من لا يحضره الفقيه؛ ج٢، ص٢٨١.

(٦) بحار الأنوار؛ ج٩٨، ص٣٦٠.

(٧) سورة الحديد: ٢٥.

(٨) سورة المائدة: ٢٤.

(٩) سورة آل عمران: ١٤٤.

(١٠) تاريخ الطبري، ج٣، ص٣٠٧.

(١١) الوافي؛ ج١١، ص٧٨.

(١٢) الإقبال بالأعمال الحسنة (ط - القديمة)؛ ج٢، ص٥٤٥.

(١٣) الأمالي للصدوق، ص١٢٨.

(١٤) الاحتجاج؛ ج٢، ص٣١١.

(١٥) تفسير القمي، ج١، ص١٥٧.

(١٦) الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج١، ص٤٦٥.

(١٧) علل الشرائع؛ ج١، ص٢٢٩.

الثورة الحسينيّة
بين هدفيّة الشّهادة وإقامة الحكومة

الشيخ عيسى مكي الجزيري

الملخّص:

يتعرّض الكاتب إلى نظريّتين من النّظريّات التي فسّرت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما نظريتي الشّهادة والحكومة. فتطرّق مقدماً إلى أن التّخطيط للثّورة كان إلهيّاً، ثمّ تطرّق إلى المراد من النّظريتين وإلى المراد من الشّهادة، وثمّ ذكر عدّة مناقشات على النّظريّتين، وانتهى إلى أنّ مقصد الإمام عليه السلام هو الشّهادة، ومقصوده هو الإصلاح.

تعدّدت النّظريّات والاتّجاهات الّتي فسّرت الهدف الأساس من ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فقد أوصلها بعض إلى سبع نظريّات[١] وآخر إلى ثمان[٢]، ولعلّ أهمّ تلك النّظريّات أربعة:

الأولى: نظريّة الشّهادة، وهي ما ذهب إليه المشهور. والثّانية: نظريّة الحكومة. والثّالثة: نظريّة الهدفيّة المتعدّدة الطّبقات، وهي ما تبنّاه صاحب الموسوعة الحسينيّة[٣]. والرابعة: نظريّة الهدف المرحليّ[٤].

والكلام يقع في بيان نظريتي الشّهادة والحكومة وبيان شواهد كلّ منهما.

مقدمة: هل التخطيط لواقعة عاشوراء تخطيط بشري أم إلهي؟

هناك اتجاهان:

الاتجاه الأول: يقول بأنّ التخطيط لها كان بشرياً من قبل الحسين عليه السلام. حيث إنّه عليه السلام يتعامل مع المواقف بما يمليه عليه عقله وانفعاله، فقد اعتمد على كتابات أهل الكوفة إليه، بل زاد بعضهم أنّ الحسين عليه السلام اغتر بمواعيد أهل الكوفة وبنصيحة ابن الزبير له بالخروج[٥]. وكل ذلك بحسب نظر هذا الاتجاه من أجل الوصول إلى السلطة، إلا أنّه لم يوفق في ذلك لخطأ تقديره وتخطيطه من جهة، ولجسارة خصومه وكثرتهم من جهة أخرى، مما أدى إلى قتله وسبي أهل بيته. وهذا ما تبناه الجمهور.

الاتجاه الثاني: يقول بأنّ التخطيط لها كان إلهياً، فحركة الحسين عليه السلام لاستنقاذ الأمة كانت بأمر إلهي، ودوره عليه السلام دور المنفذ القدير والمؤهل من قبل الله تعالى لتنفيذ ذلك المشروع الإلهي وتحقيق أهدافه السامية. وقد نجح الإمام عليه السلام في تحقيق ذلك[٦].

وقد استفاضت النصوص عن المعصومين عليهم السلام الدالة على ذلك منها:

صحيح ضريس الكناني عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: قال له حمران: جعلت فداك أرأيت ما كان من أمر علي والحسن والحسين عليهم السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عز وجل وما أصيبوا من قتل الطواغيت إياهم والظفر بهم حتى قتلوا وغلبوا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «**يا حمران إنّ الله تبارك وتعالى قد كان قدر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه، ثم أجراه فبتقدم علم ذلك إليهم من رسول الله قام علي والحسن والحسين، وبعلم صمت من صمت منا**»[٧]. وغيرها من النصوص.

المبحث الأول: بيان النظريتين

النظرية الأولى: نظرية الشهادة

ومفادها أنّ الهدف من ثورة الحسين عليه السلام هو الشهادة التي كتبها الله له ولا هدف آخر له ورائها. حيث إنّه بعدما رأى أنّ بني أمية قد تلاعبوا بالإسلام والمسلمين يهدفون إلى هدم الكيان الإسلامي، نهض بثورته لإقامة الاعوجاج وإصلاح الأمة بأنْ قدم نفسه علاجاً أرجع الحياة إلى كيان الإسلام بعد أنْ كان يحتضر من حكم بني أمية، ولو لا هذه الشهادة لما بقي للإسلام اسم ولا أثر.

وهذه هي النظرية التي ذهب إليها جملة من الأعلام وكثير من المحققين[٨] كالعلامة السيد شرف الدين العاملي[٩] والعلّامة السيد محسن الأمين والصافي الگلبايگاني وغيرهم[١٠]. وهنا عدة نقاط:

النقطة الأولى: ما المقصود بالشهادة هنا؟

هناك عدة تفسيرات للشهادة منها:

التفسير الأول: الشهادة التكليفية

وهذا أشهر التفاسير وعليه شواهد من الروايات، منها ما ورد في الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «**فلما توفي الحسن ومضى فتحَ الحسينُ عليه السلام الخاتمَ الثالثَ فوجد فيها أنْ قاتل فاقتل وتُقتل، واخرج بأقوامٍ للشهادة لا شهادة لهم إلا معك، قال: ففعل عليه السلام**»[١١]. فالشهادة هي تكليف خاص به عليه السلام ضمن مخطط إلهي غيبي أحد فصوله شهادته عليه السلام.

التفسير الثاني: الشهادة بمعنى أنّه عليه السلام استشهد ليطهّر الأمة من ذنوبها ويكون شفيعاً لها؛ فهو يريد القتل لكي يبكي عليه المؤمنون، فيغفر لهم وينالون الجنة، نظير ما ذُكر بشأن المسيح عليه السلام من أنّه صلب لأجل أن يفتدي البشر من ذنوبهم[١٢].

التفسير الثالث: الشهادة السياسية

بمعنى أنّه استشهد ليقوّم النظام السياسي الإسلامي الأصيل وإصلاح ظاهر الفساد السياسي والاجتماعي أيضاً، وهذا الإصلاح يتطلب شهادته وأهل بيته.

ولكن هذا التفسير في الحقيقة تحليل سياسي لثورة الحسين عليه السلام ومستلهم من الإسلام السياسي لا أنّه تفسير لشهادته عليه السلام[١٣].

النقطة الثانية: الشواهد على هذه النظرية:

١ـ كتاب سيد الشهداء عليه السلام لأخيه محمد ابن الحنفية رضي الله عنه عند خروجه من المدينة: «**أمّا بعد، فإنّ مَن لحق بي استُشهد، ومَن لم يلحق بي لم يُدرك الفتح، والسلام**»[١٤].

٢ـ وفي خطبةٍ له عليه السلام بمكة المكرمة في الثامن من ذي الحجة بين أهله وأصحابه، قال: «**خُطّ الموت على وُلد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِيرَ لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان**

الفلوات، بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جوفاً، وأجربةً سُغبَاً، لا محيص عن يومٍ خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين... مَن كان باذلاً فينا مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحلٌ مصبحاً إن شاء الله»[١٥].

ففي هذين الشاهدين دلالة واضحة على أنّه عليه السلام ماضٍ نحو الشهادة التي أمر بها، فذكره تقطّع أوصاله وما يحل به في أرض كربلاء واضح في ذلك.

٣ـ ما نقله الشيخ المفيد في رواية سالم بن حفص: قال عمر بن سعد للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، إنّ قِبَلَنا ناساً سفهاء يزعمون أنّي أقتلك. فقال له الحسين عليه السلام: **«إنّهم ليسوا بسفهاء، ولكنّهم حلماء، أما إنّه يقرّ عيني ألّا تأكل برّ العراق بعدي إلّا قليلاً»**[١٦]. فالحسين عليه السلام يعلم بأنه مقتول وأنّ القاتل له هو عمر بن سعد أمرٌ معروف بين الناس.

٤ـ ما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام: **«خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا عليه السلام أُهديَ إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل»**[١٧].

٥ـ استرجاع الحسين عليه السلام ثلاث مرات، وجوابه على علي الأكبر عليه السلام: **«يا بني، إنّي خفقت برأسي خفقةً، فعنّ لي فارسٌ على فرس وهو يقول: القوم يسيرون، والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنّها أنفسنا نُعيت إلينا»**[١٨].

النقطة الثالثة: نتائج هذه النظرية:

١ـ خروجه عليه السلام واجب عيني عليه. وعليه لا بد من توجيه ما قد يظهر منه أنّ سيد الشهداء عليه السلام أراد التراجع عن حركته أو ما شابه ذلك كما في موقف

الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء عندما خطب القوم أو عند لقائه بالحرّ وغيرها، فلا بد من حملها على إقامته الحجة على القوم وليثبت في صفحة التاريخ هوية حكومة بني أمية.

٢ـ إقامة العزاء والبكاء على سيد الشهداء عليه السلام حق له ولمن ضحى معه من أهل بيته وأصحابه على المسلمين قاطبة، لأنّه ضحى من أجلهم، من أجل دينهم ومعتقدهم.

٣- الشهادة هي الطريق الوحيد لإحياء شجرة الإسلام وقلوب المسلمين وضمائرهم، ولمواجهة الأفكار المنحرفة والغزو بأشكاله المختلفة[١٩].

النظرية الثانية: إقامة الحكومة

ذكر غير واحد من علمائنا المتقدمين كالشيخ المفيد[٢٠] والشريف المرتضى[٢١] أنّ الهدف من ثورة الحسين عليه السلام هو إقامة الحكومة الإسلامية التي تطبق العدل وحدود الشريعة[٢٢]، وكذلك جمهور العامة حيث صرح ابن كثير في تاريخ الإسلام وابن الجوزي بذلك[٢٣]. ولعل الوجه فيما ذهبوا إليه أنّهم نظروا إلى ثورة الحسين عليه السلام بنظرة تأريخية بحتة من دون الأخذ بالاعتبار البعد العقائدي في حركته عليه السلام. والشواهد على هذه النظرية:

١ـ قول الإمام الحسين عليه السلام: «**وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أوْلى بالحقّ، ومَن رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين**»[٢٤].

٢ـ ورد في كتابه عليه السلام لوجهاء أهل البصرة: «**ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك الحقّ**

المستحقّ علينا... وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنَّة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي وتُطيعوا أمري أهدِكم سبيل الرشاد»[٢٥].

٣ـ ورد في كلامه عليه السلام لأهل الكوفة: «**فلعمري، ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله**»[٢٦].

الظاهر من هذه النصوص أنّ الحسين عليه السلام يسعى لإقامة الحكومة الإسلامية على كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله؛ لأنّه أحق وأعرف بالحكم من غيره، وليرجع السنّة ويميت البدعة[٢٧].

المبحث الثاني: مناقشة كلا النظريتين

النقطة الأولى: بيان المنهج في المناقشة:

١ـ يشترط في الهدف المتصور لثورة سيد الشهداء عليه السلام أنْ يكون متحققاً في الحال أو الاستقبال، لا أنْ يكون هدفاً غير قابل للتحقيق؛ لأنّه خلاف الحكمة الإلهية من التخطيط الإلهي لثورة سيد الشهداء عليه السلام[٢٨].

٢ـ التمييز بين المقصد والمقصود، فليس بالضرورة أن يكون ما يقصده الإنسان يكون هدفه ومقصوده[٢٩].

٣ـ التمييز بين الهدف والنتيجة المترتبة عليه، فليس صحيحاً اعتبار ما يترتب على الشيء هدفاً له.

النقطة الثانية: ملاحظات على نظرية الشهادة:

١ـ فرق بين كون الإمام الحسين عليه السلام قاصداً للشهادة وبين كون الشهادة مقصودة له، فواقعة عاشوراء انتهت بشهادة الحسين عليه السلام فالشهادة مقصد ولكنّ هذا لا يعني أنّها مقصودة وهدف له، فقد يكون مقصوده أمراً آخراً، وهذا نظير الذي يسافر إلى بلد للتجارة أو الزيارة فإنّ المدينة مقصده والزيارة والتجارة مقصوده وهدفه. نعم، بناءً على هذا التفريق يمكن القول بأنّ إحياء السنّة والحكومة مقصودة له عليه السلام وتكون الشهادة مقصداً له[٣٠].

٢ـ ما يحصل عليه الموالون والباكون على الحسين عليه السلام من الثواب الجزيل والتطهير وغفران الذنوب هو من النتائج والثمار لإحياء أمر الحسين عليه السلام، وليس هدفاً لثورته كما هو التفسير الثاني للشهادة.

٣ـ يمكن القبول بنظرية الشهادة بعد تتميمها بعبارة وردت في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يوم الأربعين «**وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة**»[٣١]، فالواقع الذي كان يعيشه الإسلام والمسلمين -حيث غيّر الحكمُ الأموي معالمَ الدين وحرَّفوا علومَه فأصبحت النّاس في تيه وضلال- لكي يصلحه الإمام الحسين عليه السلام كان يحتاج إلى استنقاذ الناس من الضلالة والحيرة وليس بحاجة إلى مجرد الشهادة فقط[٣٢].

النقطة الثالثة: ملاحظات على نظرية الحكومة:

١ـ لا يمكن ثبوتاً أنْ يكون هذا هو هدف الحسين عليه السلام؛ لاختلال الأمر الأول المتقدم -يشترط في الهدف أنْ يكون متحققاً في الحال أو الاستقبال-لأنّ الظروف الحاكمة في ذلك الوقت من ضعف الإيمان وتسلط الأمويين وأتباعهم وخوف

الناس منهم وغيرها من الأمور توجب عدم المصير إلى هذا الهدف، خصوصاً من قائد إلهي يسير وفقاً لخطة إلهية، وإنْ شئت قلت: يلزم من هذا الهدف ضعف التخطيط الإلهي للثورة الحسينية من جهة الأهداف والإجراءات التي لا تتوافق مع الواقع المعاش ولا مع حجم التضحية التي قدمها سيد الشهداء عليه السلام[٣٣]، وملاحظة كلمات الإمام الحسين عليه السلام وخطة نهضته تجدها غير مستهدفة لإقامة الحكومة.

٢ـ مع التنزّل بإمكان ذلك، إلا أنّه لا شاهد عليه من كلمات الإمام الحسين عليه السلام، نعم كل ما هنالك تصريح من قبله بأنّه الأحق بالخلافة وأنّه يدعو الناس لإحياء سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون هدفه إقامة الحكومة[٣٤].

٣ـ مع التنزّل أيضاً، ما هو توجيه الكلمات الكثيرة لسيد الشهداء عليه السلام التي تحدث فيها عن الشهادة؟ فإنّها واضحة صريحة في أن مقصوده الشهادة.

النتيجة

بعد استعراض ما ذكر من كلمات حول هاتين النظريتين، يمكن القول بأنّ الهدف الأوسط -مقصده- لثورته عليه السلام هو الشهادة بمقتضى النصوص المتقدمة وغيرها، وأنّ الهدف الأقصى والمقصود هو إصلاح هذه الأمة بمقتضى ما ورد عنه عليه السلام: «**وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله**».

والله تعالى العالم، وما هذا إلا احتمالات ذكرت في حدود التفكير البسيط والمتواضع وأسأل الله العفو، ومن سيدي أبي عبدالله عليه السلام المعذرة.

الهوامش:

(١) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٣٥٠.

(٢) الإصلاح الحسني ٨ :٤٢، آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني.

(٣) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٣٦٧.

(٤) الملحمة الحسينية.

(٥) تاريخ دمشق ١٤: ٢٣٩. وتهذيب الكمال ٦: ٤٤٠.

(٦) فاجعة الطف السيد محمد سعيد الحكيم ١٤.

(٧) الكافي ١: ٢٦٢.

(٨) الإصلاح الحسني ٨ :٤٠، آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني.

(٩) المجالس الفاخرة ص ٩٤.

(١٠) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٣٥١.

(١١) محمد بن يحيى والحسين بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن علي بن الحسين بن علي، عن إسماعيل بن مهران، عن أبي جميلة، عن معاذ بن كثير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن الوصية نزلت من السماء على محمد كتاباً، لم ينزل على محمد صلى الله عليه وآله كتاب مختوم إلا الوصية فقال جبرئيل عليه السلام: يا محمد هذه وصيتك في أمتك عند أهل بيتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أي أهل بيتي يا جبرئيل؟ قال: نجيب الله منهم وذريته، ليرثك علم النبوة كما ورثه إبراهيم عليه السلام وميراثه لعلي عليه السلام وذريتك من صلبه، وكان عليها خواتيم، قال: ففتح علي عليه السلام الخاتم الأول ومضى لما فيها ثم فتح الحسن عليه السلام الخاتم الثاني ومضى لما أمر به فيها، فلما توفي الحسن ومضى فتح الحسين عليه السلام الخاتم الثالث فوجد فيها أن قاتل فاقتل وتقتل واخرج بأقوام للشهادة لا شهادة لهم إلا معك، قال: ففعل عليه السلام، فلما مضى دفعها إلى علي بن الحسين عليهما السلام قبل ذلك، ففتح الخاتم الرابع فوجد فيها أن اصمت وأطرق لما حجب العلم، فلما توفي ومضى دفعها إلى محمد بن علي عليهما السلام ففتح الخاتم الخامس فوجد فيها أن فسّر كتاب الله تعالى وصدق أباك وورث ابنك واصطنع الأمة وقم بحق الله جل جلاله وقل الحق في الخوف والأمن ولا تخش إلا الله، ففعل، ثم دفعها إلى الذي يليه. قال: قلت له: جعلت فداك فأنت هو؟ قال: فقال: ما بي إلا أن تذهب يا**

معاذ فتروي علي. قال فقلت: أسأل الله الذي رزقك من آبائك هذه المنزلة أن يرزقك من عقبك مثلها قبل الممات. قال: قد فعل الله ذلك يا معاذ، قال: فقلت: فمن هو جعلت فداك؟ قال: هذا الراقد -وأشار بيده إلى العبد الصالح وهو راقد» الكافي ٣: ٢٧٦ حديث ١٣٦٠.

(١٢) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٣٥٣.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص١٥٧، ح٢٠.

(١٥) ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص٢٩.

(١٦) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٣٢.

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٠٨.

(١٩) الإصلاح الحسني ٨ :٤٢، آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني.

(٢٠) المسائل العكبرية ص٦٩.

(٢١) تنزيه الأنبياء ص١٧٥.

(٢٢) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام٢: ٣٥٧.

(٢٣) المصدر السابق٢: ٣٦٢.

(٢٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢٥) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٢٦٦.

(٢٦) المصدر السابق: ص٢٦٢.

(٢٧) الإصلاح الحسني٨ :٥٣، آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني.

(٢٨) أضواء علىٰ ثورة الحسين عليه السلام السيد الشهيد محمد صادق الصدر، ٨٠.

(٢٩) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام٢: ٣٤٨.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجّد: ص٧٨٨.

(٣٢) الإصلاح الحسني٨ :٤٩، آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني.

(٣٣) المصدر السابق، أضواء علىٰ ثورة الحسين عليه السلام السيد الشهيد محمد صادق الصدر، ص٨٠.

(٣٤) المصدر السابق.

نظرة جديدة لحركة مسلم بن عقيل..
وظيفته في الكوفة! وأين ذهب من بايعوه؟

الشيخ محمد علي الخاتم

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضّوء على بعض التّساؤلات المتعلّقة ببيان وظيفة مسلم بن عقيل في الكوفة، وعدد الّذين بايعوه؟ وأين هم خلال تحرّكه في الكوفة، بل حتى ما بعد تحرّكه؟ وأينهم من مشاركة الحسين عليه السلام؟

وقد تطرّق الكاتب لهذه النّقاط وأجاب عنها بالاستعانة بالشّواهد والأدلّة الرّوائية والتّاريخية في محاولة لدراسة الواقع الكوفيّ بموضوعية.

مقدّمات تمهيديّة:

المقدّمة الأولى: الغرض من هذا البحث

ليس الغرض من هذا البحث هو الدّفاع عن أهل الكوفة وتبرأة ساحتهم بل الوقوف على قراءة منصفة للأنصار الخلّص الموجودين فيها، وكذا قراءة السّاحة الّتي خاض فيها مسلم بن عقيل حربه.

فعندما نطّلع على هذا المقطع التاريخي المهمّ وهو مقتل مسلم بن عقيل رضي الله عنه في الكوفة يرفع تساؤلاً كبيراً جداً وهو من قتل مسلم بن عقيل؟ وهنا نجد جوابين بارزين:

الجواب الأوّل:

أحد هذين الجوابين مفاده أنّ مسلم قتله وخذله شيعة الحسين عليه السلام ومَن كاتب وبايع الحسين عليه السلام وبايع مسلماً فيما بعد، ولذا نجد مسلماً قد قُتل وسط الكثير ممّن بايعوه وحيث ألقي من على القصر جثّة مفصولة الرّأس ولم يحرّك أحدٌ ساكناً، بل جُرّ مسلم وهو رسول الحسين عليه السلام وهانئاً -وهو الوجيه المعروف في الكوفة ومن الموالين للحسين وأمير المؤمنين عليهما السلام- في الأسواق ولم يستنقذ أحدٌ جثّتيهما. وهذا يكشف عن خذلان كبير من النّاس ومؤامرة كبرى قامت بها السّلطة وعدد كبير من النّاس حيث دعوا الإمام وبايعوا مسلماً ولم ينصروه مع أمر الإمام لهم بالنّصرة. ومن الشّواهد على هذا:

انحصار الرّسائل الدّاعية من الكوفة دون غيرها من البلاد تدعوا الإمام الحسين عليه السلام للعون على الظّالم.

معروفيّة أهل الكوفة بالغدر والخيانة منذ زمان الإمام علي عليه السلام وابنه الإمام الحسن عليه السلام، وكلام الإمام زين العابدين عليه السلام والسيّدة زينب عليها السلام خير تصريح على ذلك[١].

ثورة التّوّابين الّتي انطلقت من الكوفة إنّما كانت بسبب تخاذل الكوفيّين مع مسلم والإمام الحسين عليه السلام. وغيرها.

الجواب الثّاني:

وأمّا الجواب الآخر: وهو براءة الشّيعة أو غالبهم من قتل مسلم بن عقيل رضوان الله عليه ومن بعده الحسين عليه السلام وأنّ ما جرى لم يصدر من الشّيعة بل هو صادر من يزيد وأتباعه.

وهذا الجواب لا ينكر أنّ مسلم قد قُتل في الكوفة وأنّ الحسين عليه السلام توجّه إليها، كما أنّه لا ينكر أنّ -جُلّ- كبار قادة الجيش المحارب للحسين عليه السلام كان من الكوفة، أمثال: شبث بن ربعي وغيرهم. إلّا أنّه يرى أنّ ما ذكر ليس إلّا ظنون وتشويهات تاريخيّة أسّسها الأمويّون وسار عليها أتباعهم لغرض النّيل من التّشيّع بشتّى الطّرق والمستويات.

ويستدلّ هؤلاء بعدّة أدلّة منها:

أنّ خطاب الإمام الحسين عليه السلام الذّام بأنّهم دعوه ونصروه لم يكن موجّهاً إلى شيعته بل إلى شيعة آل أبي سفيان، حيث كان يكرر في غير موضع (يا شيعة آل أبي سفيان) في التفاتة منه عليه السلام في بيان الجهة المقابلة إليه وتحديدها.

أنّ القُوّاد المعروفين لم يكونوا من المنتمين إلى مذهب التّشيّع وإن كان بعضهم من الكوفة كشبث بن ربعي والحصين بن نمير. ويؤيّد هذا ما ورد من كلامٍ في

جيش عمر بن سعد يفيد أنّهم لا يهوون عليّاً بل فيهم من جاء مطالباً بدم عثمان[٢].

أنّ هناك ضغطاً كبيراً مورس على الشّيعة في الكوفة على نحو التّحديد مما أفرز هذه النّتيجة السّلبيّة.

لم تكن رسائل الكوفيين هي الدّافع الأساس لخروج الحسين عليه السلام بل أساس خروجه هو ما بيّنه في أوّل بيان له عند بيت الله الحرام وهو إصلاح أمّة الرّسول والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، أمّا هذه الرّسائل فقد ساهمت في تحديد الوجهة. وغيرها.

وعلى هذا الأساس ندخل باحثين في بطون الكتب المعتبرة المختلفة ناظرين نظرة فاحصة في النّصوص الواردة من كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام والتّدقيق فيها وتحليلها -وليس تحميلها ما لا تتحمّل- واستنطاق المصادر التّاريخية وغيرها الّتي تحدّثت عن الكوفة جغرافيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً فضلاً عن الكتب التّاريخيّة الّتي نقلت حادثة مسلم بن عقيل رضوان الله عليه علّنا نصل إلى الصّورة الّتي نطمئنّ بوقوعها ونقلها إلى الأجيال.

المقدمة الثّانية: نقطة أساس

لا بدّ من أن ننطلق من نقطة نعتبرها أساساً لا يمكن إغفالها بحالٍ ألا وهي: أنّ القائم على هذه الثّورة هو الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو الإمام المعصوم المفترض الطّاعة، وأنّه لا يمكن أن يقع منه التّصرّف الخاطئ أو التّقصير أو التّساهل وعدم دراسة الواقع دراسة مستوفية. وإن كانت هذه النّقطة سوف نتعمّد إغفالها في بعض الموارد بغية دراسة للحدث في مضانّه التّاريخيّة ونرى إلى أين يأخذ بنا البحث.

المقدّمة الثّالثة: تجميع القرائن

من الرّكائز المعتمدة في قراءة التّاريخ ودراسته هو عنصر تجميع القرائن وذلك لتعكّر صفو التّاريخ بالكذب والدّسّ والتّزوير، ولم يكتب بالصّفاء المطلوب لا سيّما إذا ما التفتنا إلى أنّ كثيراً منه كتبته أيدي السّلطات والمنتفعين وقلّ من نقل التّاريخ بموضوعيّة... إلّا أنّه يبرز هنا وهناك وجه للحقّ وصورة أقرب إلى الواقع ببركة الاعتماد على جمع القرائن وهي كلّ معلومة لها دخالة في إثبات الأمر المبحوث عنه.

فكلّ قرينة تشكّل قرينة إثبات أو نفي ناقصة تزداد نسبتها كلّما ضممنا إليها قرائن أخرى. وإذا وجدت الرّوايات المسنَدة المفصّلة للحدث فلا شكّ في أنّها تُقدَّم وتقطع النّزاع ومع هذا لا بدّ من دراسة هذه الرّوايات وعدم الاستعجال في قبولها أو رفضها.

مقدّمة البحث

مسلم بن عقيل رضوان الله عليه ثقة الإمام الحسين عليه السلام وسفيره إلى الكوفة، عرف بحنكته وبطولته في ميادين الجهاد وذكائه وقدرته الفائقة على إدارة الحروب والتّخطيط لها، وكانت حركته مهمّة جداً في مسير الحسين عليه السلام نحو كربلاء وثورته المباركة.

وخير ما قيل فيه -بعد كلام أهل البيت عليهم السلام- أنّه: "سيّد السّعداء، وأوّل الشّهداء، وسفير سيّد الشّهداء عليه السلام **إلى أهل الكوفة، وجلالته لا يفي بها قلم، ولا يحيط بها رقم**"[٣]، وأنّ "**.. جلالة مسلم بن عقيل وعظمته فوق ما تحويه عبارة..**"[٤].

ويكفي مسلم فخراً وعلوّ قدرٍ أنّه ابن حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه ناصر الحسين عليه السلام وأنّ الله يُسخّر له المؤمنين ليبكوا عليه كما ورد في الخبر، عن ابن

عباس، قال: قال عليعليه السلام لرسول اللهصلى الله عليه وآله: «**يا رسول الله إنّك لتحبّ عقيلاً؟ قال: إيْ والله إنّي لأحبّه حبّين، حبّاً له وحباً لحبّ أبي طالب له، وإنّ ولده مقتول في محبّة ولدك فتدمع عليه عيون المؤمنين، وتصلّي عليه الملائكة المقربون. ثمّ بكى رسول اللهصلى الله عليه وآله حتى جرت دموعه على صدره، ثم قال: إلى الله أشكو ما تلقى عترتي من بعدي**»[٥].

وقد خرج مسلم رسولاً عن الحسينعليه السلام من مكّة إلى أهل الكوفة في منتصف شهر رمضان سنة ٦٠ للهجرة معه أربعة من أصحابه[٦]، ووصلها في الخامس من شهر شوال ونزل -على الأشهر من الأقوال- في دار المختار بن أبي عبيد الثقفي ثمّ تحوّل عنها إلى دار هاني بن عروة وكان هذا التّحوّل بعد أن تبدّل والي الكوفة من النّعمان بن بشير إلى عبيد الله بن زياد، وبقي فيها حتّى استشهاده في اليوم التّاسع من ذي الحجّة سنة ٦٠ للهجرة، أي: بعد يوم واحد من تحرّكه العسكريّ، وبهذا يكون عدد أيامه الّتي قضاها في الكوفة هي: شهران وأربعة أيّام، فقضى فيها شهيداً محافظاً على مبادئ الحسينعليه السلام وقد أثبت على مرّ التّاريخ أنّه الاختيار الأصلح من الإمام لهذه المهمّة الصّعبة.

كان مسلم بن عقيل حاضراً في الكوفة بكلّ قوّة وبسالة في الجنبتين: الرّوحيّة والقتاليّة:

* أمّا الرّوحيّة: فلم يكن أمامه إلّا الله تعالى حتّى آخر لحظات حياته بالرّجوع والتّوسّل إلى الله تعالى، ولا سيّما في ليلته الأخيرة حيث حاكى سلوك أنصار الحسينعليه السلام في إحياء ليله بالعبادة والتّخضّع إلى الله تعالى.

* وأما قدرته القتاليّة فيكفي أنّه أجبر محمّد بن الأشعث أن يطالب بكتيبة إضافيّة لانكسار الكتيبة على يد مسلم وحدَه بينما هم رجّالة وخيّالة يبلغ عددهم السّبعين[٧]، ومن قدرته أنّه يحمل الرّجل ويرمي به فوق البيت[٨] كما ورد في بعض

كتب السّير والأخبار، ولا غضاضة في هذا أبداً بعد معرفة معنى البيت في ذلك الزّمان وهو: "اسم لمسقفٍ واحدٍ جعل ليبات فيه، ومنهم من يزيد له دهليزاً"[٩] وهو يستعمل لبيات فيه "والدار لا تسمّى بيتاً لأنّها مشتملة على بيوت، والحجرة هي الموضع المنفرد من الدّار"[١٠] وهذا لا يعني أنّه كان يرميهم على أسطح الدّور -كما يتصور الكثير- فالبيت غير الدّار كما اتّضح، وعليه لا ينبغي الإشكال -جهلاً- بأنّ من ينقل مثل هذه الأحداث مبالغ أو كاذب[١١].

في هذه الصّفحات يراد تسليط الضّوء على بعض التّساؤلات الّتي مرّت بحياة هذه الشخصيّة الفذّة والفحص عن ما يمكن به رفع الغموض عنها.

الفصل الأوّل: تحليل لحركة مسلم من الانطلاق إلى البيعة

المبحث الأوّل: حركة مسلم نجاح أم فشل؟ وما هي وظيفته؟

يتصوّر البعض بأنّ حركة مسلم بن عقيل رضوان الله عليه كانت حركة ثورة وقتال! فلذا يأتي هذا البعض وينال من مسلم وحركته وقد يصف تحرّكه بالفاشل؛ لأنّه لم يكن ليؤدّي دوره المطلوب!

ولَعمري كيف يجيز -هذا البعض- لنفسه وصف مسلم بهذا الوصف وهو ثقة الحسين عليه السلام!

وفي المقابل يطرح آخرون بأنّ مسلم بن عقيل رضوان الله عليه كانت وظيفته هي استطلاع الأخبار وحسب؛ فيَعترضون عليه بعد ذلك بأنّ تحرّكه لم يكن بإذن من الإمام عليه السلام.

السّؤال الّذي نريد بحثه هنا هو: ما هي وظيفة مسلم بن عقيل من خلال تحرّكه هذا؟

الجواب: بالنّظر إلى رسالة الحسين عليه السلام الّتي حملها مسلم رضي الله عنه وغيرها من الرّسائل والكلمات فإنّها تشير إلى أكثر من وظيفة كما سنقف على ذلك بعد عرضها لنستخلص منها ما يمكن استفادته -من دون لَيٍّ أو تكلّف- لنقف على حقيقة تحرّكه:

وهذه هي الرّسالة الّتي أرسلها الإمام الحسين عليه السلام بيد مسلم بن عقيل رضي الله عنه قد قال فيها: «**بسم الله الرّحمن الرّحيم. من الحسين بن علي إلى الملأ من المسلمين والمؤمنين.**

أمّا بعد: فإنّ هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الّذي اقتصصتم وذكرتم. ومقالةُ جلّكم: أنّه ليس علينا إمام فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحقّ. وإنّي باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، فإن كتب إليّ أنّه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثلما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إنشاء الله.

فلعمري ما الإمام إلّا الحَكَم[١٢] **بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفسه على ذات الله، والسّلام**»[١٣].

وفي الطّبريّ عن ابن مخنف إضافة «**وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم**»[١٤] بعد كلمة وثقتي من أهل بيتي، مع اختلاف يسير في بعض العبارات. واختصرها ابن الجوزيّ[١٥].

وفي رواية الفتوح تقارب في الألفاظ إلّا أنّ التّعابير الّتي وجدت فيها تدلّل على أنّها رسالة لاحقة للأولى فتلك عبّر فيها «إنّي باعث» وهنا يخبر عن بعثه هذا «وقد بعثت» وغيرها من الشّواهد، وإن كانت نفس الرّسالة ففيها زيادة تستحق الدّراسة.

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين، سلام عليكم.

أمّا بعد، فإنّ هانئ بن هانئ وسعيد بن عبد الله قدما عليّ بكتبكم فكانا آخر مَن قدم عليّ من عندكم، وقد فهمت الّذي قد قصصتم وذكرتم ولست أقصر عمّا أحببتم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام، وقد أمرته أن يكتب إليّ بحالكم ورأيكم ورأي ذوي الحجى والفضل منكم، وهو متوجّه إلى ما قبلكم إن شاء الله تعالى والسلام ولا قوّة إلّا بالله، فإن كنتم على ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم فقوموا مع ابن عمي وبايعوه وانصروه ولا تخذلوه فلعمري! ليس الإمام العادل بالكتاب والعادل بالقسط كالذي يحكم بغير الحقّ ولا يهدي ولا يهتدي، جمعنا الله وإياكم على الهدى وألزمنا وإياكم كلمة التّقوى، إنّه لطيف لما يشاء – والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١٦].

وبعد عرض الرّسالتين أو الرّسالة ذات الصّيغ نستخلص منهما وظائف ثلاث كانت موكّلة إلى مسلم بن عقيل وعليه تنفيذها، وهي (الاستطلاع وإرسال نتائجه إلى الإمام عليه السلام، أخذ البيعة من النّاس للإمام الحسين عليه السلام، التّعبئة وتهيئة الأرضيّة لقدوم الإمام وثورته المباركة)، وتفصيلها:

الاستطلاع ومعرفة الرّأي العامّ، كما ورد في نصّ الرّسالة الأولى من الإمام عليه السلام: «فإن كتب إليّ أنّه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله» وفي الرّسالة الثّانية قوله عليه السلام: «وقد أمرته أن يكتب إليّ بحالكم ورأيكم ورأي ذوي الحجى والفضل منكم»، ومثلها ما نقله المسعوديّ "فأرسَل بابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة، وقال له: سر إلى أهل الكوفة فإن كان حقّاً ما كتبوا به عرِّفني حتّى ألحق بك"[١٧].

فهو مأمور باستطلاع حال النّاس وأنّ رأيهم هل لا زال على نصرة الحسين عليه السلام أم تراجعوا عنه، واستحساس جدّية الطّلب واستعداد النّاس لذلك.

وهذه الوظيفة قد أنجزها على أتمّ وجه، فما إن وصل إلى الكوفة حتّى جلس في مجالس كبار القوم من الشّيعة في جلسات متعدّدة وأماكن متفرّقة يقرأ على من أرسل الكتب إلى الإمام الحسين عليه السلام يستقدموه فيها، فكان يقرأ كتاب الإمام الحسين عليه السلام فيبكون كلّما سمعوا كلام الإمام[١٨] ويبايعونه.

وبعد أن وصل عدد المبايعين ثمانية عشر ألفاً أرسل برسالته إلى الإمام الحسين عليه السلام وقال فيها: "**أمّا بعد فإنّ الرّائد لا يكذب أهله وقد بايعني من الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجّل في الإقبال حيث يأتيك كتابي فإنّ النّاس كلّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسّلام**".

هذه الرّسالة كتبها بعد أخذ البيعة ليس من الجميع بل كتبها لمّا بلغ العدد ثمانية عشر ألفاً، وكان بلوغ هذا العدد خلال شهر تقريباً لأنّه أرسل هذه الرّسالة قبل مقتله بسبع وعشرين ليلة[١٩]، ولهذا لا يمنع من أن يبايعه ضعفهم بعد إرساله الرّسالة.

ولغة الرّسالة فيها طلب تعجيل من الحسين عليه السلام بالإقبال عليهم لما رأى مسلم رضوان الله عليه من حال القوم فإنّهم يبايعونه جماعاتٍ جماعات وما أن يقرأ عليهم رسالة الحسين عليه السلام يبايعونه ودموعهم تتجارى[٢٠] شوقاً إلى الحسين عليه السلام.

أخذ البيعة للإمام الحسين عليه السلام وتهيئة الأرضيّة لقدومه المبارك حتّى لو استدعى حمل السّلاح، فقد ورد عنه عليه السلام: «**فإن كنتم على ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم فقوموا مع ابن عمي وبايعوه وانصروه ولا تخذلوه**» والنّصّ بيّن وقد أخذ مسلم البيعة منهم.

تعبئة وتنظيم الجند لقدوم الإمام الحسين عليه السلام حيث أمرهم بالقيام معه ونصرته وعدم خذلانه... كما في النّص السّابق، فنصرة مسلم بن عقيل رضوان الله عليه تبدأ

بالبيعة له من الجميع، ونصرته في أيّ تحرّك يريد القيام به، وهذا يعني أنّ مسلم بن عقيل مجاز حتّى في التّفاصيل والخطط البديلة -كما يمكن أن يقال- فلذا ثار سريعاً عندما استدعى الأمر ذلك وكان معه من كان، إلّا أنّ الخذلان ممن خرج معه كان بارزاً حتّى صار وحيداً فيما لا يزيد على اليومين فقتل شهيداً وحصل على الشّهادة الّتي بشّر بها من الإمام الحسين عليه السلام حيث قال له: «**إنّي موجّهك إلى أهل الكوفة، وسيقضي الله من أمرك ما يحبّ ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشّهداء، فامض ببركة الله وعونه حتى تدخل الكوفة، فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها، وادع النّاس إلى طاعتي، فإن رأيتهم مجتمعين على بيعتي فعجّل عليَّ بالخبر حتّى أعمل على حساب ذلك إن شاء الله تعالى**» ثمّ عانقه وودّعه وبكيا جميعاً[٢١].

وكما نلاحظ أنّ هذه الأهداف كلّها قد تحققت ولم يقصّر مسلم في أحدها حتّى ختم الله له بالشّهادة ومضى ولم يلن أبداً.

ولعلّ هناك أهدافاً أخرى لم تطلعنا النّصوص عليها، أو لم يسعفنا الوقت للتّنقيب عن نصوصها.

المبحث الثاني: من بايع مسلماً وكم ومتى؟

أقلّ عدد نقل في التّاريخ هو اثنا عشر ألفاً وأكثره ثلاثون ألفاً كما هو المعروف![٢٢] ومن هنا قد يعترض بأنّ هذا العدد فيه مبالغة من النّاقلين أو خطأ في التّقدير.

وقد يُشكَل: بأنّ عدد أهل الكوفة لا يصل إلى هذا المقدار فكيف بويع مسلم بهذا العدد!

أوّلاً: ذُكر في مستهلّ البحث أنّ مسلم بن عقيل بقي أربع وستّين يوماً تقريباً

وهذه مدّة كافية لأنْ يباعه حتّى ثلاثون ألفاً-لا اثنا عشر ألفاً كما عن أقلّ النّقولات-، لا سيّما إذا ما لا حظنا أنّ طريقة البيعة كانت بصورة جماعيّة؛ فكانت القبائل تارة تأتي، وأخرى المجموعات، وثالثة الأفراد المجتمعين، وهكذا يدخل فوج ويخرج آخر.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذا الكلام هو مراعاة لأسوأ الاحتمالات فما بالك بالقول بأنّ مبايعة رأس القبيلة تعني مبايعة أفراد القبيلة بأسرهم ممّا يعني عدم الحاجة إلى حضور كلّ الأفراد، فإذا كان في القبيلة عشرة آلاف مقاتل وجاء رأس القبيلة وبايع فهذا يعني أن عشرة آلاف مقاتل قد بايعوا، وإن لم يحضر أحدهم، ويضاف إلى هذا أنّه كان لمسلم بن عقيل من الأصحاب من يأخذ البيعة له[٢٣] وهذا يعني عدم الحاجة إلى لقائهم مسلم بالتّحديد لأخذ البيعة.

ولذا كان تحرّك مسلم في بداية الأمر سرّيّاً ثمّ تحوّل إلى العلن، وكان من أسباب هذا التّحوّل هو تردّد الوفود بصورة بارزة ثمّ رجع الأمر سرّياً بعد مجيء بن زياد إلى الكوفة.

ثانياً: من الخطأ الحكم على واقع تاريخيٍّ من دون الرّجوع إلى ظروفه في تلك الحقبة من الزّمن!

الكوفة اليوم بقعة جغرافيّة أصغر من النّجف تقريباً ويقطنها ٢٣٠ ألف تقريباً[٢٤] بينما كانت عند تأسيسها في السّنوات الأولى للهجرة[٢٥] ما بين ١٥ ألف إلى ٢٠ ألف نسمة كلّهم من المقاتلة ولم تكن معهم زوجاتهم ولا أولادهم لأنّ الكوفة عند أوّل تأسيسها كانت معسكراً كما هو الحال في سامراء وغيرها، ولم يكن يسمح لهم بالبناء في هذه المعسكرات[٢٦] وما سمح لهم بالبناء إلّا بعد سنوات قليلة من العسكر، وعندها نزحت عوائلهم إليهم، وفي زمن أمير المؤمنين عليّ بن

أبي طالب عليه السلام ازداد عدد سكّانها بطبيعة الحال كما أنّ رقعتها الجغرافيّة اتّسعت بصورة كبيرة جدّاً أكثر بكثير ممّا هي عليه الآن؛ لأنّه في عام ٣٦هـ اتّخذها الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام عاصمة للدّولة الإسلاميّة ممّا جعل من ١٤٩ من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله -على الأقلّ- يقطنونها مع الأمير عليه السلام، وهذا ممّا ساهم في هجرة الكثير الكثير من النّاس وطلاب العلم وغيرهم إليها، ممّا ساعد في اتّساع رقعتها الجغرافيّة وازدياد عدد سكّانها...

وأمّا حالها في سنة ستّين للهجرة -أي: بعد أكثر من أربعين عاماً من تأسيسها مع لحاظ ما تقدّم- فلا شكّ في ازدياد عدد سكّانها كما أنّ التنقّل منها وإلى ما جاورها من البلدان قد صار ميسوراً جدّاً؛ فلا غضاضة لو قيل بأنّ من بايع مسلماً ثلاثون ألفاً فضلاً عن القول بأنّ من بايعه اثني أو ثمانية عشر ألفاً؛ فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان قد خرج له من الكوفة لحرب الجمل تسعة آلاف رجل وروي أنّهم عشرة آلاف[٢٧] وكان هذا العدد مع الخذلان والتّخذيل من أبي موسى الأشعري ممّا يعني أنّ في الكوفة أكثر بكثير من هذا العدد الّذي خرج لنصرة الأمير عليه السلام... وكذا لمّا رجع من حرب صفّين وصل إلى قرية بظهر الكوفة تسمّى (حروى) انشقّ من جيش الإمام عليه السلام اثنا عشر ألفاً[٢٨] ممّن عرفوا فيما بعد بالخوارج... وكان يقال: إنّه عليه السلام إذا أخرج جيشاً من الكوفة وكان قرابة تسعين ألفاً فإنّ أسواقها لا تتأثّر!! فما بالك بسنة ستّين للهجرة.

ولا يفوتنا القول بأنّ من بايع مسلماً لم يكن الجميع من سكنة الكوفة بل كان بعضهم من أطرافها وضواحيها وبعضهم من المدن المجاورة حيث كانوا يبايعونه ويرجعون انتظاراً لقدوم الحسين عليه السلام.

الفصل الثّاني: أين المبايعون لمسلم!

أين ذهبت هذه الأعداد عندما ثار مسلم، وأينهم عن الحسين بن علي عليه السلام؟

عندما وصل مسلم إلى الكوفة، توالت الأخبار إلى قصر يزيد بشأن مسلم واستيلائه على قلوب الكوفيين ومن حولها والكمّ الهائل من المبايعين له فجاء عبيد الله بن زياد للسّيطرة عليها؛ فلو سقطت الكوفة بيد مسلم فإنّ غيرها أسهل في السّقوط؛ لثقلها ومكانتها، إلّا أنّ ابن زياد فعل جملة من التّدابير ساهمت مع غيرها من الأسباب والظّروف في تقليل العدد إلى أربعة آلاف مقاتل عند تحرّك مسلم بن عقيل[٢٩] وهذا هو العدد الذي اتفقت عليه كلمة المؤرخين.

فمن هذه الأسباب:

١ـ التّهديد العلني الصّريح بالاعتقال والتّصفية لكلّ من يساند مسلم ويخرج على أوامر ابن زياد الّتي تعكس أوامر يزيد بن معاوية، ففي أوّل خطبة له في مسجد الكوفة كان فيما قال: "... **فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ! وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليُبقِ امرؤ على نفسه! الصّدق ينبئ عنك لا الوعيد**"[٣٠].

عبارة (الصّدق ينبئ عنك لا الوعيد) هو مثل يُضرب عند العرب، وهو يعني: أنّما يَكشف عن صدقك هو أنّ الجانب العملي من خلال أفعالك، أمّا أن تَعِد ولا تنفّذ ما تعد به فهو لا ينبئ عن صدقك أبداً، وفي هذا المثل الّذي ختم به ابن زياد حديثه إلزام للنّاس بضرورة اتّخاذ الموقف العمليّ في صالح السّلطة وهذا يعني تجنيد كلّ من كان في الكوفة ومن يخالف سيكون مداناً! ومن هنا نعرف كيف أنّه نشر الرّعب في قلوب الكوفيّين حتى تفشّت فيما بينهم حالة انعدام الثّقة

فكلٌّ يبحث عن سلامة نفسه، سلامة عياله.

ولذا كانت ردّة فعل مسلم هي أنّه بعد أن سمع مقالة ابن زياد انتقل من دار المختار إلى دار هانئ[٣١] وما كان من الشّيعة إلّا التّردّد على مسلم سرّاً وتواصوا فيما بينهم بالكتمان؛ وذلك لأنّ الشّبهة في المختار أكبر منها في هانئ لكونه حجازياً ومعارضاً للأمويّين، بينما هانئ أقرب ببعض الوجوه إلى السّلطة وإن كان متولّيّاً للإمام علي عليه السلام، فهو أبعد للشّبهة.

وردّة فعل أتباع السّلطة هي التّعاون التّامّ مع أوامر ابن زياد وكانت أوّلها رفع قوائم تضمّ أسماء من تنطبق عليهم جملة من المواصفات وهي:

ـ **العرفاء**: وهم المسؤولون على مجموعة من النّاس كقبيلةٍ أو أقلّ. وهم الواسطة بين الدّولة وبين هذه الجماعة وظيفتهم رفع أسماء المواليد الجدد والوفيات لإدخالهم أو حذفهم من قوائم العطايا، وتوزيع العطايا على النّاس، وغيرها من الصّلاحيات الّتي منها ضبط أيّ تحرك على خلاف مزاج السّلطات.

ـ **من كان من طلبة يزيد**، أي: كلّ من يبحث عنه يزيد ليعاقبه.

ـ **من كانت آراؤهم على خلاف مزاج السّلطة**، وعبّر عنهم بالّذين رأيهم رأي الخلاف والشّقاق.

ومن لم يمتثل هذه الأوامر، أو فعل الخلاف فلا يلومنّ إلّا نفسه وهو مهدّدٌ بالصّلب على باب داره.

هذا كما جاء في هذا النّص من ابن زياد: "**اكتبوا لي العرفاء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، وأهل الريب، الّذين رأيهم الخلاف والشّقاق، فمن كتبهم لنا، فهو بريء، ومن لم يكتب لنا أحداً، فليضمن لنا ما في عرافته: ألّا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي**

علينا فيه باغٍ، فمن لم يفعل ذلك، فبرئت منه الذّمّة وحلال علينا دمه وماله. وأيّما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا، صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء"[٣٢]، ويكفي في هذه الخطوة إرهاباً للنّاس، وهذا سبب من الأسباب الّتي سبّبت حالة الخذلان الّتي انتشرت بين الصّفوف والتّشتّت في كلمة الكوفيّين.

قتل عدد من أعيان الشّيعة بأوامر مباشرة من ابن زياد وكان قبل مقتلهم يتصدّى بنفسه للقائهم وتهديدهم للحصول على ما يريد وينتهي الأمر بقتلهم – غالباً- بعد أن يرى صلابتهم وثباتهم، منهم:

١ـ ميثم بن يحيى التّمّار الأسديّ الكوفيّ رضوان الله عليه كان عائداً من العمرة فحبسه عبيد الله بن زياد، فقتله قبل مجيء الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق بعشرة أيّام[٣٣]، أي: في الثّاني والعشرين من ذي الحجّة.

٢ـ رشيد الهجري رضوان الله عليه فقد اعتقله قبل مجيء الإمام الحسين وقتله ابن زياد فيما بعد[٣٤] ولم أقف على يوم مقتله في المصادر.

٣ـ عبد الله بن يقطر رضوان الله عليه اعتقل وضربت عنقه[٣٥]، وورد أنّه رمي من أعلى القصر فتكسّرت عظامه فذبحه أحد القضاة بمدية[٣٦].

٤ـ عبد الأعلى بن يزيد الكلبيّ، وهو من الأشراف النّاهضين مع مسلم، اعتقل ثمّ قتل[٣٧].

٥ـ عمارة بن صخلب الأزديّ وهو من الأشراف النّاهضين مع مسلم، اعتقل ثمّ قتل[٣٨].

٦ـ قيس بن مسهر الصّيداوي[٣٩].

حبس آخرين من أعيان الشّيعة، وكثير من عموم المؤمنين[٤٠] بقوا في السّجن إلى ما بعد استشهاد الإمام عليه السلام منهم:

١ـ الأصبغ بن نباتة.

٢ـ سليمان بن صُرد الخزاعيّ.

٣ـ إبراهيم بن مالك الأشتر.

٤ـ المختار بن أبي عبيد الثّقفيّ. أفرج عنه يوم مقتل ميثم التّمّار، واعتقل قبل مجيء الإمام وبقي في السّجن إلى ما بعد مقتل الإمام.

٥ـ عبد الله بن الحارث.

٦ـ الحارث بن الأعور الهَمْدَانيّ[٤١].

٧ـ أربعة آلاف وخمسمائة ممن عرفوا -فيما بعد- بالتّوابين ومن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأبطاله الذين جاهدوا معه، بل قيل بأنّه اعتُقل ما يصل إلى اثني عشر ألفاً.

٨ـ منهم من قاتل مع مسلم عند القصر وكما يذكر أنّه حصل قتال وصف بالشّدّة قبل حصار القصر فقد ورد أنّ مسلم لّما حاصر القصر خرج شبث بن ربعي بلواء واقتتل أصحابه بأصحاب مسلم قتالاً شديداً إلى أن جاء الليل[٤٢]، وبطبيعة هذا القتال الموصوف بهذا الوصف مع طول وقته لا بدّ من سقوط قتلى من الطّرفين إلّا أنّي لم أقف على مصدر يؤكّد هذا الأمر الّذي لا يمكننا استبعاده لما ذُكر.

٩ـ تفرّق قبيلة مذحج -بعد أن خدعت من بعض زعمائها بسلامة هانئاً- من دون أن تقدر على استنقاذ هانئاً من يد ابن زياد، وهذه القبيلة هي أكبر قبيلة في

الكوفة، فكان انسحابها له ما له من الأثر السّلبيّ في نفوس المقاتلة من أصحاب مسلم.

وجدير بالذّكر -هنا- أنّ من أسباب الوهن والضّعف للمجتمع الكوفيّ أنّ غالب القبائل -وإن كَبُرت أو والت عليّاً عليه السلام- إلّا أنّها لم تكن ترجع إلى شخص واحد تكون القيادة بيده، فكان للقبائل أكثر من وجيه كما هو الحال في قبيلة مذحج، وهانئاً فهو وإن كان أحد كبار شيوخها إلّا أنّه لم يكن الرّقم الأوّل والأوحد فيها، بل كان عدد من وجهاء القبيلة ممّن يرتمي في أحضان السّلطان ويواليه وهذا الحال هو نفسه لبقيّة القبائل.

١٠ـ منهم من تفرّق في الكوفة أو خارجها -بعد بيعتهم- في انتظار الحسين عليه السلام، فما إن يصل إلى الكوفة فإنّهم سيستقبلونه حينئذٍ، وحركة مسلم بن عقيل لم تدم أكثر من يومين فلم تكن الفرصة مواتية إلى رجوعهم مضافاً إلى أنّ ابن زياد قد وضع نقاط التّفتيش على الطّرق الرّئيسيّة وهي ما يعبّر عنها بالمسالح[٤٣]، إضافة إلى أنّ حركته كانت طارئة، وكانت شعلتها اعتقال هاني بن عروة، فلم يكن الوقت كافياً للتّواصل مع هذه المجاميع الّتي لم تكن خارج الكوفة، بل حتّى كلّ من كان داخلها فكان عدد من ثار معه في بادئ الأمر أربعة آلاف فقط، وتناقصوا فيما بعد لأسباب مختلفة.

وهذا العدد -أربعة آلاف- هو العدد الّذي كان قد جمعه مسلم ووزّعه في عدد من الدّور حوله كان قد أعدّها لذلك وذكر لهم شعاراً وهو: (يا منصور أمت) وهو شعار الأنصار يوم بدر[٤٤] كي ينصروه إذا ما دعاهم بهذا الشّعار.

١١ـ التّهديد والتّرغيب الخاصّ بالجنود، وكانت هذه المرّة على لسان جملة من الأشراف الموالين إلى عبيد الله بن زياد.

أمّا التّرغيب فهو بأن يضاعِف العطاء لهم ويُكرَموا.

وأمّا التّرهيب فكان:

* بالوعيد بجيش الشّام الّذي صار وسيلة للضّغط على الكوفيّين لما عرف عن جيش الشّام من شدّة عدد وعتاد.

* وبالحرمان من العطاء لهم ولذراريهم.

* وأن يعاقب الشّاهد بالغائب، فلو حارب منهم أحد وهرب بعد ذلك عوقب من أهل من يُظفر به[٤٥].

وهذا ممّا ساهم بشكل بارز في تفريق بعض المقاتلين عن مسلم.

١٢ـ احتباس الكثير داخل الكوفة فلم يقدروا على الخروج منها للالتحاق بالإمام عليه السلام لعدم الأمن من الخروج فمن يقع في يد السّلطة ويظنّ أنّه متوجّه إلى الحسين عليه السلام فإنّه يقتل لا محالة، كما ورد في هذا النّص: "فلمّا دخل ابن زياد الكوفة طلب مسلمَ بن عقيل على ما قدّمنا هو قتله وبعث برأسه ورأس هاني بن عروة[٤٦] إلى يزيد وكتب إليه الحمد لله الّذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه وكفاه مؤونة عدوّه، فكتب إليه يزيد يشكره ويقول: قد عملت عَملاً لحازم، وصُلتَ صولة الشّجاع الرّابط الجأش، وقد صدَق ظنّي فيك، وبلَغني أنّ الحسين قد توجّه إلى العراق فضع له المناظر والمسالح، واحترس منه، واحبس على الظِنّة، وخذ على التّهمة، واكتب إليّ كلّما يحدث من خير وشرّ والسّلام"[٤٧].

١٣ـ ومنهم من خرج بعد استشهاد مسلم بن عقيل والتحق خُفية بالإمام الحسين عليه السلام فيما بعد، مثل:

١ـ حبيب بن مظاهر الأسديّ.

٢ـ عابس بن أبي شبيب الشّاكريّ.

٣ـ مسلم بن عوسجة. وهو من عقد له مسلم بن عقيل على رَبع أسد ومعهم مذحج عند تحرّكه نحو قصر ابن زياد[٤٨].

٤ـ عبد الرّحمن الأرحبيّ. وهو أحد مرافقي مسلم بن عقيل في مجيئه إلى الكوفة[٤٩]، وقد قُتل في الحملة الأولى يوم العاشر.

٥ـ سعيد بن عبد الله الحنفيّ الذي استشهد أثناء صلاة الإمام الحسين عليه السلام.

٦ـ الشّاكريّ الهمدانيّ.

الفصل الثالث: وقفة تأمّل

١ـ مسلم لم يجد من يدلّه على الطّريق!

وردت هذه العبارة في عدد من المصادر التّاريخية والنّصّ كالتّالي: "خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف، فما بلغنا القصر إلّا ونحن ثلاثمائة. فما زالوا يتفرّقون ويتصدّعون حتّى أمسى ابن عقيل وما معه إلّا ثلاثون نفساً في المسجد؛ فما صلّى مع ابن عقيل إلّا ثلاثون نفساً؛ فلمّا رأى ذلك خرج من المسجد متوجّهاً نحو أبواب كندة، فما بلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثمّ خرج من الباب فإذا ليس معه إنسان، فالتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطّريق، ولا يدلّه على منزله، ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدوّ"[٥٠].

هذه العبارة تفيد بأنّ العدد قد تناقص من أربعة آلاف إلى عشرة، ثمّ إلى الصّفر حيث لا يوجد فرد واحد مع مسلم، وهو في هذه الحالة العصيبة جدّاً حيث يحتاج إلى المعيّن والمواسيّ.

ومن هنا يبرز التّساؤل في شأن الأربعة آلاف مقاتل أين ذهبوا عن مسلم!

فهل يعقل أن يكون هذا العدد الكبير كلّه متخاذلاً والكوفة فيها ما فيها من الشّيعة الخلّص الفدائيّين بلا أدنى شكّ، كما أنّ المتخاذلين عددهم كبير بلا شكّ.

وممّا تقدّم يتّضح جليّاً أنّ الحكم بتخاذل كلّ الأعداد الّتي خرجت مع مسلم حتّى الثّلاثين والعشرة الأخيرة مجحف بحقّ التّاريخ ومسلم بن عقيل ومن خرج معه من أصحابه الخلّص ولاسيّما أصحاب الألوية الّذين تسلّموا قيادة أركان جيش مسلم واستشهدوا فيما بعد مع الإمام الحسين عليه السلام!

فالّذي يمكن أن يقال بعد ملاحظة جملة من الظّروف والنّصوص أنّ العدد القليل الّذي تبقّى مع مسلم لم يتفرّق إلّا بأمرٍ منه وذلك لأنّه لمّا بلغت حاله إلى هذه القلّة من العدد وجد أن لا نفع من بقائهم معه؛ فملاحقة الجماعة أسهل من ملاحقة الفرد فما كان منه إلّا أن يأمرهم بالتّفرّق.

ولم يذهب معهم إلى بيت أحدهم؛ لعدم الأمن من أهاليهم أو جيرانهم، ولأنّهم عرضة للاعتقال والتّفتيش ممّا يشكّل خطراً عليهم وعلى مسلم فافترق عنهم.

إضافة إلى انعدام النّفع من جمعهم القليل، فسرّحهم مسلم بن عقيل كي يتخطّى هذا الجانب لوحده فلعلّه يخرج خارج الكوفة ثمّ يلتقيهم فيلتحقوا بالحسين عليه السلام مثلاً ... ولا سيّما إذا ما لحظنا أنّ أصحاب الألوية في حركة مسلم بن عقيل:

* فيهم من استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء أمثال مسلم بن عوسجة حيث جعله مسلم على مذحج وأسد، وقال له: «**انزل فأنت على الرّجّالة**»[٥١]، وعمرو بن عبد الله الأنصاري المعروف بأبي ثمامة الصّائدي[٥٢].

* وفيهم من اعتقل واستشهد كالعبّاس بن جعدة الجدليّ عقد له مسلم على أهل المدينة إلّا أنّه اعتقل فيما بعد وقتل بعد مسلم[٥٣] وغيرهم.

فالجانب الدّينيّ العقيديّ يدعو إلى البقاء مع مسلم حتّى آخر نفس عند البعض على أقلّ التّقادير!

ويظهر أنّ هذا سلوكٌ يعتمده الأئمّة الطّاهرون، وهو الحفاظ على شيعتهم وعدم التّفريط بهم لا سيّما في أحلك الظّروف، كما حدث للأمير عليه السلام بعد ارتحال النّبي صلى الله عليه وآله فإنّه لم يشهر السّيف مع ما حلّ به؛ وذلك لكي يحافظ على ما تبقّى من المخلصين من المؤمنين[٥٤].

والإمام الحسن عليه السلام لما أقدم على الصّلح، وكذا الإمام الحسين عليه السلام حيث طلب من أصحابه الانصراف في ليلة العاشر. أو ما كان يفعله بعض الأئمّة في بعض ظروف التّقية من العزلة عن بعض الشّيعة ويوصون شيعتهم بالحذر حفاظاً عليهم، وهكذا.

أضف إلى هذا ما سيأتي من أنّ ابن زياد قد قتل عدداً من الثّوّار الّذين كانوا مع مسلم بن عقيل في تحرّكه وهذا يعني أنّه قد لاحق منهم من قدِر على ملاحقته، كما سيأتي قريباً.

ويؤيّد هذا أنّ مسلم بن عقيل لمّا قلّ العدد كان متوجّهاً إلى محِلّة كندة، والرّواية تقول بأنّه قد صار وحيداً عند بابها[٥٥]، وهذه المحلّة يغلب على أهلها التّشيّع[٥٦] فيكون فعل مسلم ما هو إلّا انسحاب لترتيب الصّفوف من جديد بعد أن وجد حالة الخذلان.

ولا يبعد أن يكون تفرّق هذا العدد الكبير يرجع قسم منه إلى الخذلان

والتّجبين من بين صفوف المقاتلين أو من آبائهم أو أبنائهم أو أمّهاتهم أو زوجاتهم.

وقسم منه راجع إلى تفرّق من بقي من الكتائب مع بعض القادة حتّى تفرّق عنه القادة في نهاية المطاف.

ومسلم لم يرجع إلى دار هانئ ولم يذهب إلى دار من دور أنصاره؛ لأنّ العيون تتبعهم -كما مرّ-، وتخفّيه في مكان آخر غير بيوتهم أسلم لهم.

فذهب مسلم حتّى بلغ به الأمر إلى دار طوعة وهذه الدّار كانت في وسط الكوفة تقريباً؛ لأنّها تقع مع المنازل في سكّة عميره[٥٧] وهنا تقع محلّة كنده.

بقي كلام في هذه العبارة فهل مسلم لم يدلّ الطّريق فعلاً؟

في هذه العبارة احتمالان:

الأوّل: إمّا أن تكون على نحو الحقيقة بحيث إنّ مسلم لم يكن يعرف طرق وأزقّة الكوفة فاحتار فيها؛ لأنّه لم يجد من يدلّه على طريقه. ويساعد على هذا الاحتمال هو أنّ مسلم بن عقيل لم يكن من أهل الكوفة بل كان حجازيّاً، ولم يثبت أنّه كان كثير التّردّد على الكوفة ولم يعش فيها طويلاً، وعلى فرض أنّه عاش في الكوفة فبُعْده عنها مدّة من الزّمن كفيل بتغيير معالم الكوفة وطرقها.

الثّاني: إمّا أن تكون قد جاءت على لسان المؤرّخين واستعملت للمجاز كناية على خلوّ مسلم من الأنصار حيث لم يكن معه من يواسيه ويعينه. وهذا ما يحتاج إلى إثبات أنّ مسلماً يدلّ الطّريق ويعرف طرق الكوفة.

وما يفيد علمه بالطّرق:

أوّلاً: كون مسلم بن عقيل قائداً وقد بقي في الكوفة ٦٤ يوماً ولم تكن طرق الكوفة الرّئيسيّة خفيّة على الشّيعة الخلّص الّذين كانوا مع مسلم بن عقيل، ومسلم لم يكن جديد عهد بالقتال فهو العارف بالحروب وطرق التّخطيط لها، ومسألة معرفة الأرضيّة الّتي يحتمل أن تكون عليها المواجهة ـ ولو المحتملة- أمر بديهيّ لا يحتاج إلى برهان أو الاستناد على الظنّ فليس هذا بالأمر الّذي يفوت على مسلم الّذي جاء إلى الكوفة واحتمال الحرب والمواجهة فيها قائم عنده، فلا بدّ إذاً من ضرورة اطّلاعه على تلك الطّرق ولو في الجملة.

ثانياً: عاش مسلم في الكوفة أيّام أمير المؤمنين (٥ سنوات) ومن ثمّ فارقها لمدّة (٢٠سنة)، ولم يرد بأنّ الكوفة قد أعيد تخطيطها بالكامل حتّى يقال بأنّها قد تغيّرت، وإن احتمل استحداث بعض الأزقّة فيها وعدد من الطّرق الفرعيّة.

أهل الكوفة أهل غدر وخيانة:

لا بدّ من دفع توهّم وهو أنّه قد يدافع البعض عن أهل الكوفة ويحاول تبرئة ساحتهم من دم مسلم والحسين من بعده فضلاً عمّن كان قبلهم. وهذا البحث قد يفهم منه السّير في هذا المنحى في تبرئة ساحة أهل الكوفة.

والحال أنّ الأمر ليس كذلك -كما بيّنا أوّل البحث- فالبحث لغرض الوقوف على جملة من الملابسات الّتي حدثت مع استقراء لذلك الواقع. وكيف لنا أنكار الخيانة العظمى من الكثير الّتي حدثت في ذلك اليوم -كما اتضح من خلال البحث- كما أنّه لا يمكن -بعد ما ذكرنا- أن تطلق التّهمة جزافاً وفي الكوفة الخواصّ المضحّون.

وممّا يؤيّد هذا أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يخاطبهم «**يا شيعة آل أبي سفيان**»[٥٨] ليفصّل بين من اتّبع معاوية -سواء رغبة أو رهبة- وخذل الإمام وبين من لم يتّبعه وغُلب على أمره.

ومنه نعرف أنّ خطاب الإمام زين العابدين عليه السلام لمّا خرج من فسطاطه إلى النّاس وهم يبكون عندما جيء بالإمام عليه السلام ومن معه أسرى وسبايا فقال لهم: «**أيّها النّاس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه... قاتلتموه وخذلتموه فتبّاً لكم ما قدّمتم لأنفسكم وسوء رأيكم...**»[٥٩] مع ما فيه من ذمّ وتوبيخ فهو موجّه إلى الفئة الّتي صنّفها الإمام الحسين عليه السلام، وكذا ما ورد عن السّيّدة زينب عليها السلام إليهم حيث وجّهت الكلام إلى من حضر ومن وافقهم الرّأي ممّن لم يحضر ذلك المجلس من أهل الكوفة فقالت: «**أمّا بعد يا أهل الكوفة، ويا أهل الختل والخذل..**»[٦٠] وكالت إليهم الذمّ الشّديد الّذي يستحقّون؛ وذلك لأنّ ـ مع ما تقدّم- اتّباع المعصوم ونصرته واجبة على الجميع ولا يمكن التّعذّر عن نصرته بالتّرغيب والتّرهيب. نعم التّعذّر بالعجز مقبول كمن سجن أو لم يقدر على الوصول إلى الكوفة أو كربلاء.

خاتمة: قراءة في قضيّة مسلم

مع هذا كلّه لا بدّ من القول بأنّ قضيّة مسلم هي قضيّة معقّدة جدّاً؛ إذ تتداخل فيها عناصر مختلفة:

منها: الخوف الّذي فرضه ابن زياد بسبب القتل والأسر والتّهديد.

ومنها: التّرغيب بالمال والمناصب وشراء الذّمم.

ومنها: تصدّر بعض القيادات الدّينية المعادية للإمام الحسين عليه السلام والمؤيّدة للسّلطان الظّالم.

ومنها: تركيبة سكّان الكوفة المختلطة:

دينيّاً؛ حيث يقطنها المسلم والمسيحيّ والمجوسيّ والصّابئيّ والنّصرانيّ.

وسياسيّاً؛ من الخوارج، وأنصار السّلطة الأمويّة، وأنصار العلويّين، وغيرها من الجماعات.

وقوميّاً؛ حيث يوجد فيها العرب والفرس والرّوم والأتراك.

وطبقيّاً؛ حيث يوجد الأشراف -وهم موالون للسّلطة- وعمّال، وعبيد يطيعون أسيادهم، وجند ليس لهم إلّا الطّاعة لأوامر القصر وغيرهم.

وهذه كلّها تخلق أجواء متناقضة يصعب تفسيرها بالاعتماد على النّقولات التّاريخية، وهذه تحتاج إلى توقّف كبير مع إعمال علوم مختلفة لنقدر على عكس تلك الواقعة بحذافيرها. ومع ذلك ستبقى بعض الظّروف غامضة.

نتائج:

ـ من كاتب الحسين عليه السلام على أقسام: ففيهم (المتخاذلون، والمودعون في السّجون، والمستشهدون في الكوفة مع أو بعد مسلم أو في كربلاء مع الحسين عليه السلام) فليس من السّليم نسبة التّخاذل إلى كلّ من كاتب بلا استثناء.

ـ ضرورة الوقوف على قراءة التّاريخ قراءة منصفة غير متسرّعة.

الهوامش:

(١) تأتي الإشارة إليه لاحقاً، فانتظر.

(٢) من قبيل ما ورد من حوار بين برير وبعضهم عند منعهم الماء عن الحسين عليه السلام وأهل بيته، فيخاطبهم برير الهمداني بقوله: "... وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السّواد وكلابه قد حيل

بينه وبين ابن رسول الله ، فقالوا: يا برير قد أكثرت الكلام فاكفف والله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله. يقصدون عثمان بن عفّان!!

الأماليّ، للشّيخ الصدوق، المجلس الثلاثون (وهو مخصّص لخبر الإمام الحسين عليه السلام)، ص١٢٩.

(٣) تنقيح المقال، الشّيخ المامقانيّ، ج٣، ص٢١٤.

(٤) معجم رجال الحديث، السّيّد الخوئيّ، ج١٩، ص١٦٥.

(٥) الأماليّ، الشّيخ الصّدوق، المجلس السّابع والعشرين، ح٣.

(٦) هم: قيس بن مسهّر الصيداوي، وعمارة بن عبيد الله السّلوليّ، وعبدالله بن شدّاد الأرحبيّ وأخيه عبد الرحمن، وقيل بعث معه خامساً وهو عبدالله بن يقطر. موسوعة مع الركب الحسيني، ج٣، ص٥٦. أمّا قيساً فقد أرسله مسلم بكتابه إلى الإمام الحسين عليه السلام معه عابس ابن أبي شبيب الشّاكريّ وشوذباً مولاه.

(٧) بحار الأنوار، المجلسيّ، ج٤٤، ص٣٥٤.

(٨) ن ف.

(٩) نقل هذا عن الكليّات، لأبي البقاء الكوفي، إلا أنّ الكتاب لم أصل إليه. راجع حاشية ردّ المحتار، ابن عابدين، ج٥، ص٣١٤.

(١٠) عمدة القارئ، العيني، ج١٣، ص١٧٧.

(١١) ثمّ لا معنى للتّشكيك فيما ورد ما لم يكن الأمر فيه مبالغات وفقاً للضّوابط العلميّة وبعد معرفة المعنى الصّحيح لألفاظ الكلام وواقع الحال؛ فكثير من الأحيان نحن نعتبر أنّ الشّيء فيه مبالغات إلا أنّه أمر اعتياديّ جداً واعتباراتنا بأنّ بعض الأمور مبالغات هي في الواقع نابعة من خلفيات ثقافية أسّست لرفض هذه البطولات في الوقت الذي يُسمح لعقولنا أن تقبل بطولات ومهارات يفعلها غير من ورد في التاريخ أنّهم من المتديّنين، فتَقبل هذه العقول أن يجر إنسانٌ شاحنةً أو غير ذلك إلى مسافةٍ ما أو يحمل حجراً تزن وزن خمسة أشخاص بالغين ويضعها في موضعٍ يساوي رأسه وما شاكل من هذه الأمور.. ولا تقبل –هذه العقول– أن يرفع مسلم إنساناً واحداً!

(١٢) هكذا في الإرشاد، ولكن ما نقله المجلسي في البحار عن الإرشاد (الحاكم)، راجع البحار، ج٤٤، ص٣٣٤.

(١٣) الإرشاد، الشّيخ المفيد، ج٢، ص٣٩.

(١٤) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزديّ، ص١٧، تاريخ الطّبريّ، ج٤، ص٢٦٢.

(١٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ج٥، ص٣٢٨.
(١٦) الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفيّ، ج٥، ص٣٥.
(١٧) مروج الذّهب، المسعوديّ، ج٣، ص٥٤.
(١٨) تاريخ الطّبريّ، ج٤، ص٢٦٤.
(١٩) تاريخ الطّبريّ، ج٥، ص٣٩٥.
(٢٠) تذكرة الخواصّ، سبط بن الجوزيّ، ص٢٢١.
(٢١) الفتوح، لأحمد بن الأعثم الكوفيّ، ج٥، ص٣١.
(٢٢) وقد ذكر أن العدد قد بلغ أربعين ألفاً. انظر ابن نما الحليّ في مثير الأحزان، ص١٧. وغيره.
(٢٣) كما جاء في خبر معقل لما ذهب -عينا لابن زياد علىٰ أصحاب مسلم- فكان فيما طلب من مسلم بن عوسجة بعد أن عرّفه بنفسه وأنّه يريد بيعة مسلم بن عقيل ويريد إيصال بعض المال إليه ليستعين به علىٰ الحرب.. فقال مخاطباً ابن عوسجة: فأتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني علىٰ صاحبك -يعني مسلم بن عقيل- فأبايعه، أو إن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه. تاريخ الطبري، ج٥، ص٣٦٢.
(٢٤) حسب إحصاء في عام ٢٠١٤م.
(٢٥) في عهد عمر بن الخطّاب سنة ١٧ وقيل ١٨ أو ١٩ للهجرة؛ لتكون موقعاً عسكريّاً وذلك لموقعها الجغرافيّ.
(٢٦) لأنّهم بعد البناء يجلبون زوجاتهم وأولادهم أو يتزوّجون وينجبون فتخرج حالهم عن حال الحرب فيخلدون إلىٰ الدّعة، فتعزّ الحياة عند الجندي مما يجعله متقاعساً عن الجهاد.
(٢٧) تجارب الأمم، لابن مسكويه الرّازيّ، ج١، ص٤٨٣.
(٢٨) ن. ف: ص٥٥٤.
(٢٩) يوجد في بعض النصوص أنّ هذا الرقم كان عند أوّل التحرك؛ لأنّهم ازدادوا فيما بعد، كما في مقتل الحسين، لأبي مخنف، ص٤٣. وتاريخ الطّبري، ج٤، ٢٧٦. والإرشاد، الشّيخ المفيد، ج٢، ص٥٢ وغيرها من المصادر الّتي تنقل هذه العبارة مع اختلاف يسير جدّاً: "**واقبل مسلم يسير في النّاس من مراد حتّى أحاط بالقصر، ثمّ إنّ النّاس تداعوا إلينا واجتمعوا فوالله ما لبثنا إلّا قليلاً حتّى امتلأ المسجد من النّاس والسّوق وما زالوا يتوثّبون حتّى المساء..**" ولعلّ العدد الّذي ذكر في كتاب الفتوح هو العدد النّهائي التّقريبي بعد اجتماع من بايع مسلمَ حيث

ذكر "وأقبل مسلم في وقته ذاك عليه، وبين يديه ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون". الفتوح، ابن أعثم الكوفي، ج٥، ص٤٩.

(٣٠) تاريخ الطّبري، ج٣، ص٢٨١.

(٣١) الإرشاد، ص١٨٨. مقاتل الطّالبيين، أبي الفرج الأصفهانيّ، ص٦٤.

(٣٢) تجارب الأمم، لابن مسكويه، ج٢، ص٤٢. مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزديّ، ص٢٨.

(٣٣) الإرشاد، المفيد، ج١، ص٣٢٥. الإصابة، ابن حجر، ج٦، ص٢٥٠.

(٣٤) الأماليّ، الشّيخ الطّوسيّ، المجلس السّادس، ح٢٨.

(٣٥) الإرشاد، الشّيخ المفيد، ج٢، ص٧٥.

(٣٦) تاريخ الكوفة، السّيّد البرقيّ، ص٣٢٢. إبصار العين في أنصار الحسين، الشّيخ محمّد السّماويّ، ص٩٣. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج٣، ص٢٣٢.

(٣٧) مقتل الحسين عليه السلام، السّيّد المقرّم، ج١، ص١٥٧.

(٣٨) ن، ف.

(٣٩) تذكرة الخواص، سبط بن الجوزيّ، ص٢٢١.

(٤٠) مقتل الحسين عليه السلام، السّيّد المقرّم، ج١، ص١٥٧. مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف، ج١، ص٦١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٦. تنقيح المقال، المامقانيّ، ج٣٣، ص١٨٩. قاموس الرّجال، الشّوشتريّ، ج٥، ص٢٨٠.

(٤١) نسبة إلى مدينة (هَمْدان) في اليمن، وليس هَمَدَان الفارسية.

(٤٢) الفتوح، ابن أعثم الكوفيّ، ج٥، ص٤٩. الملهوف، ابن طاووس، ص١١٩.

(٤٣) تاريخ الطّبريّ، ج٤، ص٣٠٣. والمسلح واحد المسالح، وهي المواضع العالية تستخدم للمراقبة وهي باصطلاح اليوم نقاط تفتيش.

(٤٤) الإرشاد للمفيد، ج٢، ص٥٢. البحار، ج٤٤، ص٣٤٨.

(٤٥) ن، ف، ص٥٤، "فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم، ثم أشرفوا على النّاس فمنّوا أهل الطّاعة الزّيادة والكرامة، وخوّفوا أهل العصيان الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجند من الشّام إليهم. وتكلّم كثير حتى كادت الشّمس أن تجب، فقال: أيّها النّاس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشّر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأميرُ عهداً: لئن تممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي الشّام، وأن يأخذ البريء بالسّقيم والشّاهد

بالغائب، حتّى لا تبقى له بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جنت أيديها. وتكلم الأشراف بنحو من ذلك. فلمّا سمع النّاس مقالهم أخذوا يتفرّقون، وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، النّاس يكفونك، ويجئ الرّجل إلى ابنه وأخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشّام، فما تصنع بالحرب والشّر؟ انصرف، فيذهب به فينصرف. فما زالوا يتفرّقون حتّى أمسى ابن عقيل وصلّى المغرب وما معه إلّا ثلاثون نفساً في المسجد..".

(٤٦) وهذه مصيبة تضاف إلى المصائب الّتي أصابت مسلماً فبعد قتله احتزّ رأسه وكذا هانئاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

(٤٧) تذكرة الخواصّ، سبط بن الجوزيّ، ص٢٢١.

(٤٨) الإرشاد، ج٢، ص٥١، ٥٢.

(٤٩) لم أجد خبر مقتل عمارة بن عبد الله السّلوليّ، وعبد الله بن شداد الأرحبيّ وهذان أيضاً صاحبا مسلماً، أمّا عبد الله بن يقطر فذكرنا أنّه استشهد في الكوفة.

(٥٠) الإرشاد للمفيد، ج٢، ص٥٤. البحار، ج٤٤، ص٣٥٠. الأخبار الطّوال لابن قتيبة الدّينوريّ، ص٢٣٩. تاريخ الطّبريّ، ج٤، ص٢٧٧. مروج الذّهب للمسعوديّ، ج٣، ص٥٨. وقعة الطّف لابن مخنف، ص١٤٩. تجارب الأمم لأحمد بن محمّد بن مسكويه، ج٢، ص٤٩.

(٥١) مقاتل الطّالبيين، ٧٠.

(٥٢) معجم رجال الحديث، السّيّد الخوئيّ، ج١٤، ص٤٩.

(٥٣) مستدركات علم رجال الحديث، الشّيخ علي النّمازيّ الشّاهروديّ، ج٤، ص٣٤٢.

(٥٤) هذا واحد من الأسباب الأساسيّة، وليس السّبب الوحيد.

(٥٥) وإن ورد في الملهوف: ص١١٩، أنّ مسلماً دخل المسجد ليصلّي المغرب فتفرّق العشرة عنه.

(٥٦) أعيان الشّيعة، ج٢، ص٥١٥ "إنّ محلّة كندة الّتي ولد فيها أبو الطيّب هي محلّة عرف أهلها بالتّشيّع".

(٥٧) وهي عبارة عمّا نسمّيه اليوم بالشّارع العامّ، ويكون عرضها ٥٠ ذراعاً وتنار بواسطة المشاعل أثناء الليل.

(٥٨) بحار الأنوار، المجلسيّ، ج٤٥، ص٥١.

(٥٩) الاحتجاج، الشّيخ الطّبرسيّ، ج٢، ص٣٢.

(٦٠) الأماليّ، الشّيخ المفيد، ص٣٢٢. وكذا أمالي الطّوسيّ، ص٩٢، المجلس الثّالث ح٥١.

أنصار رغم الحصار

الشيخ إبراهيم عبدالنّبي زين الدّين

الملخّص:

أشار الكاتب إلى أهميّة الوقوف على محطّات من سيرة أنصار الحسين عليه السلام والـتّأمّل فيها وأخذ العبر منها، فتعرّض إلى بعض الإجراءات الأمنيّة الظّالمة الّتي قام بها بنو أميّة في حقّ كلِّ من حاول السّعي إلى نصرة الإمام الحسين عليه السلام، والّتي لم تثنِ الأنصار عن المضي لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، ثمّ ذكر بعض النّماذج من الأنصار الّذين لم يركنوا لما فعله بنو أميّة من ترهيب لهم، ثمّ ختم الكاتب مقالته بذكر بعض ما نستفيده من هذا الوقوف على سيرتهم.

كربلاء تبقى نبعًا دفّاقًا بكل معاني السّمو والرّفعة، المتجلببة برداء العزّة والإباء والأَنَفَةِ والغَيرة المستمدّة من عزّة الله الواحد الأحد، ويستمرّ أخذ الدّرس منها تلو الدّرس رغم تقادم السّنين؛ وكيف لا تكون كذلك وهي مرآة لكلّ معاني الإنسانيّة الحقّة في عالم الرّكون إلى الأرض والخلود إلى خدع الشّياطين، وعالم الأصنام الّتي تُعبد من دون الله سواء أصنام النّفس الباطنة في قلب كلّ واحد منّا أم قوى الاستكبار الّتي تركّع بني الإنسان بمنطق فرعوني ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.

هذه هي كربلاء الحسين عليه السلام الّتي تحيي القلوب الميّتة وتوقظ الشّعوب المستضعفة بنور من أشعّة قائدها وأنصاره عليهم السلام، بوعيهم وثباتهم، ببصيرتهم واستمرارهم عليها، بحسمهم الموقف في لحظة الحسم بين الخيارات المتقابلة، وترجيحهم خيار نصرة الدّين والإسلام والمبدأ والإمام عليه السلام رغم توفّر كلّ أسباب التّراجع وعدم النّصرة بمقاييس أهل الأرض؛ حيث قلّة النّاصر والعدّة والعدد، وحتميّة الخسارة العسكريّة، وتضييق على العائلة في رزقها عبر قطعه من خزينة الدّولة، وملاحقة كلّ من يساعد أنصار الحسين عليه السلام ولو بكلمة حتّى تصل العقوبة حدّ التّصفية الجسديّة والإعدام!.

رغم كلّ هذا نجد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام رجّحوا معسكر الإمام عليه السلام؛ لأنّه مع الحقّ والحقّ معه يدور معه حيث دار، فهو عليه السلام مقياس معرفة الحقّ وبه يمتاز الخبيث من الطّيّب، رغم كلّ الرّعب المبثوث من السّلطات الأمويّة والحصار المضروب على الكوفة والبصرة القريبتين من موقع تمركز الحسين عليه السلام بنينوى، ورغم الأموال الطّائلة الّتي بُذّرت على هذا وذاك لتمييع صورة الصّراع وجعل المشهد السّياسيّ العامّ ملؤه الضّبابيّة والتّشويش، وبعبارة عصريّة (رغم أسلوبي العصا والجزرة من السّلطة آنذاك).

من أجل هذه الخاصيّة المهمّة والمحوريّة في أنصار الحسين عليه السلام ينبغي لكلّ من يريد أن يكون في معسكر الحسين عليه السلام في أيّ مكان وزمان أن يقف عند دراسة هؤلاء الأنصار الّذين بلغوا مع الحسين عليه السلام الفتح الأعظم على مذبح العشق الإلهيّ ففازوا بوسام الشّهادة بين يدي سيّد الشهداء عليه السلام فصاروا أفضل الأصحاب.

وفي المقابل نجد نماذج أخرى كانت قاب قوسين من إدراك الفتح إلّا أنّها تخلّت عن نصرة الإمام مثل قصر بن مقاتل وعبيدالله بن الحرّ الجعفيّ أو نَصَرَهُ نُصرةً مشروطةً كالضّحّاك بن عبدالله المشرقيّ الذي طلب الحسينُ عليه السلام منه النّصرةَ فأجابه إلى ذلك مشترطاً أن يكون في حلّ من نصرته والانصراف عنه حين لا يعود قتاله مفيدًا في الدّفع عن الحسين عليه السلام، وقد أجابه الحسين عليه السلام إلى شرطه فاشترك الضّحّاك في المعركة بصدق ثمّ ترك الحسين عليه السلام!

واحدة من مفردات دراسة سيرتهم ومواقفهم وسلوكهم الموصل لهم ـ أي لهذا المقام- نجد على صفحات التّاريخ بعضًا منهم قد خرقوا كلّ الحواجز المانعة للوصول إلى الحسين عليه السلام فمن هم هؤلاء الأنصار؟ وكيف كسروا قيود الحصار حتّى تسلّموا لقب «النّاصر لإمام زمانه»؟

لكن قبل ذلك من الأنسب أن نقف على الإجراءات الأمنيّة المتّخذة من قبل دولة بني أميّة لشلّ حركة الأمّة وتقليل المتفاعلين مع النّهضة الحسينيّة قدر الإمكان.

أوضاع الكوفة:

بمراجعة كتب التّاريخ يظهر لنا أن الكوفة في نشأتها عام ١٧ أو ١٨ للهجرة كانت خليطاً من جنود المسلمين الذين أرسلتهم الدّولة الإسلاميّة إلى هناك في

مشروع التّمدّد وما يسمّى بالفتوح الإسلاميّة، ثمّ اتّخذها أمير المؤمنين عليه السلام مقرّا لخلافته في العام ٣٦ هجريّة ممّا زاد من تواجد شيعته في هذه المدينة بطبيعة الحال. لذا نقرأ اجتماع شيعتها بعد هلاك معاوية ومكاتبتهم للحسين عليه السلام وطلب نصرته وقدومه ليكون أميراً عليهم، وخاصّة مع ملاحظة بنود الصّلح مع معاوية الّتي تقضي أن تؤول الخلافة بعد معاوية إلى الحسين عليه السلام بعد موت الحسن عليه السلام، إلّا أن التّخطيط والقمع الأمويّ أولاها أهمّيّة خاصّة فبعث يزيدُ بن معاوية عبيدَالله بن زياد والياً عليها ممّا قلب الموازين العامّة في الكوفة لصالح النّظام الحاكم، ومع حلول العام ٦١ للهجرة كانت الكوفة تحت السّيطرة الأمويّة التّامّة بحيث وضعت الشّرطة على بوابة المدينة ولا يدخل ولا يخرج أحد منها في حركة تمنع خروجَ أيّ موالٍ إلى الحسين بن علي عليه السلام ونصرته. ويمكن استجلاء هذه الحقيقة من كتاب يزيد بن معاوية إلى عبيدالله بن زياد جواباً له على رسالة شرح فيها أخبار الكوفة وقتله لمسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وممّا جاء فيها: "...**وإنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظنّ وخُذ على التّهمة...**"[1].

أوضاع البصرة:

لم يُذكر لنا أنّ البصرة كانت موالية في تلك الحقبة التّاريخية بل كانت مقرًّا لمناوئ الأمير عليه السلام وإن كان يسكنها بعض الشّيعة إلّا أنّهم لم يكتبوا شيئاً، بل بالعكس (ذكر المؤرخون أن الإمام الحسين عليه السلام كتب برسالة موحّدة وبعثها إلى رؤوس الأخماس وإلى الأشراف، وذكروا من هؤلاء مالك بن مسمع البكريّ، الأحنف بن قيس، المنذر بن الجارود، مسعود بن عمرو، قيس بن الهيثم، عمرو بن عبيدالله بن معمر، وكان ممّا جاء فيها «... **وأنا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله فإنّ**

السنّة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أُهْدِكم سبيل الرّشاد، والسّلام عليكم»[٢].

إلّا أنّ إيكال مهمّة تصفية أيّ صوت معارض إلى عبيد الله بن زياد لعنه الله قد حقّقت أغراضها بالسّيطرة التّامة والشّاملة على هذين المصرين المحوريين وهما الكوفة والبصرة؛ حيث كان يمارس سلطته بالعنف والقمع والشّدّة القويّة ممّا قلّل بطبيعة الحال عدد الذين يقفون في وجه التّيّار الأمويّ الجارف.

والآن بعد هذا الإجمال لأوضاع الكوفة والبصرة نأتي على ذكر الأنصار الذين كسروا هذا الطّوق الأمنيّ وأوصلوا أنفسهم إلى نصرة سيد شباب أهل الجنة متحدّين كلّ الصّعوبات ومذلّلين كلّ الموانع:

١ـ حبيب بن مظاهر (مظهّر) الأسديّ: كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وملازماً للأمير عليه السلام ومن خاصّته وحملة علومه. لقد استقرّ بالكوفة وكاتب الحسين عليه السلام، ولما وصل مسلم بن عقيل صار حبيب ومسلم بن عوسجة يأخذان البيعة للحسين عليه السلام في الكوفة حتّى إذا دخل ابن مرجانة في معادلة الكوفة انقلبت الموازين ضدّ مسلم، فحبستهما عشائرهما وأخفتهما، "فلمّا ورد الحسين عليه السلام كربلاء خرجا إليه متخفّيين يسيران الليل ويكمنان النّهار حتّى وصلا إليه"[٣]. هذا وحبيب شيخ عشيرة له من الوجاهة الاجتماعيّة ما له، ومع ذلك يتخفّى يكمن النهار ويسير في الليل، وما ذلك إلّا لشدّة الوطأة وتضييق الخناق على كلّ من يفكّر في نصرة ابن بنت رسول الله.

٢ـ مسلم بن عوسجة الأسديّ: كان رجلاً شريفاً عابداً متنسّكاً، وكان ممّن كاتب الحسين عليه السلام من رجالات الكوفة، وله دور في تهيئة الكوفة لنصرة مسلم بن عقيل، إلّا أن من مواقفه أنّه أرشد معقلاً على مكان مسلم بعد وثوقه به وتبين بعد ذلك

أنه جاسوس من ابن زياد، ومع تسارع الأحداث واستشهاد مسلم بن عقيل وهاني لجأ للاختفاء عن الأنظار مدّة ثمّ فرّ بأهله إلى الحسين فوافاه بكربلاء وفداه بنفسه(٤).

ومن الطّبيعي أن خروجه من الكوفة إلى كربلاء في تلك الظّروف المشدّدة لم يكن بالأمر الهيّن السّهل، ممّا يستوجب أن يتحلّى بروح عاشقة للإمام أبي عبدالله عليه السلام ليُقدم على مثل هذه المخاطرة، وقد تجلّى عشقه في محاورته للإمام عليه السلام كما في زيارة الناحية عندما أجازهم الإمام بتركه عليه السلام فقال: "أنحن نخلي عنك؟ وبِمَ نعتذر عند الله من أداء حقّك؟ لا والله حتّى أكسر في صدورهم رمحي هذا، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاحٌ أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ولم أفارقك حتّى أموت معك"(٥).

٣ـ مسلم بن كثير الأعرج الأزدي: كان تابعيّاً كوفيّاً صِحبَ أمير المؤمنين عليه السلام، ذكر أهل السّير أنّه خرج إلى الحسين عليه السلام من الكوفة فوافاه لدن نزوله في كربلاء(٦).

٤ـ يزيد بن نُبيط (ثبيط) وابناه عبد الله وعبيد الله: كان من الشّيعة من طائفة عبد القيس من أهل البصرة، وينقل لنا تاريخ الطّبريّ حيثيّات خروجه والّتي تكشف مستوى الرّعب المبثوث آنذاك من قِبل السّلطة الأمويّة: "اجتمع أناس من الشّيعة بالبصرة في منزل امرأة من عبد القيس يقال لها ماريّة ابنة سعدٍ أياماً... وقد بلغ ابن زياد إقبال الحسين عليه السلام فكتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ الطّريق. فأجمع يزيد بن نبيط الخروج إلى الحسين عليه السلام وكان له عشرة بنين فقال: أيّكم يخرج معي؟ فانتدب معه ابنين له... فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: إني قد عزمت على الخروج وأنا خارج فقالوا له: إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد، فقال: إني والله لو قد استوت أخفافهما بالجَدَد لهان عليَّ طلب من طلبني. ثمّ خرج فتقدّى في الطّريق حتّى

انتهى إلى الحسين عليه السلام فدخل في رحله بالأبطح..."[٧].

هذا المشهد يعكس لنا الحالة العامّة وقتئذٍ من غلبة أجواء الرّعب والخوف، ما يعني وجود مقتضي التّخلي عن المسؤوليّة بحسب المنطق المادّيّ بل حتّى الدّينيّ بحسب بعض الأفهام البعيدة عمّا يريده الله والرّاكنة إلى حسابات الأرض الضّيّقة، لذلك وجدنا اعتراضاً على خروجه للإمام الحسين بحجّة الخوف عليه من عمّال ابن زياد! إلّا أن البصير بحقائق الصّراع يدرك في اللحظة الحاسمة ما يجب عليه فعله ويفعله فعلاً، تاركاً وراءه كلّ وساوس المثبّطين.

٥ـ عامر بن مسلم العبديّ البصريّ ومولاه سالم: وهما من شيعة البصرة وخرجا مع يزيد بن نبيط المتقدّم.

٦ـ سيف بن مالك العبديّ البصريّ: من البصرة ممن خرج مع يزيد بن نبيط المتقدم.

٧ـ الأدهم بن أُميّة العبديّ البصريّ: ممن اجتمع في منزل ماريّة وخرج للإمام الحسين عليه السلام مع يزيد بن نبيط[٨].

٨ـ عبدالله بن عمير الكلبيّ: ينقل في حقِّه أنّه بطل شجاع شريف، نزل الكوفة مع زوجته أم وهب بنت عبد النّمر بن قاسط، فلمّا رأى القوم بالنّخيلة يُعرضون ليسرحوا إلى الحسين عليه السلام قال: والله لقد كنت على جهاد المشركين حريصاً وإني لأرجو ألّا يكون جهاد هؤلاء الّذين يغزون ابن بنت نبيّهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إيّاي في جهاد المشركين، فدخل إلى امرأته وأخبرها بما يريد: فقالت له: أصبت أصاب الله بك أرشدَ أمورك، افعل وأخرجني معك، فخرج بها ليلاً حتّى أتى حسيناً عليه السلام فأقام عنده[٩].

والسّؤال هو لماذا أوصلا أنفسهما ليلاً؟ هذا يعني أنّ طبيعة الخروج من الكوفة والمسير إلى كربلاء مليء بمفارز الشّرطة وقوات بني أميّة كما مرّ معنا؛ ممّا يصعّب أية محاولة للذّهاب للحسين ونصرته، ولم يكن الطّريق مفتوحاً لكلّ من يريد الالتحاق بمعسكر الحسين عليه السلام والفوز بنصرته، ومع ذلك تجشما عناء المسير ليلاً رعايةً لأنفسهما عن الوقوع في يد القوّات المنتشرة على طول الطّريق.

أمّا في يوم عاشوراء فقد كان أوّل مبارز للأعداء من جيش الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا استشهد صارت زوجته تبكي عليه كثيراً فجاءها رستم مولى الشّمر فضربها فالتحقت بموكب الشّهداء أيضاً.

٩ـ قاسط بن زهير بن الحرث التّغلبيّ.

١٠ـ كردوس بن زهير بن الحرث التّغلبيّ.

١١ـ مقسط بن زهير بن الحرث التّغلبيّ: هؤلاء الإخوة الثّلاثة ممّن صحبوا الأمير عليه السلام وجاهدوا بين يديه ثمّ صحبوا الحسن عليه السلام، وبقوا بالكوفة فلمّا نزل الحسين عليه السلام كربلاء خرجوا إليه وجاؤوه ليلاً[١٠]. والمجيء ليلاً ما هو إلّا للتّستّر بظلمته عن عيون الظّالمين.

١٢ـ أبو ثمامة عمرو بن عبدالله الصّائديّ: وكان من أصحاب الأمير عليه السلام وممّن شاركه حروبه وبعدها صار من أصحاب الإمام المجتبى عليه السلام، ويُعدّ من فرسان العرب الشّجعان ومن وجوه الشّيعة. أبو ثمامة هو أحد من كاتب الحسين عليه السلام وثبت على موقفه فقد ناصر مسلم بن عقيل بعد وصوله إلى الكوفة وتكفّل بتهيئة الأسلحة وعَقَدَ له مسلم قيادة ربع تميم وهمدان، لكن لمّا تفرّق النّاسُ عن مسلم اختفى عن الأنظار فاشتدّ طلب ابن زياد له، فخرج إلى الحسين عليه السلام ومعه نافع بن

هلال الجمليّ فلقياه في الطّريق وأتيا معه[١١]. والسّؤال إذا كان مطلوباً للجهاز الحاكم وكان يتعقّبه فهل يعقل أن خروجه من مدينة الكوفة الّتي أُحكمت السّيطرةُ الأمنيّةُ عليها كان طبيعيّاً؟! أبداً، بل كان خروجاً يعتمد عنصر التّخفّي والحذر والمغامرة في نفس الوقت؛ إذ لمجرد خطأ بسيط قد يقع في أيدي أعدائه وتكون خاتمة حياته فيه.

وكان من أبرز مواقفه يوم عاشوراء هو التّذكير بإقامة الصّلاة عند الظّهر في شدّة الحرب حيث قال للإمامعليه السلام: يا أبا عبد الله نفسي لك الفداء إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتّى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي وقد صلّيت هذه الصّلاة الّتي دنا وقتها. فدعا له الإمامعليه السلام: ذكرتَ الصّلاة جعلك الله من المصلّين الذّاكرين.

١٣ـ جنادة بن الحرث المذحجي المراديّ السّلمانيّ الكوفيّ: عدّه الشّيخ الطّوسيّ من أصحاب الإمام الحسينعليه السلام[١٢] كان من مشاهير الشّيعة وكان ممن خرج مع مسلم أوّلاً، ثمّ بعد الخذلان خرج إلى الإمام الحسينعليه السلام مع عمرو بن خالد الصّيداويّ وجماعة[١٣] **فمانعهم الحرّ** ثمّ أخذهم الحسينعليه السلام[١٤]. فهذا الخروج ليس خروجاً طبيعيّاً بل فيه اعتراض وتوقيف وممانعة عن الوصول لهدفهم، إلّا أنّهم أصرّوا وواصلوا المسير حتّى ظفروا بمقصودهم.

الملاحظ أن أنصار الحسينعليه السلام ليسوا على نسق واحد بل يظهر بَدْواً أنّهم على ثلاثة أصناف:

الأوّل: منهم من لحق به من أوّل الطّريق على بيّنة وبصيرة تامّة.

الثّاني: ومنهم من كان ينتظر وخاطر بنفسه لكي يوصل نفسه للحسينعليه السلام وينصره.

الثّالث: هو من انقلب إلى معسكر الحسين عليه السلام في أرض المعركة، وهنا أنقل أسماء بعض الأنصار ممّن انقلب ومال إلى معسكر الحسين عليه السلام في كربلاء أي أنّه كان في معسكر ابن سعد ثمّ مال إلى معسكر الحسين عليه السلام:

١ـ القاسم بن حبيب بن أبي بشر الأزديّ.

٢ـ زهير بن سليم الأزديّ، انتقل إلى معسكر الحسين عليه السلام لمّا رأى القوم مصمّمين على قتل سبط الرّسول.

٣ـ الأخوان النّعمان بن عمرو الأزديّ الرّاسبيّ والحُلّاس بن عمرو الأزديّ الرّاسبيّ.

٤ـ مسعود بن الحجاج التّيمي وابنه عبدالرّحمن.

٥ـ جوين بن مالك بن قيس التّيميّ.

٦ـ عمر بن ضبيعة بن قيس التّيميّ.

٧ـ الضّرغامة بن مالك التّغلبيّ وكان ممّن بايع مسلماً وبعد التّخاذل خرج مع جند ابن سعد وفي كربلاء مال إلى معسكر الحسين عليه السلام[١٥].

هذه المواقف الّتي خاضها هؤلاء الأنصار تعلّمنا معنى الإصرار على مناصرة الحقّ ودين الله مهما كانت الصّعوبات والمعوّقات، وألّا نخدع أنفسنا بالحجج الّتي لا تنتهي لمن يريد أن يبرر لنفسه التّقصير في هذا الميدان.

أسأل الله بحقّ أنصار الحسين عليه السلام أن يوفقنا للسّير على نهجهم، والأخذ بشيء من بصيرتهم، وأن يغفر لنا تقصيرنا في نصرة دينه، إنّه الغفّار الرّحيم، وأن يحشرنا معهم إنّه جواد كريم.

الهوامش:

(١) الصّحيح من مقتل سيد الشهداء وأصحابه للرّيشهريّ، ج١، ص٥١٨، نقلا عن تاريخ الطّبريّ وتاريخ دمشق وتذكرة الخواصّ والإرشاد.

(٢) تاريخ الطّبريّ، ج٤، ص٢٦٦.

(٣) إبصار العين في أنصار الحسين للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص١٠٢.

(٤) إبصار العين في أنصار الحسين للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص١٠٩.

(٥) الصحيح من مقتل سيّد الشّهداء وأصحابه للشّيخ الرّيشهريّ، ج٢، ص٩٨ -٩٩.

(٦) إبصار العين في أنصار الحسين للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص١٨٥.

(٧) تاريخ الطّبريّ، ج٥، ص٣٥٣، ونقله الصّحيح من مقتل سيّد الشّهداء، ج٢، ص١١٦.

(٨) إبصار العين في أنصار الحسين للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص١٩١ – ١٩٢.

(٩) نفس المصدر، ص١٧٩. والصّحيح من المقتل للرّيشهريّ، ج٢، ص٨٣.

(١٠) إبصار العين في أنصار الحسين للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص٢٠٠.

(١١) نفس المصدر، ص١١٩، نقلاً عن الإرشاد والأخبار الطّوال.

(١٢) رجال الشّيخ، ص٩٩، الرقم ٩٦٨.

(١٣) من هذه الجماعة: مجمع بن عبدالله العائذيّ وابنه عائذ.

(١٤) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشّيخ محمّد بن طاهر السّماويّ، ص١٤٤.

(١٥) نفس المصدر، ص١٩٩.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
حسين مني وأنا من حسين
أحب الله من أحب حسينا

دروس في التّوبة
من موقف الحرّ الرّياحيّ في كربلاء

الشيخ حسين أديب الناصر

الملخّص:

تعرّض الكاتب في هذه المقالة إلى مناقب الحرّ الرّياحيّ أحد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام من الشّجاعة والشّرافة والكرم ومعرفة الحقّ وإتّباعه وفدائه له، والّتي ساهمت في توبته النّصوح وقبولها، ثمّ ذكر خطوات التّوبة الحقيقيّة من اليقظة والنّدم والعزم والرّجاء والاعتراف والتّدارك وغيرها، والّتي جسدها الحرّ الرّياحيّ، فجعلت توبته توبة نصوحاً مقبولة، ثمّ ختم الكاتب مقالته بذكر بعض ثمرات وآثار توبة الحرّ الرّياحيّ بما نستفيده في حياتنا.

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد وعجّل فرجهم، السّلام عليك يا بقيّة الله في أرضه يا صاحب الزّمان.

مقدّمة:

التّوبة من المفاهيم الإسلامية الّتي تحدّثت عنها عدّة آيات وروايات شريفة، وممّا جاء في الأدعية الواردة عن أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام من ذكر التّوبة وطلبها ما ورد في دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الثّمالي: «وَانْقُلْنِي إِلَى دَرَجَةِ التَّوْبَةِ إِلَيْك»[١].

إنَّ التوبة من النّعم المتاحة لكلّ إنسان، ومقام التّوبة مقام يتمكَّن جميع العاصين من الوصول إليه، رحمةً من الله تعالى على جميع عباده.

وفي طول التّاريخ كانت هناك شخصيّات جسّدت هذا المفهوم بكلِّ أبعاده في حياتها، فتحوّلت من عبادة الشّيطان والنّفس إلى عبادة الله تعالى وحده في وقفة حاسمة وجادّة مع النّفس بعزيمة راسخة في السّير نحو إصلاح ما فسد منها.

وكان لأولياء الله تعالى -ولا يزال- دور في جذب بعض القلوب المستعدَّة إلى خطّ الله تعالى، وكانوا الواسطة لقبول توبتهم، فهم السّبيل إلى الله تعالى والمسلك إلى رضوانه، ومن هؤلاء بِشْر الحافي الذي تاب إلى الله تعالى على يد الإمام الكاظم عليه السلام[٢]، ومنهم الحرُّ بن يزيد الرّياحيّ رضي الله عنه الذي انتقل من معسكر يزيد لعنه الله إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام واستشهد معه فكان من جملة أصحابه الذين لم يرَ عليه السلام أصحاباً خيراً منهم[٣].

والكلام يقع -إن شاء الله تعالى - في مطلبين:

المطلب الأوّل: صفات الحرّ الرّياحيّ.

المطلب الثّاني: دروس التّوبة النّصوح من موقف الحرّ الرّياحيّ رحمه الله.

المطلب الأوّل: صفات الحرّ الرّياحيّ رحمه الله

هناك عدّة صفات ذُكرت لشخصيّة الحرّ الرّياحيّ رضي الله عنه نستفيدها مما نُقِل في سيرته، ويمكن التّعرّف من خلالها على شيء من أسباب هذا التّوفيق الإلهيّ العظيم الّذي ناله الحرّ رضي الله عنه، وهو توفيق التّوبة ونصرة الإمام الحسين عليه السلام ومن تلك الصّفات الآتي:

الصّفة الأولى: الشّجاعة

وقد شهد لشجاعته المهاجر بن أوس حينما رآه يوم عاشوراء وقد أخذه مثل الأفكل (أي أنّه كان يرتعد) فقال له:

"واللهِ إِنَّ أَمْرَكَ لَمُرِيبٌ ولَوْ قِيلَ لِي مَنْ أَشْجَعُ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَمَا عَدَوْتُكَ فَمَا هَذَا الَّذِي أَرَى مِنْك.."[٤].

يعني لم تكن شجاعته عاديّة، بل إنّه -حسب كلام المهاجر- أشجع أهل الكوفة، وقد تجلّت أبعاد شجاعته الكبرى من خلال التحرّر من هوى القيادة، فانتقل من قيادته لجيش تبيّن له أنّه على الباطل، إلى جندي في صفوف ثلّة قليلة تبيّن له أنّها على الحقّ، وكان كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «وَأَشْجَعُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ هَوَاه»[٥]، فكانت شجاعتُه طريقَ توبته.

الصّفة الثّانية: الشّرافة في قومه

"كان الحرّ شريفا في قومه جاهليّة وإسلاماً"(٦)

ولما كان شريفاً عرف بأنّ الشّرف والسّؤدد ليس من أيٍّ كان وفي أيّ مكان، ولذا لم يرضَ لنفسه إلّا أن يكون ذا رفعة وقدر عند الإمام الحسين عليه السلام وذا شرفٍ عند الله تعالى، وهذا ما نتلمّسه من جوابه على المهاجر حينما رآه يرتعد فسأله: "فما هذا الّذي أرى منك؟! فقال له الحرّ: إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنّار، فوالله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو قُطّعت وحُرقت"(٧).

وبذلك تبيّن بأنّه شريف بحقّ، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**الشَّرِيفُ كُلُّ الشَّرِيفِ مَنْ شَرَّفَهُ عِلْمُهُ، وَالسُّؤْدُدُ حَقُّ السُّؤْدُدِ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ رَبَّهُ**»(٨).

إنَّ مثل هذه الصّفة قد تمنع بعض النّاس من اتّباع الحقّ، فكون الشّخص شريفاً في قومه قد يجعله يحابي قومه ويراعي مصالحهم وأهواءهم فتمنعه من اتّباع الحقّ ولو ظاهراً، بمعنى أنَّه قد يكون في باطنه متَّبعاً للحقّ ولكنّه لكي يحفظ شرافته في قومه لا يعلن اتّباعه للحقّ، بينما الحرّ الرّياحيّ رحمه الله على الرّغم من شرافته في قومه اتّبع الحقّ باطناً وظاهراً والتحق بالإمام الحسين عليه السلام لينال الشّرف الحقيقيّ في الدّنيا والآخرة.

الصّفة الثّالثة: تقديره واحترامه لمقام الإمام الحسين عليه السلام حتّى قبل توبته

أمّا تقديره للإمام عليه السلام قبل توبته فيظهر في موقفين:

الموقف الأوّل: تقديم الإمام الحسين عليه السلام للصّلاة، تقول الرّواية في وصف موقف الحرّ الرّياحيّ رحمه الله مع الإمام الحسين عليه السلام في أحد منازل الطّريق الّتي نزل بها

الإمام عليه السلام عندما حضرت صلاة الظهر: "فقال الحسين عليه السلام للحرّ: أتريد أن تصليَ بأصحابك؟ قال: لا، بل تصلّي أنت ونصلّي بصلاتك. فصلّى بهم الحسين عليه السلام"[٩].

إنَّ كون الحرّ قائداً لجيش مكوَّن من ألف فارس[١٠] من شأنه أن يجعله متكبِّراً مريداً للتّقدّم والزّعامة حتّى في مثل صلاة الجماعة، ولكنّه قدَّم الإمام الحسينَ عليه السلام لإمامة الصّلاة، احتراماً ومعرفةً منه بمكانته، وهو بذاك الموقع الشّامخ في نفوس المسلمين -وإن لم يعتقد كثير منهم بإمامته-.

الموقف الثّاني: احترامه السّيّدة الزّهراء عليها السلام أُمَّ الإمام الحسين عليه السلام:

تقول الرّواية في نقل الحوار الّذي دار بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الحرِّ الرّياحيّ في أحد منازل الطّريق:

"فقال الحسين عليه السلام للحرّ: «ثكلتْك أُمّك[١١] ما تريد؟!» فقال: أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل هذا الحال الّتي أنت عليها ما تركت ذكر أُمّه بالثّكل أن أقوله كائناً من كان، ولكن -والله- ما لي إلى ذكر أُمّك من سبيل إلّا بأحسن ما نقدر عليه!"[١٢].

وهذا التّعبيرُ منه بحقّ السّيّدة الزّهراء عليها السلام، يبيّن معرفته بمقامها، ولا يستبعد أن يكون هذا الودّ الّذي يحمله في قلبه للسّيّدة الزّهراء عليها السلام من أسرار توفيقه للتّوبة النّصوح.

هذا بالنّسبة إلى معرفته وتقديره للإمام الحسين عليه السلام قبل أن يتوب، وأمّا معرفته وتقديره للإمام عليه السلام بعد توبته فقد تجلّت في مواقف، منها:

الأوّل: عرف أنَّ طريق التّوبة يبدأ من الإمام المعصوم عليه السلام فعندما قرّر التّوبة قصد الإمام الحسين عليه السلام، وستأتي الإشارة إلى هذا في الدّرس الخامس من دروس

التّوبة الآتية في المطلب الثّاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الثاني: تقبيل الحرِّ الرياحي وابنه الأرضَ بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، فقد أشارت بعض النّقولات إلى أنّ الحرَّ مع ولده جاءا معاً إلى الإمام الحسين عليه السلام معلنين التّوبة، تقول الرّواية:

"ثمّ حملا كأنّهما يقاتلان حتى جاءا بين يدي الإمام، وقبّلا الأرض"(١٣).

وهذا يدلّ على عمق المعرفة بعظمة حقّ الإمام عليه السلام وسموّ مقام الإمامة.

الصّفة الرّابعة: معرفة الحقّ

رُوي أنَّ الحرَّ قال للإمام الحسين عليه السلام: "لَمَّا وَجَّهَنِي عُبَيْدُ اللهِ إِلَيْكَ خَرَجْتُ مِنَ الْقَصْرِ فَنُودِيتُ مِنْ خَلْفِي أَبْشِرْ يَا حُرُّ بِخَيْرٍ، فَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ أَحَداً، فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا هَذِهِ بِشَارَةٌ وَأَنَا أَسِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام ومَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِاتِّبَاعِك"(١٤).

قول الحرّ: "وَاللهِ مَا هَذِهِ بِشَارَةٌ وَأَنَا أَسِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام" يشير إلى أنَّه يعلم أنَّه لا خير في قتال الإمام الحسين عليه السلام، وأنَّ الحقّ مع الإمام عليه السلام.

معرفة الحقّ في نفسها أمر مطلوب ومحبوب وإن تقاعس الإنسان عن اتّباعه؛ فيرجى في العارف للحقّ أن يتّبعه في يوم من الأيّام، أمّا من جهل وفقد مثل هذه البصيرة فلا يرجى له الاتّباع يوما ما؛ إذ إنَّ المطلوب من الإنسان أمران: معرفة الحقّ واتّباعه، فنفس معرفة الحقّ والطّريق الصّحيح -ولو كانت خالية من العمل- جزء من المطلوب، فلو كانت هناك معرفة بالحقّ ولم يكن هناك اتّباع فإنَّ جزءاً من المطلوب قد تحقّق، وقد بقي الجزء الآخر وهو اتّباع الحقّ.

وقد ورد في الدعاء: "اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ وأَرِنِي الْحَقَّ حَقّاً حَتَّى أَتَّبِعَهُ وأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا حَتَّى أَجْتَنِبَهُ ولَا تَجْعَلْهُمَا عَلَيَّ مُتَشَابِهِين"(١٥).

هذه الصّفة -أي معرفة الحقّ- وإن كانت موجودة في غيره ممَّن قاتل الإمام الحسين عليه السلام كعمر بن سعد الذي يظهر من كلامه أنَّه كان يعرف أنَّ في قتل الإمام الحسين عليه السلام الإثم والذّمّ والنّار[١٦] ولكنّها ليست عند الجميع.

الصّفة الخامسة: فداؤه الإمام الحسين عليه السلام بولده

تقول الرّواية كما في ينابيع المودّة:

"**.. فجعل الحسين رضي الله عنه ينظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا يبارز أعداءه، فبكى بكاء شديدا وهو ينادي: «وا محمداه وا علياه وا حمزتاه وا جعفراه وا عباساه، يا قوم أما من معين يعيننا، أما من خائف من عذاب الله فيذبّ عنّا»**" ثم جعل يقول:

أنا ابن علي الطهر من آل هاشم	كفاني بهذا مفخر حين أفخر
وفاطم أمّي ثم جدّي محمد	و عمّي هو الطيار في الخلد جعفر
بنا بيّن الله الهدى عن ضلاله	وفينا الولاء للعوالم مفخر
وشيعتنا في الناس أكرم شيعة	وباغضنا يوم القيامة يخسر
فطوبى لعبد زارنا بعد موتنا	بجنّة عدن صفوها لا يكدر
إذا ما أتى يوم القيامة ظاميا	الى الحوض يسقيه بكفيه حيدر

فسمعه الحرّ بن يزيد الرياحي فقال لولده: "**إنّ الحسين يستغيث فلا يغيثه أحد، فهل لك نقاتل بين يديه ونفديه بأرواحنا، ولا صبر لنا على النار ولا على غضب الجبار، ولا يكون خصمنا محمد المختار؟**" قال ولده: "**والله أنا مطيعك**". ثم حملا كأنّهما يقاتلان حتى جاءا بين يدي الإمام، وقبّلا الأرض، وقال الحر: "**يا مولاي أنا الذي منعتك من الرجوع، والله ما علمت أنّ القوم الملاعين يفعلون بك ما فعلوا، وقد جئناك تائبين**" فحمل ولده على القوم، ولم يزل يقاتل حتى قتل منهم أربعة

وعشرين رجلا، ثم قتل رضي الله عنه، فاستبشر أبوه فرحا وقال: "الحمد لله الذي استشهد ولدي بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله"، [١٧].

إنَّ الحر الرياحي -كما في هذا النقل- قدّم ولده فداء للإمام الحسين عليه السلام، بل واستبشر فرحاً عندما استشهد. إنَّ هذه الصّفة ممّا يندر وجودها؛ فإنَّ عاطفة الأب وحبَّه لولده قد تغلبه حتّى على حساب طريق الحقّ. إنَّ هذه الصّفة تكشف عن قلب لم تكبّله الأهواء والدّنيا مع كونه حديث العهد بطريق الحقّ.

الصّفة السّادسة: كرمه وسخاؤه

كان من رجزه عندما خرج للقتال: "إنّي أنا الحرّ ومأوى الضّيف"[١٨].

قال الشّيخ القرشي رحمه الله: "لقد دلّل بهذا الرّجز على كرمه وسخائه وأن بيته كان مأوى للضّيوف وموطنا للقاصدين.."[١٩].

وشخصيّة بهذا المعدن السّخي لا يُمكن أن يقيَّدها نوع من العطاء ولذا أعطت النّفس فداء، فكانت نفسه كريمةً كلَّ الكرم بحقّ كما عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: "الكَرِيمُ مَنْ أَكْرَمَ عَنْ ذُلِّ النَّارِ وَجْهَهُ"[٢٠].

المطلب الثّاني: دروس التّوبة النّصوح من موقف الحرّ الرّياحيّ

إنَّ موقف الحرّ الرّياحيّ في يوم عاشوراء مليء بالدّروس العمليّة في التّوبة النّصوح، نذكر منها ما يلي:

الدّرس الأوّل: اليقظة

الخطوة الأولى المهمّة للوصول إلى مرتبة التّوبة النّصوح هي اليقظة والالتفات إلى عظم ما اقترفه الإنسان من الذّنب، وهكذا كان الحرُّ رضي الله عنه حيث تقول الرّواية:

"فَإِذَا الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ قَدْ أَقْبَلَ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَ: أَمُقَاتِلٌ أَنْتَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالَ: إِي وَاللهِ قِتَالًا أَيْسَرُهُ أَنْ تَطِيرَ الرؤوس، وَتَطِيحَ الْأَيْدِي. قَالَ: فَمَضَى الْحُرُّ وَوَقَفَ مَوْقِفاً مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَخَذَهُ مِثْلُ الْأَفْكَلِ، فَقَالَ لَهُ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَوْسٍ: وَاللهِ إِنَّ أَمْرَكَ لَمُرِيبٌ، وَلَوْ قِيلَ لِي مَنْ أَشْجَعُ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَمَا عَدَوْتُكَ فَمَا هَذَا الَّذِي أَرَى مِنْكَ؟ فَقَالَ: واللهِ إِنِّي أُخَيِّرُ نَفْسِي بَيْنَ الْجَنَّةِ والنَّارِ، فَوَ اللهِ لَا أَخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئاً ولَوْ قُطِّعْتُ وأُحْرِقْت"[٢١].

وقد قال الحر للإمام الحسين عليه السلام: «جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي حَبَسَكَ عَنِ الرُّجُوعِ وجَعْجَعَ بِكَ ومَا ظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ يَبْلُغُونَ مِنْكَ مَا أَرَى وأَنَا تَائِبٌ إِلَى الله تَعَالَى»[٢٢].

من الواضح في موقف الحرّ رحمه الله أنّه تيقّظ والتفت إلى ما فعله فكانت تلك هي الخطوة الأولى نحو التّوبة الصّادقة.

واليقظة هي التّفكّر في تعبير السّيّد الإمام الخميني قدس سره في كتابه (الأربعون حديثاً) حيث قال: "اعلم أن أول شرط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحق تعالى هو التفكر"[٢٣].

وإن كان رحمه الله في مقام بيان مقامات جهاد النّفس لا في خصوص موضوع التّوبة، ولكن يمكن الاستفادة مما ذكره في التّوبة.

وقد وردت الإشارة إلى اليقظة الّتي هي الخطوة الأولى في طريق التّوبة في دعاء التّوبة الوارد عن الإمام السّجّاد عليه السلام في الصّحيفة السّجّادية:

«هَذَا مَقَامُ مَنْ تَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الذُّنُوبِ، وقَادَتْهُ أَزِمَّةُ الْخَطَايَا، واسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَقَصَّرَ عَمَّا أَمَرْتَ بِهِ تَفْرِيطاً، وتَعَاطَى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ تَغْرِيراً. كَالجاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ، أَوْ كَالمنكِرِ فَضْلَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا انْفَتَحَ لَهُ بَصَرُ الهدَى، وتَقَشَّعَتْ عَنْهُ سَحَائِبُ الْعَمَى، أَحْصَى مَا ظَلَمَ بِهِ نَفْسَهُ، وفَكَّرَ فِيمَا خَالَفَ بِهِ رَبَّهُ، فَرَأَى كَبِيرَ عِصْيَانِهِ كَبِيراً وجَلِيلَ مُخَالَفَتِهِ جَلِيلًا»[٢٤].

إنَّها لحظة ثمينة من عمر الإنسان، تلك اللحظة التي يقف فيها مع نفسه متأمِّلاً فيما صدر منه، لائماً نفسه على عصيانه لربِّه ﷻ، تلك اللحظة التي يُخيِّر فيها نفسَه بين الجنّة والنّار كما كان الحرُّ الرّياحيّ، بين طريق الله تعالى وطريق الشّيطان، إنَّ مثل هذه اللحظات المصيريّة كفيلة بأن تصنع ناصراً من أنصار الإمام المعصوم كما صنعت الحرَّ الرياحيّ رضي الله عنه.

الدّرس الثّاني: النّدم

بعد أن يعلم الإنسان المذنب عظم ما ارتكبه من ذنب من خلال التأمّل والتّفكّر، تحصل عنده حالة النّدم على ما صدر منه، والنّدم هو روح التّوبة حيث ورد: "من ندم فقد تاب"[٢٥].

إنَّ النّدم على ارتكاب الذنب طريقٌ إلى الامتناع عن معاودته، كما ورد: "النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ يَمْنَعُ مِنْ مُعَاوَدَتِهِ"[٢٦].

وواضح من موقف الحر رحمه الله عليه تجسّد النّدم فيه، حيث أخذه مثل الأفكل، أي: أخذته الرّعدة، وهذا يعبّر عن عمق النّدم الذي كان يعيشه، تقول الرّواية:

"ثُمَّ ضَرَبَ فَرَسَهُ قَاصِداً إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام وَيَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِلَيْكَ أَنَبْتُ فَتُبْ عَلَيَّ، فَقَدْ أَرْعَبْتُ قُلُوبَ أَوْلِيَائِكَ وَأَوْلَادِ بِنْتِ نَبِيِّك"[٢٧].

إنَّ القلق والوجل والاضطراب علامة على النّدم وعلامة من علامات التّوبة الصّادقة، فبعد أن يصدر الذنب من العبد ذي الرّوح السّليمة فإنَّه يشعر بالضّيق والحزن، وإنَّ نفس هذا القلق والوجل علامة على سلامة الرّوح وعلامة على الإيمان، وقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنَّه قال: "مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ"[٢٨].

وذلك مثل بدن الإنسان الذي يتحسّس من دخول بعض الكائنات الحيّة الضّارة فيُبدي ردّة فعل تجاهها، أمّا بدن المريض الذي فقد المناعة ضدّ هذه الكائنات الضّارّة وكذلك بدن الميّت فإنَّهما لا يبديان أيَّ ردة فعل وحساسية لأيِّ ضرر يصيبهما.

إنَّ مثل ردّة الفعل هذه تقود الإنسان إلى التّوبة النّصوح بشرط أن يستغلَّها ويثبت عليها ويحقِّق بقية شرائط التّوبة، أمّا لو لم يتفاعل إيجابياً مع ردّة الفعل هذه وأهملها ولم يتب توبة صادقة نصوحاً، فإنَّ مثل هذه الحساسيّة وردّة الفعل قد تقل شيئاً فشيئاً بعد كلِّ مرة يعاود فيها الذنب إلى أن تختفي، وذلك بعد انغماسه في ارتكاب الذّنب ليصير ارتكاب الذّنب أمراً عاديّاً، ولا يرى المذنب نفسه حينها قد فعل أمراً قبيحاً.

الدّرس الثّالث: العزم واتّخاذ قرار التّوبة

بعد معرفة طريق التّوبة لا بدّ من العزيمة القويّة لسلوكه، فكثيرون يعرفون أنَّ طريق التّوبة هو الطّريق الذي لا بدّ من سلوكه ولكنَّهم في مقام العمل يتردّدون خوفاً على بعض المصالح، بينما الحرُّ قال:

"وَاللهِ إِنِّي أُخَيِّرُ نَفْسِي بَيْنَ الْجَنَّةِ والنَّارِ فَوَ اللهِ لَا أَخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئاً ولَوْ قُطِّعْتُ وأُحْرِقْت"[٢٩].

ثم اتّخذ القرار المصيريّ وأقبل نحو الإمام الحسين عليه السلام معلناً توبته بلا تردّد، تاركاً الدّنيا وما فيها، مع علمه بأنَّ مصير هذه التّوبة هي القتل والشّهادة.

فالتّائب الحقيقيّ هو الذي يتّخذ العزم على سلوك طريق التّوبة والالتزام بكلّ تبعاتها، فيعزم على ألّا يعود إلى الذّنب أبداً وهذه هي التّوبة النّصوح، وقد ورد في

الرّواية: عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: "قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾. قَالَ: هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَعُودُ فِيهِ أَبداً. قُلْتُ: وَأَيُّنَا لَمْ يَعُدْ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ الله يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُفَتَّنَ التَّوَّاب"[٣٠].

أمّا من يريد أن يتوب إلى الله تعالى وتحدِّثه نفسه بالعودة إلى الذّنب ولو لمرّة واحدة فهذه ليست توبة حقيقة نصوحاً.

قد يقول قائل: كلَّما تبتُ رجعتُ إلى الذّنب، إلى متى أظلّ أتوب ثمّ أرجع؟!

والجواب نجده في هذه الرّواية:

"قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَذْنَبْتُ. فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ الله. فَقَالَ: إِنِّي أَتُوبُ ثُمَّ أَعُودُ. فَقَالَ: كُلَّمَا أَذْنَبْتَ اسْتَغْفِرِ الله. فَقَالَ: إِذَنْ تَكْثُرُ ذُنُوبِي. فَقَالَ: عَفْوُ اللهِ أَكْثَرُ، فَلَا تَزَالُ تَتُوبُ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَدْحُور"[٣١].

هذه الرّواية بشارة لكلِّ من أراد التّوبة الصّادقة إرادة حقيقيّة، فهي تشير إلى أنَّ عاقبة مثل هذه التّوبات المتكرِّرة -بعد كلّ مرّة يرتكب فيها الذّنب- هي الانتصار على الشّيطان، بشرط أن تكون التّوبات في كلّ مرّة صادقة، وفي كلِّ مرّة يكون عزمه على عدم العود للذّنب صادقاً.

إنَّ العزم على ترك الذّنوب هو طريق السّلوك إلى الله تعالى وطريق تحصيل قربه، وقد سئل العارف الشّيخ محمد تقي بهجت قدس سره هذا السّؤال:

"إنّي عازم على تحصيل القرب من الله وعلى أن يكون لي سلوك إليه، فما السّبيل لذلك؟".

فكان الجواب:

"بسمه تعالى: إذا كان الطّالب صادقاً، فترك المعصية كافٍ ووافٍ للعمر كلّه، حتّى لو كان ألف سنة"(٣٢).

الدّرس الرّابع: الرّجاء بالله تعالى

واضح من موقف الحرِّ الرّياحيّ أنَّه كان يملك رجاءً بالله تعالى، فلم يصبه اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى رغم ما فعله، بل عزم على التّوبة وأقبل نحو الإمام الحسين عليه السلام معلناً توبته طالباً لها.

إنَّ باب التّوبة مفتوح إلى آخر لحظات عمر الإنسان فلا ينبغي اليأس أبداً، وقد جاء في الرّواية:

عَنِ ابْنِ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله أَوْ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ آدَمَ عليه السلام قَالَ يَا رَبِّ سَلَّطْتَ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وأَجْرَيْتَهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِ فَاجْعَلْ لِي شَيْئاً، فَقَالَ: يَا آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنَّ مَنْ هَمَّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ، ومَنْ هَمَّ مِنْهُمْ بِحَسَنَةٍ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَةً ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ -أَوْ قَالَ- بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ حَسْبِي»(٣٣).

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُول»(٣٤).

الدّرس الخامس: التّوبة من باب المعصوم عليه السلام

تفكّر الحرّ في حاله وقرّر أن يتخذ قرار التّوبة وعزم على ذلك، ثم تقول الرّواية: "ثُمَّ ضَرَبَ فَرَسَهُ قَاصِداً إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام"(٣٥).

إنَّه باب نجاة الأمّة وسفينة النّجاة ومصباح الهدى عليه السلام، وهذا درس آخر يعلّمنا إياه مدرّس التّوبة النّصوح الحرُّ الرّياحيّ، يعلّمنا بأنَّ الطّريق الواسع إلى

التّوبة هو أن تقصد الإمام الحسين عليه السلام، فإنَّ كلّ الخير في باب الحسين عليه السلام، فكانت توبة الحرِّ الرّياحيّ بدايتها من باب الإمام المعصوم عليه السلام.

جاء في الرّواية:

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَّاءِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ الله تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ فَوَجَدَهَا، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا»[٣٦].

والإمام الحسين عليه السلام باب رحمة الله تعالى، فهو كذلك أشدُّ فرحاً بتوبة العبد من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، لذلك بمجرد أن قال الحرُّ: «..فَهَلْ تَرَى لِي مِنْ تَوْبَةٍ..»[٣٧].

قال له الإمام الحسين عليه السلام: «نَعَمْ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْك»[٣٨].

وفي أمالي الشّيخ الصّدوق رحمه الله قال الإمام الحسين عليه السلام للحرّ: «نَعَمْ تَابَ اللهُ عَلَيْك»[٣٩].

ولعلّ التعبير بالفعل الماضيّ (تاب) الوارد في نقل الشّيخ الصدوق رحمه الله أكثر تأكيداً على قبول توبته، حيث إنَّ هذا التّعبير يدلّ على حصول التّوبة من الله تعالى عليه في الماضي عندما ندم وقرّر التّوبة، أمّا تعبير (يتوب) فهو فعل مضارع يدل على أنَّ التوبة سوف تُقبل منه أو أنَّها الآن للتو قُبلت.

إنَّ الاستغفار والتّوبة عن طريق التّوجّه إلى حجّة الله تعالى في الأرض وخليفته أدبٌ ودرسٌ علّمنا إيّاه القرآنُ الكريم، حيث يقول تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[٤٠].

وقد نُقلت قصّة في هذا المجال في أحد التّفاسير، والقصّة كالتّالي:

"قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله صلى الله عليه[وآله] وسلم بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وحثا على رأسه من ترابه، فقال: قلتَ يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، وقد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفر لي. فنودي من القبر أنه قد غفر لك"[٤١].

وقد ورد في الحديث عن الإمام الرضاعليه السلام: "إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله.."[٤٢].

وأيُّ شدّة أعظم من الذّنوب؟ فحَقَّ للإنسان المؤمن أن يستعين بأهل البيتعليهم السلام في قبول توبته.

إنَّ التّوبة من باب الإمام المعصومعليه السلام توبة مباركة ومقبولة؛ لذا عَدَّ الشّهيد الأوّلرحمه الله من آداب زيارة المعصومينعليهم السلام: "إحضار القلب في جميع أحواله مهما استطاع، والتّوبة من الذنب والاستغفار والإقلاع"[٤٣].

فما أعظم تلك الزّيارة لقبور الأئمّةعليهم السلام التي تقترن بالتّوبة الصّادقة، فتكون الزّيارة محطّةً ليقفَ المؤمن وقفة مع نفسه ويراجع ذنوبه وأخطاءه ليتوب عند قبرهعليه السلام، فيرجع بعد زيارته نقيّاً من الذّنوب عازماً على عدم العود إليها أبداً.

نعم، إنَّ الاستفادة من عنايات الإمام المعصومعليه السلام لها شرطان -كما ذكر أحد العلماء[٤٤]-:

الشّرط الأوّل: السّنخيّة بمعنى المشابهة مع هذه الذّوات المقدّسة، وإن كانت المشابهة والمقايسة والسّنخيّة معهم بشكل كامل غير ممكنة؛ فقد ورد في الرواية عن

أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ لَا يُقَاسُ بِنَا أَحَد"(٤٥)، ولكن يمكن إيجاد نحو من المشابهة والسّنخيّة معهم عليهم السلام بالمقدار المستطاع.

والشّرط الثّاني: رفع الموانع؛ فإنَّ بعض الأفكار والعقائد والأعمال والمعاصي تمنع من الاستفادة من فيوضاته عليهم السلام.

ثم بيّن حفظه الله بأنَّ الطريق إلى الاقتراب من المعصومين عليهم السلام الذين هم معدن الرّحمة والكمال والفيض يحصل بالتّوبة وبأداء الوظيفة الشّرعيّة؛ فإنَّ الشّابّ عندما يتوب يقذف صاحب الزمانّ عجل الله تعالى فرجه الشريف في قلبه النّور.

وما أجمل هذه العبارة من الشّيخ حسين الكورانيّ حفظه الله حيث يقول: "طهارة القلب -أيّها القلب- هي الطّريق إلى رحاب من أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً.."(٤٦)

الدّرس السّادس: تدارك ما فات

الحرُّ الرّياحيّ رضوان الله عليه لم يكتفِ بالتّوبة وطلبها من الإمام عليه السلام، بل أراد أن يتدارك ما فاته ويصلح ما مضى، تقول الرّواية:

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: نَعَمْ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْكَ فَانْزِلْ. فَقَالَ: أَنَا لَكَ فَارِساً خَيْرٌ مِنِّي لَكَ رَاجِلاً، وَإِلَى النُّزُولِ يَصِيرُ آخِرُ أَمْرِي، ثُمَّ قَالَ: فَإِذَا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ عَلَيْكَ فَأْذَنْ لِي أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ قَتِيلٍ بَيْنَ يَدَيْكَ لَعَلِّي أَكُونُ مِمَّنْ يُصَافِحُ جَدَّكَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله غَداً فِي الْقِيَامَةِ»(٤٧).

وإصلاح ما فات يكون بحسب الذّنب المرتكَب، وهذا ما فعله الحرُّ، فبما أنَّه كان أول من خرج على الإمام عليه السلام فأراد أن يكون أوّل قتيل بين يديه، وقد بيّن السيد ابن طاووس رحمه الله المراد من كونه أوّل قتيل، حيث قال رحمه الله: "إِنَّمَا أَرَادَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ الآنَ لأَنَّ جَمَاعَةً قُتِلُوا قَبْلَهُ كَمَا وَرَدَ"(٤٨).

ويؤكّد القرآن الكريم على مسألة (الإصلاح) وتدارك ما فات بعد التّوبة، حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤٩].

فهؤلاء الذين يكتمون الحقّ لا بدّ أن تقترن توبتهم بالإصلاح المتناسب مع الجرم الذي اقترفوه، وذلك من خلال العود إلى نشر الحقائق كما أشار لذلك صاحب تفسير الأمثل في تفسير الآيتين المذكورتين[٥٠].

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِهِ: "أَسْتَغْفِرُ الله": «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الِاسْتِغْفَارُ؟ الِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ، أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، والثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، والثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى الله [عزّ وجلّ] أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، والرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، والْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ ويَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، والسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ الله»[٥١].

فالتّائب الحقيقيّ لا يكتفي بالنّدم والعزم على ترك العود إلى الذّنب، بل عليه أن يتدارك ذنوبه السّابقة ويُصلح ما فسد منه، فيقضي ما فاته من الصّلاة والصّيام وغيرهما، ويدفع الكفّارات والحقوق الشّرعيّة الّتي في ذمته، ويراجع الحاكم الشّرعيّ (الفقيه) أو وكيله في مسألة الخمس، ويُرجِع الأموال والحقوق لأصحابها، ويسترضي من ظلمه، فقد ورد في الرّواية عن أبي عبدالله عليه السلام: «فَإِنَّ مَنْ كَسَرَ مُؤْمِناً فَعَلَيْهِ جَبْرُهُ»[٥٢].

قال المولى صالح المازندراني ﵀ في شرح هذا الحديث: "قوله: (من كسر مؤمنا فعليه جبره) إن كان كسره بإخراجه عن الدّين فعليه أن يدخله فيه بالإرشاد، وإن كان يكسر قلبه فعليه أن يرضيه"(٥٣).

الدّرس السّابع: الاعتراف بالذّنب بين يديّ الله تعالى

تقول الرّواية: "ثُمَّ ضَرَبَ فَرَسَهُ قَاصِداً إِلَى الْحُسَيْنِ﵇ ويَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ وهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِلَيْكَ أَنَبْتُ فَتُبْ عَلَيَّ فَقَدْ أَرْعَبْتُ قُلُوبَ أَوْلِيَائِكَ وأَوْلَادِ بِنْتِ نَبِيِّكَ، وقَالَ لِلْحُسَيْنِ﵇: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا صَاحِبُكَ الذي حَبَسَكَ عَنِ الرُّجُوعِ وجَعْجَعَ بِكَ ومَا ظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ يَبْلُغُونَ مِنْكَ مَا أَرَى، وأَنَا تَائِبٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَهَلْ تَرَى لِي مِنْ تَوْبَة"(٥٤).

إنَّ الاعتراف بالذّنب بين يديّ الله تعالى أمر مطلوب ومحبوب، وقد ورد عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ﵇ قَالَ: «واللهِ مَا يَنْجُو مِنَ الذَّنْبِ إِلَّا مَنْ أَقَرَّ بِهِ»(٥٥).

وورد في رواية أخرى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ﵇ قَالَ: «لَا وَاللهِ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَصْلَتَيْنِ: أَنْ يُقِرُّوا لَهُ بِالنِّعَمِ فَيَزِيدَهُمْ، وَبِالذُّنُوبِ فَيَغْفِرَهَا لَهُم»(٥٦).

قال العلّامة محمّد باقر المجلسيّ﵀ في شرح هذا الحديث: "والمراد .. بالإقرار بالذّنوب الإقرار بها مجملاً ومفصلاً، وهو ندامة منها، والنّدامة توبة، والتّوبة توجب غفران الذّنوب"(٥٧).

ويُفهم من كلامه ﵀ أنَّ المطلوب في الإقرار أن يكون تارة بشكل مُجمل بأن يُقِرَّ بأنَّه أذنب وأسرف على نفسه من دون تعداد الذّنوب، وتارة أخرى بشكل مفصَّل بأن يعدّدَ ذنوبه.

والحرّ الرّياحيّ أقرَّ بذنوبه بشكل مُجمل في نقلٍ، وبشكل مفصّل في نقلٍ آخر، أمّا كلامه الذي أقرّ فيه مجملًا فهو قوله للإمام الحسين﵇ كما في الأخبار

الطّوال:"قد كان مني الّذي كان، وقد أتيتك مواسياً لك بنفسي، أفترى ذلك لي توبة مما كان مني؟"[٥٨].

ويظهر الإقرار بشكل مجمل في قوله (قد كان منّي الّذي كان).

وأمّا كلامه الّذي أقرّ فيه مفصلًا لذنوبه فهو قوله للإمام الحسين عليه السلام كما في اللهوف:"قَدْ أَرْعَبْتُ قُلُوبَ أَوْلِيَائِكَ وَأَوْلَادِ بِنْتِ نَبِيِّكَ، وقَالَ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي حَبَسَكَ عَنِ الرُّجُوعِ وجَعْجَعَ بِكَ"[٥٩].

إنَّ الإقرار بالذّنوب طريق إلى الخروج منها، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّهُ وَاللهِ مَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ بِإِصْرَارٍ وَمَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ إلا بِإِقْرَارٍ»[٦٠].

وفي مقابل الإقرار بالذّنب قد يتكابر بعض النّاس من الاعتراف بالذّنب حتّى بينه وبين ربِّه، وبعضهم يُبرِّر ما فعله بمختلف التّبريرات حتّى يُقنِع نفسه أنَّه لم يذنب ولم يفعل سوءاً، أو أنّ ما فعله شيء بسيط، نعم ليس مطلوباً وليس صحيحاً أن يعترف المذنب بذنوبه أمام النّاس، وقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «وَالمُذِيعُ بِالسَّيِّئَةِ مَخْذُولٌ، وَالمُسْتَتِرُ بِالسَّيِّئَةِ مَغْفُورٌ لَه»[٦١]، ولكنَّه فيما بينه وبين ربِّه العالم بسريرته يحسُن منه الاعتراف والإقرار بالذّنب.

الدّرس الثّامن: الحرص على توبة الآخرين وهدايتهم

بعد أن تاب الحرُّ الرّياحيّ رضي الله عنه وانتهى من كلامه مع الإمام الحسين عليه السلام خطب خطبة في القوم فقال:

"يا أهل الكوفة! لأمّكم الهَبلُ والعُبر، إذ دَعَوْتموه حتّى إذا أتاكم أسلَمْتُموه! وزَعَمْتم أنّكم قاتلوا أنفسِكم دونه، ثم عَدَوْتُم عليه لتقتلوه! أمْسكتم بنفسه وأخذتم

بكَظْمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجّه في بلاد الله العريضة حتّى يأمنَ ويأمن أهلُ بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً، وحلأتموه ونساءَه وصبيتَه وأصحابَه عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهوديّ والمجوسيّ والنصرانيُّ، وتمرَّغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم أُلاء قد صرعهم العطش، بئسما خَلَفْتم محمّدًا في ذريته! لا سقاكم الله يوم الظّمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه"[٦٢].

وبالفعل كان لكلام الحرِّ الرّياحيّ تأثير في أحد الأشخاص وهو يزيد بن زياد بن المهاصر فهو ممّن اهتدى يوم عاشوراء بخطبة الحرّ الرّياحي[٦٣].

إنَّ التّائب الّذي ذاق حلاوة التّوبة وطمأنينة النّفس وراحتها الّتي عاشها بعد عودته إلى ربِّه الرّحيم تعالى يسعى إلى دعوة الآخرين إلى الرّجوع إلى الله تعالى وإلى سلوك طريق التّوبة، وهذا واضح من خطبة الحرِّ الرّياحيّ السّابقة حيث قال لهم: "..لا سقاكم الله يوم الظّمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه.."[٦٤].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «أَوْحَى اللهُ عزّ وجلّ إِلَى مُوسَى عليه السلام: حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، وَحَبِّبِ الخَلْقَ إِلَيَّ. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلَائِي ونَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي، فَلَأَنْ تَرُدَّ آبِقاً عَنْ بَابِي أَوْ ضَالًّا عَنْ فِنَائِي أَفْضَلُ لَكَ مِنْ عِبَادَةِ مائَةِ سَنَةٍ بِصِيَامِ نَهَارِهَا وقِيَامِ لَيْلِهَا، قَالَ مُوسَى عليه السلام: ومَنْ هَذَا الْعَبْدُ الْآبِقُ مِنْكَ، قَالَ: الْعَاصِي الْمُتَمَرِّدُ، قَالَ: فَمَنِ الضَّالُّ عَنْ فِنَائِكَ، قَالَ: الجاهِلُ بِإِمَامِ زَمَانِهِ فَيَعْرِفُهُ، والْغَائِبُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَرَفَهُ الجاهِلُ بِشَرِيعَةِ دِينِهِ، وبِمَنْ يُعَرِّفُهُ شَرِيعَتَهُ، ومَا يَعْبُدُ بِهِ رَبَّهُ، ويَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ»[٦٥].

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٦٦].

وورد في رواية أخرى: «عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ أَمِيرُ المؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله إِلَى الْيَمَنِ وقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ لَا تُقَاتِلَنَّ أَحَداً حَتَّى تَدْعُوَهُ، وأَيْمُ اللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وغَرَبَتْ ولَكَ وَلَاؤُهُ يَا عَلِيُّ»[٦٧].

آثار توبة الحرّ:

بعد هذا الموقف البطوليّ من الحرِّ الرّياحيّ رضوان الله عليه وعندما قُتِل جازاه الإمام الحسين عليه السلام بأربعة أمور (كما تذكر النّقولات المختلفة) وهي:

أوّلاً: وضع الإمام الحسين عليه السلام رأسه في حجره:

تقول الرّواية: "..ثمّ حمل عليهم فقتل منهم خمسين رجلاً، ثم قتل رضي الله عنه، واجتزوا رأسه ورموه نحو الإمام، فوضعه في حجره.."[٦٨].

ثانياً: بكاء الإمام الحسين عليه السلام عليه:

تقول الرّواية: "..فوضعه في حجره وهو يبكي ويمسح الدّم عن وجه.."[٦٩].

ثالثاً: مسح الإمام الحسين عليه السلام التّراب عن وجهه:

تقول الرّواية كما ذكرها السّيّد ابن طاووس: "..ثُمَ اسْتُشْهِدَ فَحُمِلَ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام فَجَعَلَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِه.."[٧٠]. وفي نقل ينابيع المودّة السّابق نفسُ المعنى.

رابعاً: رثاء الإمام الحسين عليه السلام له

تقول الرّواية حسب نقل ابن طاووس: "... يَقُولُ [أي الإمام الحسين عليه السلام] أَنْتَ الْحُرُّ كَمَا سَمَّتْكَ أُمُّكَ حُرّاً فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ.."[٧١].

وفي نقل ينابيع المودة قال الإمام الحسين عليه السلام في رثائه: "والله ما أخطأت أمّك إذ سمّتك حرا، فأنت والله حر في الدنيا وسعيد في الآخرة وهو يقول:

فنعم الحرّ حرّ بني رياح صبور عند مشتبك الرماح
ونعم الحرّ إذ واسا حسينا وجاد بنفسه عند الصفاح
لقد فازوا الذي نصروا حسينا وفازوا بالهداية والصلاح"(٧٢)

وإن كان المقرّم صاحب المقتل نقل خلافاً في كون الرّاثي له الإمام الحسين عليه السلام أو علي بن الحسين عليه السلام أو رجل من أصحاب الحسين عليهم السلام(٧٣).

أيُّ عظمةٍ نالها هذا العبد الصّالح حتّى فعل الإمام المعصوم عليه السلام حجّة الله في أرضه كلَّ هذا معه؟!

حقَّ للمؤمن التّائب السّائر على طريق الحرِّ الرّياحيّ أن يرجو مسحةً ونظرةً من تلك اليد الطّاهرة لسيّد الشّهداء في ساعات الاحتضار وفي عرصات القيامة..

خاتمة:

إنَّ كلَّ موقف من مواقف واقعة عاشوراء تضمّن دروساً كثيرة لعشّاق الحقّ، ويمكن للمتأمّل في هذه المواقف -ومنها موقف الحرِّ الرّياحيّ- أن يستخلص دروساً عديدة في مختلف المجالات، وما ذُكر في هذا البحث كان منصبّاً على درس التّوبة النّصوح حيث إنَّ الحرّ الرّياحيّ كان المدرِّس الأبرز فيها في يوم عاشوراء، ويمكن للمتأمّل أن يجد دروساً أخرى في التّوبة وغيرها من نفس موقف الحرّ الرّياحيّ.

الهوامش:

(١) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، الشّيخ الطّوسيّ، ج٢، ص ٥٩١.

(٢) نقل قصّته العلامة الحلّيّ في كتابه منهاج الكرامة قائلاً: "وعلى يده [أي الإمام الكاظم عليه السلام] تاب بشر الحافي؛ لأنّه عليه السلام اجتاز على داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جارية وبيدها قمامة البقل، فرمت بها في الدرب؛ فقال لها: يا جارية! صاحب هذه الدار حرّ أم عبد؟ فقالت: بل حرّ فقال: صدقت؛ لو كان عبدا خاف من مولاه! فلمّا دخلت قال مولاها وهو على مائدة السّكر: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتّى لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب على يده". منهاج الكرامة، ص٥٩.

(٣) جاء في خطبته عليه السلام ليلة عاشوراء أنه قال: "..أما بعد؛ فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً.." وقعة الطف لأبي مخنف، تحقيق الشّيخ محمّد هادي اليوسفيّ الغرويّ، ص٢٢٧.

(٤) اللهوف للسّيّد ابن طاووس، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٥) معاني الأخبار للصّدوق، ص١٩٥، ح١.

(٦) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، للشّيخ السّماويّ، ص٢٠٣.

(٧) الإرشاد للمفيد، ج٢، ص٩٩.

(٨) بحار الأنوار للمجلسيّ، ج٧٥، ص٨٢، ح٨٢.

(٩) وقعة الطف لأبي مخنف، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، ص١٩٧.

(١٠) "وكان الحرّ في الكوفة رئيساً ندبه ابن زياد لمعارضة الحسين عليه السلام، فخرج في ألف فارس". إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، للشيخ السماوي، ص٢٠٣.

(١١) "..في الحديث: أَنه قال لبعض أَصحابه ثَكِلَتْك أُمُّك أَي فَقَدتْك؛ الثُّكْل: فقد الوَلد كأَنه دعا عليه بالموت لسوء فعله أَو قوله، والموت يعمُّ كل أَحد فإِذاً هذا الدعاء عليه كلا دعاء، أَو أَراد إِذا كنت هكذا فالموت خير لك لئلَّا تزداد سوءاً؛ قال: ويجوز أَن يكون من الأَلفاظ التي تجري على أَلسنة العرب ولا يراد بها الدعاء كقولهم: تَرِبَتْ يَداك وقاتَلك الله.." لسان

العرب لابن منظور، ج١١، ص٨٩.

(١٢) وقعة الطف لأبي مخنف، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، ص١٩٨.

(١٣) ينابيع المودة، القندوري، ج٣، ص٧٦ .

(١٤) مثير الأحزان، لابن نما الحلي، ص٥٩-٦٠.

(١٥) فلاح السائل ونجاح المسائل، للسيد ابن طاووس، ص٢٥٤.

(١٦) جاء في (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، ج٤، ص٥٢-٥٣: "**.. فلمّا كان من أمر الحسين ما كان دعا ابن زياد عمر بن سعد وقال له: سر إلى الحسين فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه سرت إلى عملك. فاستعفاه. فقال: نعم، على أن تردّ عهدنا. فلمّا قال له ذلك قال: أمهلني اليوم حتى انظر. فاستشار نصحاءه فكلّهم نهاه، وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة، وهو ابن أخته، فقال: أنشدك الله يا خالي أن تسير إلى الحسين فتأثم وتقطع رحمك، فو الله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك خير من أن تلقى الله بدم الحسين! فقال: أفعل. وبات ليلته مفكّرا في أمره، فسمع وهو يقول:**

أأتـــرك ملـــك الـــرّيّ والـــرّيّ رغبـــة أم ارجـــع مـــذموما بقتـــل حـــسين

وفي قتلـــه النـــار الـــتي لـــيس دونهـــا حجـــاب وملـــك الـــرّيّ قـــرّة عـــين..."

(١٧) ينابيع المودة، القندوزي، ج٣، ص٧٥-٧٦.

(١٨) الفتوح، ابن أعثم، ج٥، ص١٠١.

(١٩) حياة الإمام الحسين عليه السلام، القرشي، ج٣، ص٢٢١.

(٢٠) بحار الأنوار للمجلسي، ج٧٥، ص٨٢، ح٨٢.

(٢١) اللهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس، ص١٠٢-١٠٣.

(٢٢) نفس المصدر.

(٢٣) الأربعون حديثاً للإمام الخميني، الحديث الأول، ص٣٢.

(٢٤) الصحيفة السّجّادية، من دعائه في ذكر التّوبة وطلبها.

(٢٥) غرر الحكم، ص٥٨٣.

(٢٦) ن.م، ص٧٥.

(٢٧) اللهوف لابن طاووس، ص١٠٣.

(٢٨) الكافي، ج٢، ص٢٣٢.

(٢٩) نفس المصدر.

(٣٠) الكافي، ج٢، ص٤٣٢.

(٣١) إرشاد القلوب إلى الصواب (للديلمي)، ج١، ص٤٦، "**.. مَدْحُوراً أي: مطروداً**" كتاب العين، ج٣، ص١٧٧.

(٣٢) الناصح، الشيخ محمد تقي بهجت، ص٣٢٥.

(٣٣) الكافي، ج٢، ص٤٤٠.

(٣٤) نهج البلاغة، ص٤٩٤.

(٣٥) اللهوف على قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس، ص١٠٣.

(٣٦) الكافي، ج٢، ص٤٣٥.

(٣٧) اللهوف، ص١٠٣.

(٣٨) نفس المصدر.

(٣٩) الأمالي (للصدوق)، ص١٥٩.

(٤٠) سورة النساء: ٦٤.

(٤١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٥، ص٢٦٥ – ٢٦٦، ونقلت قصة أخرى شبيهة ولكن ظاهرها أنّ قدوم الأعرابي كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله (الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١، ص٢٨).

(٤٢) تفسير العياشي، ج٢، ص٤٢.

(٤٣) الدروس الشرعية في فقه الإمامية، ج٢، ص٢٤.

(٤٤) وهو السيد عبدالله فاطمي نيا في كتاب: نكته ها از گفته ها (باللغة الفارسية)، دفتر أول، ص١٦١، وما ذكر في الأعلى مضمون كلامه حفظه الله.

(٤٥) عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٦٦.

(٤٦) مناهل الرجاء.. أعمال شهر شعبان، ص٢٨٩.

(٤٧) اللهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس، ص١٠٣– ١٠٤.

(٤٨) نفس المصدر.

(٤٩) سورة البقرة: ١٥٩–١٦٠.

(٥٠) تفسير الأمثل، ج١، ص٤٥٨.

(٥١) نهج البلاغة، ص٥٤٩-٥٥٠.

(٥٢) الكافي، ج٢، ص٤٥.

(٥٣) شرح الكافي، ج٨، ص١٣٥.

(٥٤) اللهوف علىٰ قتلىٰ الطفوف، ص١٠٣.

(٥٥) الكافي، ج٢، ص٤٢٦.

(٥٦) نفس المصدر.

(٥٧) مرآة العقول، ج١١، ص٢٨٣.

(٥٨) الأخبار الطوال، ابن قتيبة الدينوري، ص٢٥٦.

(٥٩) اللهوف علىٰ قتلىٰ الطفوف، ص١٠٣.

(٦٠) الكافي، ج٢، ص٤٢٦-٤٢٧.

(٦١) الكافي، ج٢، ص٤٢٨.

(٦٢) وقعة الطف لأبي مخنف، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، ص٢٤٨.

(٦٣) نفس المصدر.

(٦٤) نفس المصدر.

(٦٥) مجموعة ورام، ج٢، ص١٠٨.

(٦٦) بحار الأنوار (ط - بيروت) ، ج١، ص١٨٤، "وحُمْرُ النَّعَمِ: كرائمُ الإبلِ؛ لأَنّ حُمُرَهَا أَفضلُها عندهم ولمّا كانت أَنْفَسَ أَموالهم جعلوها مثلًا لكلِّ نفيسٍ". (الطراز الأول والكناز لما عليه من لغة العرب المعول، لعلي خان المدني، ج٧، ص٣٢٣).

(٦٧) الكافي (ط - الإسلامية)، ج٥، ص٢٨.

(٦٨) ينابيع المودة، القندوزي، ج٣، ص٧٦.

(٦٩) نفس المصدر.

(٧٠) اللهوف علىٰ قتلىٰ الطفوف، ص١٠٤.

(٧١) نفس المصدر.

(٧٢) ينابيع المودة، القندوزي، ج٣، ص٧٦ -٧٧.

(٧٣) مقتل الحسين عليه السلام، المقرم، ص٢٥٥.

حقيقَة القِيام لنُصرَة دِين اللّه

الشّيخ حسين عبدالله الأعرج

الملخّص:

يتعرّض الكاتب في مقالته إلى أهمّيّة نصرة دين الله في بنائه وبقائه، فيشير إلى تلك الأهمّيّة في الكتاب والسّنّة وكيفيّة مقابلتها عند حصولها، ثمّ يبيّن ممهّدات وعوامل نصرة الدّين في القرآن، ثمّ يذكر العناصر الّتي تحول بين نصرة الدّين وبين من يريد أن ينصره وذلك بالإشارة إليها في الآيات القرآنيّة.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، النَّوع الإنسانيّ في مسيرٍ إلى نقش السَّعادة في كلِّ قطعة زمانيَّة ومكانيَّة، وإذا كان كلُّ مجموعة بشريَّة لها ديانة تَدين بها وتتقلَّب عليها في الشؤون الحياتيَّة والمعيشيَّة، فعلى ذلك لا يخلو اعتقادُ كلِّ مُعتقِدٍ بصحَّة[١] وسلامة ما عليه اعتقاداته وديانته.

والتَّسليم بضرورة إيجاد دينٍ ليُصلح أمور الحياة، ويجعل القوانين الآخذة بالحقّ والرَّافعة للظُّلم تنطقها فطرة الإنسان الأصليَّة، وما كان من الأنبياء والمرسَلين إلّا أنَّهم سلَّموا النَّاس الدِّين الإلهيّ كنِظامٍ شاملٍ وكامل ووافر باحتياجات البشر كلّها.

والدِّين الإلهيّ الخاصّ بآخر زمان هو الإسلام، والقرآن يلهج بقدرة الدِّين الإسلاميّ على مقابلة الحاجَة والنَّقص بالسَّداد والإكمال، وللإسلام أيضاً مرونة استيعابيَّة في رسم حُكم لكلِّ واقعةٍ وقضيَّة.

والأكثر من إرادة المولى بالتَّسليم والتَّصديق بالدِّين الإلهي هو القِيام لنصرة دين الله عزّ وجلّ، والنُّصرة حسنُ إعانةٍ على تشييد أركان الدِّين من المُعتقدات والولاية وأداء المفروضات وتنمية الأخلاق وغيرها.

فعن الإمام الحسين عليه السلام في قوله -لِلفَرَزدَقِ الشّاعِرِ-:

«يا فَرَزدَقُ! إنَّ هؤُلاءِ قَومٌ لَزِموا طاعَةَ الشَّيطانِ وتَرَكوا طاعَةَ الرَّحمنِ،...، وأنَا أولى مَن قامَ بِنُصرَةِ دينِ اللهِ وإعزازِ شَرعِهِ»[٢].

وعندما يتولَّى إمام الأمَّة المعصوم عليه السلام قيادة النَّاس، وسلكهم طريق القيام

لنصرة الدِّين فهذا يدلّ على خطورة وعظمة هذا الفرض، وما يشير إلى أعمق من ذلك هو أنَّ الإمام الحسين عليه السلام أثبَت لنفسه أولويـَّة القِيام لنصرة الدِّين، والنّتيجة من ذلك هو ثِقل الأمر ورجحان ذلك بكلِّ المقاييس فلا دواعي للاستِخفاف والانتقَاص ممّن ينتَصر لدينِه على وجه الأرض.

والإنسان الـمؤمن ومِن قبله المعصوم عليه السلام علىٰ وثوق وتيقُّن من مجيء النَّصر من الله عزّ وجلّ جاعل العزَّة للمؤمنين والحِكمة في جميع أفعاله.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٣].

وهذا البحث هو قراءة لآيات الكتاب العزيز والرِّوايات الشَّريفة عن حيثيّات (نُصرة الدِّين) وما يدور في فَلَكه من العوامل والـموانع والنَّتائج.

وإنَّ بذرة التَّفكير في ماهيَّة الدِّين تنشأ من وجود الكَون الـمُحاط بوجود الإنسان، فنجد الإنسان محاولاً تفسير الكَون وظواهره وعلاقته به وتأثيراته عليه، إذ إنَّ ما على الكَون مِن خَلْقٍ عظيم وإبداعٍ رائع وضخامة أفلاك وأسرارٍ، في بطونها خَزائن عِلميَّة يستوجب على الإنسان أن يصنع نفسَه ويضعها على الموقع اللائق به تجاه كلّ ذلك.

وذلك من حيث إنَّ تلك العَظَمة لا تنمّ إلّا عن قُدرةٍ مُذهلةٍ لا مثيل لها قد أوجَدَها، وعليه يجعل الإنسانُ له نوعاً من النّمط التَّفكيريّ العقيديّ تجاه هذه القوَّة؛ والنَّتيجة تكون بأنَّ الإنسان الشَّاعر مُـجبَرٌ على التَّديُّن أي التَّخضُّع والتذلُّل والانقيَاد للرّبّ.

وقبل الخوض في تفاصيل البحث ننطلق من إيراد عَدَدٍ من البحوث التمهيديَّة التي تُبوِّب لدى القارئ النُّكات والفوائد الـمنظُورة من آيات الكتاب العزيز والرِّوايات الشَّريفة.

أوّلاً: معاني المفردات في اللُّغة

كلمة (النَّصر)

النَّصر خلاف الخِذلان، والنَّصر مصدر وأمَّا اسم المصدر فهو النُّصرة، والأصول اللغويَّة تشير إلى أنَّ النَّصر والنُّصرة ترجع معانيها إلى الإغاثة[٤] وحُسْن المَعونة[٥]، ومن المشتقَّات المذكورة هي الانتِصار والاستِنصار والمُناصرة، ومعانيها هي في معنى الأصل وذلك بضمّ الدَّلالة الصَّرفيّة للصِّيغة.

ونجد في معجم مقاييس اللّغة أنَّ معنى (النَّصر) قد عُمِّم ليكون النَّصر دالًّا على إتيان خَيرٍ وإيتائِه[٦].

كلمة (الدِّين)

الدِّين مِن دَانَ الشَّيء أي أذلَّه واستَعْبَده[٧]، ونسبة الدِّين إلى الله ﷻ يُصيِّرُ معناه الطَّاعة والتّعبُّد له، والأصول اللُّغوية زاخرة بشتَّى المفرداتَ لمعنى الدِّين، كالجزاء والحسَاب والعَادة، وبالتّأمُّل فيها فهي مصاديق آيلة إلى الأصل، وعصارة القول أنَّ للدِّين معنىً يبتني على الخضوع[٨] والانقياد[٩].

ثانياً: معاني المفردات في الاصطلاح

كلمة (النَّصر)

ذُكر في كتاب تحقيق كلمات القرآن أنَّ النَّصر: "هو إعانة في قِبال مُخالف"[١٠]، وأمَّا السَّيّد الطّباطبائي﵀ له إشارة أعمَق في تعريف النَّصر وهي كالتّالي: "النَّصر إنّما يكون فيمَا إذا كان للمنصُور قوَّة ما لكنَّها لا تكفي لدفع الشَّرّ فتَتُّم بالنَّصر"[١١].

كلمة (الدِّين)

واتَّفق الشّيخ مكارم الشّيرازي والسّيّد الطّباطبائي رحمهما الله في أنَّ الدِّين يستند إلى حزمة معارف عقيديَّة بالدّرجة الأُولى، ففي تفسير الأمثل الدِّين هو: "مجموعة العَقائد والقَواعِد والآداب التي يستطِيع الإنسان بها بُلوغ السَّعادة في الدُّنيا، وأنْ يخطو في المَسير الصَّحيح من حيث التَّربية والأخلاق الفرديَّة والجماعيَّة"[١٢].

وأمَّا تفسير الميزان فعلاوة على التَّعريف أدناه فقد ربط صاحب التَّفسير في كتابه بين (الدِّين) و(وجود الإنسان) من حيثيَّة الحاجَة[١٣]، والتّعريف هو: "الدِّين مَجموع مركَّب من معارف المبدأ والمعاد، ومن قوانين اجتماعيَّة من العِبادات والمعاملات مأخوذة من طريق الوحي والنُّبوة"[١٤].

ثالثاً: مفهوم الدِّين في الكِتاب والسنَّة

نجد في القرآن الكريم والرِّوايات حديثاً عن ماهيَّة الدِّين وذكراً عن مشخّصَّاته، وهذا لا يمكن أن يُتغافل عنه ونحن في بحث عن حقيقة نصرة الدِّين الإسلامي، فالقرآن هو كتاب الله عزّ وجلّ منه نفهم المعاني الأصيلة، والرِّوايات أيضاً تعطينا بعض التَّفاصيل عمَّا أُجمل في الآيات.

والتعريف الشَّرعيّ المختصر لـ (الدِّين) هو الإسلام أي التَّسليم، والتَّسليم يكون للخالِق لا لسُلطان الحُكم مثلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾[١٥]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ»[١٦] ومن الآية نعرف وجود أديان أخرى ليست عند الله سبحانه وتعالى، أي يوجد انقيَادٌ وخضُوع لأناس لكن خضوعهم وتذلّلهم موجَّه لسلاطين الأرض وما شابه ذلك، وهذا المضمون موجود في التّاريخ بأنَّ النَّبي محمّد صلى الله عليه وآله بُعث والجاهليَّة كانت على شرِّ دين.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ندرك أنَّ حقيقة الدِّين لا تتخندق في إسلامٍ فقط، بل أنَّ الدِّين بمعنى وجوب خضوع الإنسان لخالِقه ورازقِه يسبق وجود الإنسان ويلحقه على كلّ حال، والدِّين عندما يستقرُّ في القلب فهو بذلك قد سلَّم، وعند العمل بالدِّين فهذا هو الإيمان.

الإمام علي عليه السلام: «**دِينُ الله اسمُهُ الإسلامُ، وهو دِينُ الله قبلَ أنْ تَكونوا حيثُ كُنتُم، وبَعدَ أنْ تكونوا، فمَن أقَرَّ بدينِ الله فهُو مسلِمٌ، ومَن عَمِلَ بما أمرَ الله عزّ وجلّ بهِ فهُو مؤمنٌ**»[١٧].

ومن الأحاديث العجيبة أنَّ مِن أصحاب الأئمّة عليهم السلام كان يذهب ويطلب من الإمام معرفة ماهيَّة دين الله جلّ جلاله أو يتشرّف بحضوره عند الإمام ويسأله عن الدِّين المرضيّ عند الله.

الإمامُ الباقرُ عليه السلام لَمّا قالَ أبو الجارودِ لَهُ: -أخبِرْنِي بدِينِكَ الذي تَدِينُ الله عزّ وجلّ بهِ أنتَ وأهلُ بَيتِكَ لِأدِينَ الله عزّ وجلّ بهِ-:

«**إن كُنتَ أقصَرْتَ الخُطبَةَ فقد أعظَمْتَ المَسألَةَ، والله لَأعطِيَنَّكَ دِينِي ودِينَ آبائي الذي نَدِينُ الله جلّ جلاله بهِ: شهادةُ أن لا إلهَ إلّا الله، وأنَّ محمّداً رسولُ الله صلى الله عليه وآله والإقرارُ بما جاءَ بهِ مِن عندِ الله، والوَلايةُ لِوَلِيِّنا، والبَراءةُ مِن عَدُوِّنا، والتّسليمُ لِأمرِنا، وانتِظارُ قائمِنا، والاجتِهادُ، والوَرَعُ**»[١٨].

والإمام في الحديث قد فسَّر الدِّين وفصَّل ما يقوم عليه من أركان، فشهادة التَّوحيد والرِّسالة والإيمَان بالكتاب والوِلاية والبراءة من أوتَاد الدِّين.

وفي حديث آخر يوضِّح الإمام عليه السلام أقلّ ما يُقبل من الدِّين ولا يُسمح بجهله من قبل الإنسان المتديّن.

الكافيّ عن عليِّ بنِ أبي حمزَةَ عن أبي بصيرٍ، قال: سمعتُهُ يسألُ أبا عبدالله عليه السلام فقالَ له: "**جُعِلتُ فِداكَ أخبِرْني عنِ الدِّينِ الذي افتَرَضَ اللهُ عَلى العبادِ ما لا يَسَعُهُم**

جَهلُهُ، ولا يُقبَلُ مِنهُم غيرُهُ ما هو؟

فقالَ: «شهادةُ أن لا إلهَ إلّا الله، وأنّ محمّداً رسولُ اللهﷺ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وحجُّ البيتِ مَنِ استَطاعَ إلَيهِ سبيلاً، وصومُ شَهرِ رمضانَ. ثُمّ سَكَتَ قليلًا ثُمّ قالَ: والوَلاية ـ مَرّتَينِ ـ»[١٩].

وكذلك نجد أنّ العبد الصّالح عبد العظيم الحسَنيّ قد عَرَض دينَه على الإمامعليه السلام فراجع المصدر[٢٠].

رابعاً: أهميَّة نصرة دين الله في النُّصوص الدينيَّة

لا يسع المخلوق والنَّوع البشري العامّ أن يتحرَّر وينسلخ من أيّة جهة دينيَّة ينتمي إليها، وإلّا رمى بنفسه في حظيرة الحيوانات الّتي رأس مالها الأكل والشُّرب والتَّناسل، بل إنّ الإنسان له أن يجلي ضميره الحيّ من دفائن التغلغُل المادِّي ليقدِّم اعترافَه بلزوم التديُّن واعتناق ديانة ما، ولا يروي الكمال المنشود إلّا دينٌ إلهيّ.

وبعد الاقتناع بحتميَّة الانخراط والانقياد في دينٍ إلهيّ، يرى ضرورةَ مناصرة الدِّين المتَّبع؛ حيث إنَّه لم يسير بتعاليمه إلّا لتصديقه على الأقل بصحَّة ورجحَان دينه على غَيره، فهو بذلك يدعو إلى تكثِير الأفراد للدّخول تحت مظلَّة الدِّين لينعم بما ينعم به هو مِن الأمن والاستقرار والسَّكن الروحيّ والثَّبات المعنويّ.

وكتاب القرآن قد أوجد الحتميَّة للنُّصرة لأوليائه من الرُّسل، حتَّى بعد تعاظُم الظَّنّ باليأس وتضاؤل الأمل، فهو بهذا يجعل الأولويَّة القصوَى لنُصرة من يُناصر دينَ اللهعزّ وجلّ، ومبدأ تقديم النَّصر لمُناصِر الدِّين قد جُعل في غاية الأهميَّة، وعليه تظهر الإرادة المولويَّة وطلبه في السَّعي لإظهار النُّصرة الدينيَّة أينمَا اقتَضَت.

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾[٢١].

وفي حديثٍ رائع لأمير المؤمنين عليه السلام، قد أورد العلَّة من حثِّه الناس على الدين والتّمسُّك به، ونجد كيف كان خطاب الأمير عليه السلام بالنِّداء ليَكسب استماعَ النَّاس له، وأيضاً نلحظ تعاقب كلمة (دِينَكُمْ) مرَّتين، وكلّ تلك الأدوات ما هي إلّا لبيان خَطر الدِّين وضرورة التّجلبُب به في كلِّ حال.

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ دِينكُمْ دِينكُمْ!! فَإِنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الحسَنَةِ فِي غَيْرِه، وَإِنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ تُغْفَرُ، وَإِنَّ الحسَنَةَ فِي غَيْرِه لَا تُقْبَلُ»[٢٢].

ونعود بالقول بأنَّ الأهميَّة المتعلِّقة بشيءٍ ما يتنزَّل منها ذاتيًّاً المبادرة لنصرته وإحقَاق الأمر المُهمّ، ومكانة الدِّين اللائقة لا تُجعل في بوتقةٍ وتُغلق! بل إنَّ محلّ الدِّين في التّنبُّه لحيثيَّاته والتَّيَقُّظُ له في القَول والفِعل وقبل ذلك في الضَّمير والقَلب والاعتِقاد.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «التَّيَقُّظُ في الدِّينُ نِعمَةٌ على مَن رُزِقَهُ»[٢٣].

ومن الحديث عرفنا أنّ الدِّين قد أُثبت عليه وسام (الرِّزق) وما عظَمة هذا الوسام؟! والأعجب من السَّالف أنّ الأهميَّة الّتي يُرام تبيانها لنُصرة الدِّين، ما هي إلّا لاقترانها بالسَّعادة، وما يَستنكِف إنسانٌ عن ردِّ منشئها والتَّعامي عن مَجراها الأوَّل (دين الله)، فعن الإمام علي عليه السلام: «سَعادَةُ الرَّجُلِ في إحرازِ دِينِهِ»[٢٤].

خامساً: ثمَن النَّصر هو الشُّكر والتَّسبيح والاستغفار

عند تحقّق النَّصر والغلبة لدى أحد على مخالفه مثلاً تبرز مسألة، وهي هل لهذه النُّصرة ثمن يجب بذله؟ يجيب القرآن بأنّ ثمن ذلك يُنجز بالرُّوح والبدَن، فمَن نالته النُّصرة ينبغي عليه الشُّكر والتَّسبيح والاستغفَار.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ

النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢٥].

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[٢٦].

سادساً: موارد استعمال القرآن كلمة (الإقامة)

بعد الفحص عن الآيات الّتي يوجد فيها الجذر (ق-و-م) بمختلف المشتقَّات، اتَّضح أن النِّسبة الغالبة متعلِّقة بـ(الصَّلاة)، ومن بعدها ترتبط الإقامة بأمور كبيرة مثل (الدِّين)، (الوَزْن) و(الوجه).

قال تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[٢٧]، ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[٢٨]، ﴿أَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾[٢٩]، ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾[٣٠].

وما يلفت هو أنَّ هذه المتعلَّقات لها مكانة عظيمة عند الشَّارع وقد اهتمَّ بها أيـَّما اهتمام ورعاية، وعلاوة على الحثّ الشَّديد إليها فقد رتَّب الشّارع عقابًا غليظًا على التَّهاون والاستخفاف بها.

ومن ذلك يُدرك أنّ كلمة (الإقامة) لها وزن ثقيل في الشَّريعة؛ ولها قواعد وأسس متينة يجب إنشاؤها لتحقيق الإقامة المطلوبة شرعاً، فالثّمرة من المذكور هو أنَّ استعمال الإمام الحسين عليه السلام عبارة «أولى مَن قامَ بِنُصرَةِ دينِ الله» له دلالة بأن نصرة دين الله عزّ وجلّ تستحقّ الإقامَة.

المحور الأوّل: مقدّمات النّصرة في القرآن الكريم

في النَّظر للآيات يتّضح وجود موضوعات عبارة عن دواعي لظهور النُّصرة، وهي ليس بالضّرورة تلازم النَّصر، ولكن قد يكون وقوعها على النَّحو الغَالبيّ قبل وقوع النُّصرة.

أ ـ وقوع البأسَاء والضَّرَّاء مُقرِّب للنُّصرة

قال تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(٣١).

من السّنن الإلهيَّة للبشريَّة هي أنَّ وقوع الشدَّة والامتحان والابتِلاء أمر ضروريّ؛ ليَظهر صدقُ الإيمان من عدمه، والمؤمنون الّذين كانوا مع الرسولﷺ لاقوا من البأس والضَّرر حتّى حصلَت لهم البشارة والإمداد الإلهيّ بالنُّصرة.

ب ـ الوَلاية بين المؤمنين دعامة للنُّصرة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾(٣٢).

المؤمنون الأنصار الذين آوَوا الرسولﷺ وآزروه كان بعضهم أولياء بعض وبعضهم حماة بعض، ويعني هذا أنَّ التّآزر الأخويّ والتّماسُك في قبال المبادئ ساعد الأنصار في المدينة على تقبُّل الرّسولﷺ والمهاجرين، بل والإيثار وإعطاؤهم من أموالهم ومساكنهم.

ج ـ الإيـمان والتَّسليم ركنان لأصحاب النُّصرة

قال تعالى: ﴿قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣٣).

عبَّر الحواريُّون عن استعدادهم لنصرة المسيحعليه السلام بلسان في منتهى الإيمان والتَّوحيد والتَّسليم لرسالة السَّماء، فَهُم يعترفون بـ(قال) وينسبون لأنفسهم نصرة دين الله عزوجل، ومرة أخرى يقرّون بـ(آمَنَّا) بثبات الإيمان وثالثة يطلبون بـ(اشْهَدْ) من المسيح الشَّهادة لهم بأنَّهم في غاية التَّسليم له ولدعوته.

د- نزول الأذى على الأولياء والصالحين

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا﴾(٣٤).

هذه الآية في سياق الحديث عن الرّسل وأنّهم يصبرون ويقعوا في الأذى ولكنَّهم يُنصرون، فالصَّبر والأذى قد تقدَّما على نزول النَّصر، فقد تُفهم الملازمة أو المقدّمة لحلول النَّصر أن يتجلَّد الإنسان بالصَّبر ويطيق ما يمسّه من أذى.

المحور الثّاني: عوامل النُّصرة في القرآن الكريم

يُلاحظ في آيات النَّصر وجود موضوعات على نحو الشُّروط والعوامل لنزول النَّصر على قوم أو جهة معيَّنة، وذلك من خلال استعمال أدوات الشَّرط مثلاً وغيرها من الأساليب البلاغيَّة.

أ- التَّقوى والصَّبر من شروط النَّصر

تنشأ التقوى الشَّرعيّة من الإيمان بالله ﷻ، وكذلك الصَّبر في الإنسان المؤمن فهو رأسه ودَيدنه في الشَّدائد والمضرَّات، وهذان -أي التَّقوى والصَّبر- من الأوامر والإرشادات الإلهيَّة فلا يفوت المتَّقِي والصَّابر النصرة والإغاثة في حياتهما، ففي الآية قال تعالى: ﴿بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمينَ﴾(٣٥).

وأيضاً هنا في الآية فإنَّ المؤمنين مع طالوت طلبوا بصبّ الصَّبر عليهم في مواجهة جالوت، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرينَ﴾(٣٦).

ب ـ التَّوكُّل على الله ﷻ داعِمٌ للنُّصرة

من المفاهيم الأساسيَّة في الإسلام أنَّ علـقة الربوبيَّة لا تدنو من عبادةٍ جوارحيَّة فقط، بل حتّى الرُّوح وما يخالجها وما يتشبَّث بها يجب أن يُطلى بصبغة الله ﷻ، والتّوكُّل إحساس باطنيّ في القلب، وبه تصبح إحساسات الرُّوح ذات إشعار بالقوَّة عند تفعيل الإتصال والاعتماد، ومن يتوكَّل على خالقِه لا غالب له.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣٧).

ج ـ الإيمان الحقيقيّ أساس النُّصرة

قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَ جاهَدُوا في سَبيلِ اللهِ وَالَّذينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَريمٌ﴾(٣٨).

كما أنَّ أهل مكَّة الأشراف الذين صدَّقوا وجاهدُوا مع الرَّسول ﷺ مؤمنون حَقًّا، فمثله أنصار المدينة الّذين رحَّبُوا وسانَدُوا المهاجِرين، فحينئذٍ إنَّ الطَّائفتَين من المهاجِرين والأنصار لولا الإيمان الحقيقيّ والصَّادق لما صَدَر منهم حُسن معونةٍ لرسالة الإسلام.

دـ التَّوبة أرضيَّة ملائمَة لنُزول النَّصر فيهَا

قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَليماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ﴾(٣٩).

لو يتوب الكفَّار والمُنافقون لكان ذلك صالحاً لهم، وعندما يتولَّوا الكُفر ويتهرَّبوا من التَّوبة فالعذاب هو عقابهم ولا يستطيع أحدٌ وَلايتهم ونصرتهم، وعليه نستنتج أنَّ سبيل التَّوبة هو ما تُنال فيه النَّصرة لا سبيل الغيّ والطّغيان.

هـ ـ نصر الله ﷻ متوقِّف على نصر الإنسان لله ﷻ

قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٤٠).

لم يُبعث المرسلون والأنبياء إلّا وبحوزتهم برامج إلهية للتعليم والتربية والتزكية للناس، والله ﷻ يريد نصرة مَن ينصره، ونصرة الإنسان لربِّه تحدث عندما يتبنَّى المخلوقُ البرنامج الربَّانيّ والمقرَّرات الدّينيَّة الإلهيَّة، فمثلاً يستجيب للأمر وينزجر عند النَّهي، ويوسِّع رقعة الدِّين على مستوى الأفكار والعقائد والأيديولوجيَّات والسّلوكيَّات والتّصرُّفات وهكذا.

و ـ إثبات جازم بنُصرة أصحاب الإيمَان

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤١).

في هذه الآية توعُّد وتعهُّد بنصر المؤمنين، وقد جاء العهد على مبدأ الحقّ، أي أنَّ المؤمن لإيمانه استوجب نصرةً من الله ﷻ، والإيجاب هذا لا يُرى كحقٍّ إنسانيّ كوجوب الرّعاية الصّحيَّة على الدّولة تجاه رعاياها؛ لأنَّ مثل ذاك لا يبعد أن يُتنكَّر لذلك الحقّ، وأمَّا الخالِق فهو له قُدرة وإيجاب حقٍّ بالنُّصرة كعلَّة تُوجد معلولها.

ز ـ مطلوبيَّة الإنابة إلى الله لنزول النَّصر

قال تعالى: ﴿وَأَنيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾(٤٢).

العذاب مصبوبٌ على حياة إنسانٍ لا يرجع إلى طاعة ربِّه، كيف ولا يكون ذلك وعند نكران الإنابة وهجر التَّسليم إلى الله ﷻ يخرج الإنسان من مظلَّة الرَّحمة والعِنايات والألطَاف والكَرامات المؤيِّدة للإيمان، فهؤلاء الذَّاهبون خلاف طريق

الرُّجوع لا يُنصرون ولا تَصِلهم إغاثة فيبقون في معرَض النَّوائب الـمُهلِكة والـمُنغِّصة لشؤون الحياة والمعيشة بشكل عامّ.

ح ـ مقام الرِّسالة والإيمان أرضَان ملائمتَان للنَّصر الإلهيّ

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾(٤٣).

مقام الرِّسالة حَمَله رجال في غاية التَّسليم والتَّوحيد لله ﷻ، والرُّسل صنف من أعالي المُصدِّقين والمُقرِّين لأمر السَّماء، وهذا النَّوع الإيمانيّ الرَّاقي قد جاء الخطاب لهم لَأنتم المنصورون، على عدوٍّ وكائِدٍ ومؤذٍ ومنتقصٍ ومتجبِّرٍ، ومن عظمة الإعانة الإلهيَّة فإنَّ النَّصر ينال أولئك في عوالِم مختلفة، عالَم الحياة الدّنيا وعالَم قيام الأشهَاد.

ط ـ البلاء قد يُقدَّم على حصول الانتِصار

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾(٤٤).

الإنتصار له معنى اختيار النَّصر وإرادته(٤٥) والله ﷻ له تقديم مشيئته وتأخيرها في إثبات النُّصرة، وذلك يتبع الملاك والمصلحَة، فحيث يكون ابتلاء فردٍ بآخَر مراداً له ﷻ فيؤخِّر إنجاز الانتصار لتـَقع وقائع لها دور التَّبصرة للمؤمنين والوَعي لديهم، وأيضاً لها سهم في صنع الـمعرفَة بحقائق القضايا، وكذلك لتُنزل على المؤمنين رحَمَات من التَّربية والأخلاق والتَّثبيت العقِيديّ والتَّشويق نحو الفرائِض مثلاً.

ي ـ الإيمان غير كافٍ لوحده لِتَلقِّي النَّصر من الله ﷻ

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾(٤٦).

في الآية كلام مع المؤمنين وحثّ نحو نصر الله ﷻ، والسّؤال لماذا تُبيّن معادلة النَّصر إلى المؤمنين؟ ألم يكْفِهم الإيمان كعامل يستوجب النُّصرة كما تقدَّم؟[٤٧]، فيمكن القول بأنَّ النُّصرة لا تلازم الإيمَان في كلِّ مراتبه أو درجَاته، فلو كان الإيمان بسيطاً -كالإيمان غير المقترن بالعمل الصَّالح- لا يستوجِب نصرةً، وقد قيل إنّ في الآية ترغيباً للمؤمنين في جهاد أعداء الحقّ، أي إنْ ينصُر المؤمنون الله فإنَّ النَّصر حليفهم.

المحور الثّالث: المَحرومُون من النُّصرَة

توجد أعداد من آيات الكتاب العزيز تسلب النُّصرة عن أصناف من النَّاس، وذلك بأسباب متنوِّعة وكلّها لها مصبّ واحد وهو مخالفة المبدأ الحقّ.

أـ تفضيل الدُّنيا على الآخِرة

قال تعالى: ﴿**أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[٤٨].

على ضوء ما يعنِيه الشِّراء والبيع المعاملاتِيّ، أن بالشِّراء يتخلَّص المشتريّ من الثّمن ويتملَّك مال البائع، ولو أُسقط المعنى على الشّراء الوارد هنا لكان مَن يشتري الحياة الدّنيا فإنَّه يتملَّك الدنيا -إن صحّ التّعبير- ويترك الآخرة، الّتي هي مآلُه الحقيقي تركاً لا رجعةَ فيه، فالفاعل لذلك له عذاب شديد، ولا يمكن أن يُتصوَّر له إعانة ولا استجابة لاستغاثاته.

ب ـ إتّباع أهواء اليهُود والنَّصَارى

قال تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ**﴾[٤٩].

هنا دعوة لعدم اتّباع مرادات الكفَّار الباطِلة، وهذه الدعوة طبقاً لما ذكرت التّفاسير هي لمحمّدﷺ، ولا محلّ لاتّباع أقوال اليهود والنَّصارى وقد جاء النّبيّ محمّدﷺ البيانُ والعلم الذي يغنيه عنهم، فمع الرّكون لما يبتغِي اليهود والنَّصارى من الزَّيف والزُّور والتَّلفيق فهو اِتخاذ مسلكٍ تنعدم فيه الوَلاية والنُّصرة.

ج ـ الظَّالمون لا أنصار لهم

قال تعالى: ﴿**وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**﴾(٥٠).

سياق الآية هو الإنفاق، والاحتكار والبخل وحبس الحقوق الماليَّة عن الفقراء والمساكِين ظُلم لهم، ومن الخصائص المترتِّبة على الظُّلم والجَور في الإنفاق وغيره، هو حرمان الأعوان والأنصار، ووجه الحرمان هو أنَّ البخيل مثلاً عندما مَنَع الاستحقاق الماليّ للمعوز؛ فإنَّ البخيل له أنْ يلهُو ويأنَس بمالِه مدّة وسوف ينقضِي ذلك المال فلا أنصار له، بخلاف المُراعِيّ للحقوق الماليَّة فهو وإن قدَّم بعض ما في جيبه للمسكين إلّا أنّه يجد النَّصير من ربّ المسكين.

دـ حَبْط الأعمال في الدّنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿**أُولئِكَ الَّذينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرينَ**﴾(٥١).

توجد جماعات من أهل الكتاب وبالخصوص اليهود قد جنَوا بارتكاب ذنبَين كبيرَين وهما (الكُفر) و(القَتل)، فكانوا يكفرون بآيات اللهﷻ ويقتلون الأنبياء وأيضاً يقتلون مَن يأمر بالقِسط والـمعروف، ولِفداحة عملهم الشَّنيع فقد حَبِطت أعمالهم، وصار كلُّ خيرٍ وعمَلٍ حسَن منهم بمنزلة المعدُوم أو كالّذي لم يُفعل البتَّة، وعلى ذلك فقد حُرموا النُّصرة والشَّفاعة من أيّ أحَد.

هـ ـ المؤمنون بالجِبْت والطَّاغوت لا نصير لهم

قال تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصيراً﴾(٥٢).

ذكر المفسِّرون في شأن نزول الآية أن بعض أقطاب اليهود قد تحالفوا مع الـمشركين في مكَّة بعد واقعة أُحُد، وذلك لِيُضادُّوا الرّسولﷺ والإسلام، فاليهود قد آمنوا وصدَّقوا بصنم المشركين (الجِبْت) وأطاعوا عَبَدة الأصنام (الطَّاغوت)، وتركوا مَن يشتركون معهم على الأقلّ في وجود كتاب سماويّ عندهم وهم المسلمون، فما كان الأثر إلّا أن نال اليهود اللَّعن والإبعاد والإقصَاء من الرَّحمة الإلهيَّة، واللَّعن هو عدم نُصرتهم وإغَاثتهم.

و ـ النِّفاق مانعٌ من النّصرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنافِقينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصيراً﴾(٥٣).

الظُّهور بلباس الإسلام والصَّداقة والتَّخفِّي بقُبح السَّريرة والنَّوايا الشَّريرة هو عمل النِّفاق، والمنافق عدوٌّ وإن كان قريب المسافة مِن الصَّديق، والقُدرة الّتي لدى المنافِق في إلحاق الضَّرر على دين الإسلام أكبر منها عند عدوٍّ مشخَّص ومعروف بظهوره؛ ولهذا فإنَّ المنافقين قد جُعل مستقرّهم ومكانهم النِّهائي في أبعد نقطة من النَّار في الآخرة، وهذا مكانٌ لا تَصلهُم فيه نصرةٌ ولا عون ولا شفاعَة صَديق.

زـ المُستَنكِفون والمُستَكبِرون لا نصيرَ لهم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَليماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصيراً﴾(٥٤).

سبق هذه الآية الحديث عن المسيحعليه السلام والملائكة وهم لا يستَنكِفون ولا

يـمتَنعُون عن العبادة، وقيل في التّفسير[٥٥] إنَّ الآية في صدد الرّدّ على المسيحيّين وعقيدتهم في الألوهيّة (تثليث الآلهة)، وعلى كلٍّ فإنَّ الامتناع والاستياء الشَّديد من العبادة التَّوحيديَّة مآلها لعذاب شديد وأليم، ولا يبرز لهم عندئذٍ أحدٌ بالوَلاية والنُّصرة وهم أداروا الظَّهر لـمَجمع كلِّ قوَّة ونصر.

ح ـ دعوة غير الله لا قدرة لهم على النُّصرة

قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[٥٦].

هذا كلام مع عبَّاد الأوثان وخطاب القرآن لهم بأنَّ الأوثان المدعوَّة لا تجلب لكم النَّصر فهي مجرَّد جمادات صمَّاء، وكذلك لا تقدر على نصر أنفسها حتّى، وهذا ليَعِي هؤلاء في لغويَّة تعلُّق دعواتهم بالتّفاهَات الدّنيويَّة، وحتّى يصرفوا كلّ نظرهم للحيّ القيُّوم والنَّصير لذاته ﷻ والمنتصِر للمؤمنين الموحِّدين.

ط ـ عابدو الأوثان ليس لهم نصير

قال تعالى: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ﴾[٥٧].

هنا إبعاد لأيّ تصوُّر للقدرة على الهروب والانفلات من سلطان الله ﷻ وحكومته، ومَن يعبد الأوثَان لا يعجِّز الخالق ﷻ لا في الأرض ولا في السَّماء، وهؤلاء لا يجدون من يدافع عنهم ويناصر عنهم في ميادينهم وشؤونهم، وكيف ذلك؟ وهؤلاء العبَّاد يخلقون آلهتهم بدَل أن يكون إلههم علَّة وجودهم، وأنَّى ذلك؟ وهؤلاء يـُحيون ويـُميتون معبوداتهم في الفينة والأخرى.

ي ـ المُستعلِيّ على أوامر الله غير مُنتصِر

قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرينَ﴾[٥٨].

عندما خرج قوم ثـمود عن أمر ربهم علوّاً واستكباراً فقد نزل بهم العذاب ولا يستطيعون النُّهوض من الصّرعة والرَّدى، ولم يكونوا الغالبين والمنتصرين، وهذه حالة عامَّة عند الأفراد حيث عند الاستعلاء على طاعة الله ﷻ تندر النُّصرة لهم من أحَد، ولو يتذرَّع إنسان في حياته بأنَّه بالطّغيان يعيش الغلبة والانتصار في حياته فهو لا يدرك فلسفة العذَابات الإلهيَّة، فهو ليس بآمن عن الإملاء والاستِدراج والانتقَام والـمَكر.

ك ـ سقوط استحقاق النَّصر من قوم المستكبرين

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ ريحاً صَرْصَراً في أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[٥٩].

لماذا لم يُنصر قوم عاد؟ القرآن يحكي عنهم الاستكبار والجحود لآيات الله ﷻ، فمِن شدَّة استكبارهم ادَّعوا بأن لا قوّة أشدّ من قوَّتهم، وعندما كان منطقهم كهذا نزَل بهم عذابٌ بريح ذات صوت عالٍ جدّاً، وكان هذا البلاء يرطمهم بالأرض بقوَّة تنكيلاً بهم لكفرهم وتعاليهم على الله ﷻ، وما العذاب ذاك إلّا لَتوعيتهم أن الكُفر عاجز عن نصرتهم أبداً.

المحور الرّابع: موانع النُّصرة في القرآن الكريم

في القرآن وفي موضوعات النُّصرة نرى قضايا تشكّل موانعاً من حصول النَّصر للإنسان، وهي عندما توجد فكأنها تضادّ وجود النَّصر من الله ﷻ.

أ ـ المعصية إغلاق لباب نصر الله

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُني مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزيدُونَني غَيْرَ تَخْسيرٍ﴾[٦٠].

استنكر النّبي صالح عليه السلام من قومه وهم يستميلونه عن دعوته حتّى يتركها؛ ولأنَّ النَّبي كان واثقاً من عمله ويقول عن نفسه بأنّها على بيّنة وعِلم ورحمة من الله جل جلاله قد اعتَرض عليهم، وتساءل متعجِّباً منهم كيف يُنصر ويُعان من يعاند النَّصير؟! كيف يُنصر من يركب الذّنوب والفواحِش؟! فكلام القوم ما هو إلّا ترّهات وتقوّلات باطِلة تريد تخسير المطيع.

ب ـ الركون إلى الظَّالمين يستدعي عدم النَّصر من الله

قال تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[٦١].

في الآية نهي عن الميل إلى الظَّالـمين والاعتماد عليهم والبناء على باطلهم في أمر أصل الدِّين والحياة الدينيَّة جميعاً[٦٢]، وعقاب الرّكون إلى الظَّالمين هو الإصابة بعذاب النَّار، وفي الآية تحذير بـ (لا)، ونفيَان بـ (ما) و(لا)، فمناط مماسَّة النّار هو إحداث الرّكون المحذَّر منه، والآية تأتي بخصائص أكثر عن الجزاء، وهو خلوّ جانب مَن يركن إلى الظّالمين من الأولياء، وأيضاً لا يرى هذا مَن ينصره في طريقه وعمله.

ج ـ المُكذِّبون لا ناصر لهم

قال تعالى: ﴿وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعينَ﴾[٦٣].

نصرة موجَّهة للنّبي نوح عليه السلام على القوم المكذِّبين لآيات الله جل جلاله، وعليه فإنَّ

التَّكذيب بالآيات مَنَع النُّصرة وأوقفَها عن هؤلاء، وبعد صيرورة قوم نُوح بأفرادٍ سيّئين كانت عاقبتهم الإغراق، ولم يُقدَّم لهم أيّ إغاثة وإعانة ونصرة، ومنه نعرف شيئاً ما عمَّن يرفض البراهين والدّلائل والعلامات على أمور الدِّين، ومثال ذلك الحجاب للمرأة، فهو آية وعلامة على الدِّين والتّستُّر، وبينما يوجد أصوات تكذِّب هذه العلاميَّة وتنكِّس هذه الآية وتجعلها وكأنَّها من المندوبات والكماليَّات.

د ـ المُترَفُون المُذنِبون لا يُنصَرون

قال تعالى: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾(٦٤).

المُترَفُون هم قادة الضَّالّين وعذابهم أشدّ مِن سائر المضلّين، وفي الآية توبيخ وتقريع شديدَين في قطع الطَّمع في الغوث والنَّجاة من العذاب، وهؤلاء كانوا أئمّة في الضَّلال فأتاهم النَّهي بعدم التّضرُّع والتّوسُّل فإنَّه لا فائدة منه، فلن تُنصَروا من الله ﷻ، وهذا يدلّ على كون مصدر الأعمال الشِّرّيرة له تعامل بالشّدَّة، وهذا له مصاديق عندنا كمَن يزرع بذرة الفتنة ومَن يُفتتن بها، فالأوَّل هو ضالٌّ لكثير من النَّاس لكونه الزّارع والمؤسِّس.

هـ ـ فرعون المستكبر لا يُنصر

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ﴾(٦٥).

فرعون وأمثاله من أعاظم الكفَّار قد ترعرعوا على الكفر ودعوة النَّاس إلى المعاصي، وهؤلاء منذ بداية حياتهم وهم مغمَرون في بحر الجحود والشِّرك، فكان من مجازاتهم على ذلك هو تصييرهم أئمَّة يدعون إلى النَّار، ويقتدي بهم اللّاحقون، وفي يوم القيامة تُمنع النُّصرة عن هذا الصِّنف من الأئمَّة، ولا يُسمع له قولُ استغاثةٍ أو نجدة من النَّار.

و ـ كنوز قارون تعجز عن نصرته أمام الخَسف

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(٦٦).

قارون الرجل ذو الثَّراء الفاحِش لم تستقم أموره على الصِّراط مع ما عنده من أموال، فهو عندما بَدَر منه الطغيَان والغرور وتحقير المؤمنين صار الخسف عقوبته، وصار كلُّ خدَمِه وحاشيته عاجزين دون نصرته من عذاب الله، ولم يقدروا عن الدِّفاع ومَنْع البلاء عنه، وهو أيضاً عجز عن الانتصار بنفسه لنفسه.

ز ـ لا يَتوقع ذو الإيمان النَّاقص أنْ يشملَه النَّصر الإلهيّ

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾(٦٧).

يريد المنافقون أن يكونوا شركاء في الانتصار في حال أنَّ إيمانهم فيه نقص، فهم يؤمنون ما دامت نفوسهم في سلامة وعافية وأمَّا الإيذاء والابتلاء فلا طاقة لهم به، والنّكتة في الآية هي لم يرد الإيمان مطلقاً عنهم بل قالت ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ وهذا اعتراف بوجود الخدش في إيمانهم، وعلى ذلك يريدون الاشتراك في النَّصر، فالمانع من شمول النُّصرة هو الإيمان النّاقِص.

ح ـ اتِّباع الأهواء يؤدّي لعدم وجود نصر الله ﷻ

قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾(٦٨).

عندما تعدَّى الظَّالمون وأقرُّوا الشِّرك واتَّبعُوا أهواءهم بغير علم وتعقُّل فقد أضلَّهم الله ﷻ بظلمهم ولا يهتدون من هادٍ وليس لهم ناصر ينصرهم، فالشّرك ظُلم عظيم وهو متشعّب، بحيث إنَّ في الشّرك يظلم الإنسان نفسَه والخلقَ كذلك، ففي الآية تعبير بالظُّلم ويراد منه الشِّرك.

هذا ما أردت تسليط الضّوء عليه ويبقى البحث حول جهات نصرة دين الله ﷻ في جهات تسع -أرجو أن أوفّق لإعدادها في مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى- وهي:

نصرة الدِّين بالعقيدة المَتينَة.

نصرة الدِّين بالولاية لأهل البيت عليهم السلام.

نصرة الدِّين بإعانة المُؤمنِين المظلومِين.

نصرة الدِّين بأدَاء المَفروضَات والتّنفُّل بالنَّوافل.

نصرة الدِّين باتِّقاء المُحَرمَات والتَّورُّع عن الشُّبهَات.

نصرة الدِّين بتحصيل العِلم والفِقه.

نصرة الدِّين بالفضائل والسّجايا الأخلاقيَّة.

نصرة الدِّين بسلاح الدُّعاء والزِّيارة.

نصرة الدِّين بالرُّوح والبَدَن.

والحمد لله ربِّ العَالمين.

الهوامش:

(١) الإمامُ الصّادقُ عليه السلام: «**ثلاثُ خِلالٍ يقولُ كلُّ إنسانٍ إنّهُ عَلى صَوابٍ مِنها: دِينُهُ الذي يَعتقِدُهُ**»

ميزان الحكمة، ج٤، ص١٧٤.

(٢) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام، ج٩، ص٩٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٢٦.

(٤) تهذيب اللّغة، ج١٢، ص١١٢.

(٥) تهذيب اللّغة، ج١٢، ص١١٣.

(٦) معجم مقاييس اللّغة، ج٥، ص٤٣٥.

(٧) تهذيب اللّغة، ج١٤، ص١٢٨.

(٨) تاج العروس، ج١٨، ص٢١٤.

(٩) معجم مقاييس اللّغة، ج٢، ص٣١٩.

(١٠) التّحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١٢، ص١٥٥.

(١١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص١٥٧.

(١٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص٤٢٩.

(١٣) وجود الإنسان بحاجة دائمة إلى الدِّين.

(١٤) الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٢٤.

(١٥) سورة آل عمران: ١٩.

(١٦) تفسير القميّ، ج١، ص١٠٠.

(١٧) ميزان الحكمة، ج١، ص٤٠٦، ح٢٦٤.

(١٨) ميزان الحكمة، ج٤، ص١٩٥.

(١٩) ميزان الحكمة، ج٤، ص١٩٥.

(٢٠) ميزان الحكمة، ج٤، ص١٩٦.

(٢١) سورة يوسف: ١١٠.

(٢٢) تفسير القمّي، ج١، ص٩٩.

(٢٣) ميزان الحكمة، ج٤، ص١٧٤، ح١٢٩٦.

(٢٤) ميزان الحكمة، ج٥، ص٣٠٣، ح١٨٠٤.

(٢٥) سورة الأنفال: ٢٦.

(٢٦) سورة النّصر: ١.

(٢٧) سورة الأنعام: ٧٢.

(٢٨) سورة الشّورى: ١٣.

(٢٩) سورة الرّحمن: ٩.

(٣٠) سورة يونس: ١٠٥

(٣١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٣٢) سورة الأنفال: ٧٢.

(٣٣) سورة آل عمران: ٥٢.

(٣٤) سورة الأنعام: ٣٤.

(٣٥) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٣٦) سورة البقرة: ٢٥٠.

(٣٧) سورة آل عمران: ١٦٠.

(٣٨) سورة الأنفال: ٧٤.

(٣٩) سورة التّوبة: ٧٤.

(٤٠) سورة الحجّ: ٤٠.

(٤١) سورة الرّوم: ٤٧.

(٤٢) سورة الزّمر: ٥٤.

(٤٣) سورة غافر: ٥١.

(٤٤) سورة محمّد: ٤.

(٤٥) التّحقيق في كلمات القرآن، ج١٢، ص١٥٨.

(٤٦) سورة محمّد: ٧.

(٤٧) العنوان المرمز بـ ج.

(٤٨) سورة البقرة: ٨٦.

(٤٩) سورة البقرة: ١٢٠.

(٥٠) سورة البقرة: ٢٧٠.

(٥١) سورة آل عمران: ٢٢.

(٥٢) سورة النّساء: ٥٢.

(٥٣) سورة النّساء: ١٤٥.

(٥٤) سورة النّساء: ١٧٣.

(٥٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص٥٥٨.

(٥٦) سورة الأعراف: ١٩٧.

(٥٧) سورة العنكبوت: ٢٢.

(٥٨) سورة الذّاريات: ٤٥.

(٥٩) سورة فصّلت: ١٦.

(٦٠) سورة هود: ٦٣.

(٦١) سورة هود: ١١٣.

(٦٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص٥١.

(٦٣) سورة الأنبياء: ٧٧.

(٦٤) سورة المؤمنون: ٦٥.

(٦٥) سورة القصص: ٤١.

(٦٦) سورة القصص: ٨١.

(٦٧) سورة العنكبوت: ١٠.

(٦٨) سورة الروم: ٢٩.

(دعاء التوسل) في تراثنا

الشيخ علي حسين يعقوب

الملخّص:

يأتي هذا المقال لمعالجة بعض الإثارات والطّعونات المرتبطة بـ(دعاء التّوسّل) المعروف وبثقافة التّوسّل والاستغاثة بالمعصومين عليهم السلام، وممّا اشتمل عليه توثيق وجود هذا النّمط من الأدعية في تراث الشّيعة الإماميّة من خلال ملاحظة أقدم المصادر الحديثيّة وأهمّها.

للمنتمي إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام سلوكٌ وسماتٌ يُعرَف بها حتى صارت تُشير إلى تشيُّعه بين الناس، ومن ذلك توسُّله بأولياء الله عز وجل واستغاثته بهم رغم أنَّه كان سلوكاً إسلامياً لا يُحَدَّد بمذهبٍ عقديٍ أو فقهيٍ واحد، لكن آلَ الوضعُ في هذا الزمان إلى اختصاصها في أذهان الناس والثقافة العامة الرائجة بالشيعة، وتتعدّاها في بعض المناطق للصوفية، بل إنَّها صارت تُهمةً يُعَيَّر بها الشيعي ويُكَفَّر.

ولم يقف ذلك -كما في العقود الماضية- عند الاتهام والافتراء والاعتداء على الشيعة بهذه الذريعة، بل تعدَّى الأمر ذلك؛ إذ بدأت تدخل الشبهة بذلك على بعض أبناء مجتمعنا من شبابٍ هنا وهناك.

ولو نظرنا لذلك وأضفنا له تساؤلات أو أسئلة تدور في بعض أوساطنا لوجدناهما دافعَين كافيَين لتقديم صورة واضحة حول التوسُّل والاستغاثة في تراثنا، ولأنَّ أكثر ما يُثار هنا وهناك إنما ينصبُّ في العادة حول ما يكون في هيئةِ خطابٍ مع الولي والذي يُعَدُّ (دعاء التوسُّل) المعروف من أبرز نماذجه، كان من المناسب أن يختصّ الحديث بهذا النمط و(دعاء التوسل) وما يُثار حولهما.

وقبل ذلك لا بُدَّ من الإشارة أولاً، بأنّ هنالك مصطلحان، وهما (التوسل) و(الاستغاثة)، وهناك من يجعل (الاستغاثة) نمطاً من أنماط (التوسُّل)، فالعلاقة بينهما إذاً عمومٌ وخصوصٌ مطلق، وهنالك من لا يرى (الاستغاثة) نمطاً من أنماط (التوسُّل)، بل شيءٌ آخر، فيراهما على إثر ذلك متباينان.

خطاب الولي ومحاذيره

مِمَّا يُستَشكَل ويُثار حول (الاستغاثة) وبعض أنماط (التوسل) إشكالان: أحدهما فقهي وهو البدعة، والآخر عقدي وهو الشرك، وخصّ بعضهم الإشكال

العقدي بعنوان (الاستغاثة) دون (التوسل)، ومن أبرز من أشكل وكتب فيما يرتبط بذلك ابن تيمية الحراني، وذلك عبر كتابَيه (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) و(الواسطة بين الحقِّ والخلق)، والألباني عبر كتابه (التوسل.. أنواعه وأحكامه).

الإشكال العقدي

ويُصَوَّر الإشكال العقدي بنحوَين:

الأول: أنَّ الاستغاثة بغير الله مبنيةٌ على خللٍ في (توحيد الأفعال)، وبتعبيرٍ آخر إنَّ الاستغاثة بسوى الله ناتجةٌ عن اعتقاد وجود مؤثِّرٍ آخر غير الله في قباله، يمكن أن يُستَغاث ويُطلب منه، وهذا وإن كان لا يكثر على لسان المعدودين من أهل العلم عند العامة إلا أنَّه ملحوظٌ عند بعض عامتهم وعند بعض من تسرَّب له هذا الإشكال من ناقدي التشيُّع وغيرهم.

وهنا تعليقان:

أولاً: قال بعضهم: إنَّ الإشكال في الاستغاثة هو حينما يكون المطلوب منه (المُستغاث) غائباً أو ميتاً، وقال بعضٌ آخر: الإشكال فيها هو حينما يكون المطلوب (المستغاث له) غير مقدورٍ إلا من الله.

فأقول: إنْ كان المستغيث والداعي معتقداً بما يُعَبِّر عن شركٍ أفعالي، فما المائز الذي يجعل الإشكال منحصراً في حال غيبة المُستغاث وموته أو في حال كون المطلوب غير مقدورٍ إلا من الله؟ ما الداعي لهذا التقييد الذي ادّعاه غير واحد؟ نعم، لو لم يجرِ هذا التقييد، لم يكن لهذا التعليق محل.

ثانياً: نحن نُسَلِّم أصلاً بالإشكال على من يستغيث معتقداً بأنَّ المُستغاث ذو

قدرةٍ في قبال قدرة الله، أي في عرضه، إلا أنّنا لا نحمل هذا الاعتقاد، فلا يرد علينا هذا الإشكال من أصل، إنّما نرى أولياء الله وسيلتنا إليه (سبحانه)، والطلب في منتهاه منه وما هم إلا وسائطٌ جليلةٌ عظيمةٌ إليه، وقدرتهم في طول قدرة الله، لا يملكون قدرةً مستقلّةً، وليسوا في عرضه، وحالنا كحال طالب الشفاء من البرص والعمى من نبي الله عيسى عليه السلام.

وأمَّا النحو الثاني لتصوير الإشكال: فهو بتصوير أنَّ الاستغاثة بغير الله عزّ وجلّ تخدش في (توحيد العبادة)، أي أنَّ الدعاء عبادةٌ للمدعو، وعبادة غير الله شركٌ، والمراد من العبادة هنا بطبيعة الحال (الخضوع المطلق) أو كما عبَّر ابن منظور: "وعَبَدَ الله يَعْبُدُه عِبادَةً ومَعْبَداً ومَعْبَدَةً: تأَلَّه له"[١]، أو كما عبّر الفاضل الشيخ علي الجزيري قدس سره: "إظهار العبودية..."[٢] أيْ لمن تعتقد ألوهيته، والمراد واضحٌ وإن اختلف التعبير عنه[٣].

وهذا الوجه كأخيه، لنا أن نعلِّق عليه بـ:

أولاً: كما تقدَّم في الوجه السابق، بعضٌ يُقيّدون الإشكال بطلب غير المقدور إلا من الله، وبعضٌ بغيبة المُستغاث أو موته، وربما كان ذكر بعضهم لغيبة المستغاث وموته من باب كونهما مصداقاً لعجز المستغاث وعدم قدرته.

عموماً، إنْ كان المدار على عبادة غير الله، فهي غيرُ جائزةٍ مطلقاً، فما معنى تقييد المنع بالموت والغيبة وعدم القدرة على المطلوب إلا من الله؟ ما وجه تقييد ابن تيمية حين قال: "فإنَّ دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ونصب تماثيلهم -بمعنى طلب الشفاعة منهم- هو من الدين الذي لم يشرِّعُه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتابًا..."[٤]؟.

وثانياً: قد ظهر مِمَّا تقدَّم، أنَّا نُسَلِّم بالمنع من عبادة سوى الله، إلا أنّا لا نُسلِّم بأنَّ عبادة المستغاث لازمةٌ لخطابه في الطلب حين غيبته أو مماته أو كون المطلوب غير مقدورٍ عنده -كما هم يقولون-[٥]، فإن وُجِدَ من يقصد العبادة لسواه -والعياذ بالله-، لَزِمَه الإشكال، لكنَّا لا نقصد عبادةَ أوليائه، فلا يلزمنا الإشكال.

ومن هنا قال الفاضل الشيخ عبدالله دشتي دام ظله في كتابه المرصود لمعالجة (الخلل الوهابي في فهم التوحيد القرآني)[٦]: "لا شكَّ بأنَّ المسلم لو دعا غير الله دعاء عبادة عُدَّ مُشركاً، ولكن مشكلة أصحاب هذا الرأي أنَّهم أقاموا دعواهم بأنَّ المسلمين وقعوا في (شرك الألوهية) -التي هي الشرك في العبادة- على فرضية اعتبار الدعاء أحد أجلى مصاديق العبادة، ثم قسَّموا الدعاء إلى دعاء عبادةٍ ودعاء مسألة بما ظاهره خروج دعاء المسألة عن عنوان العبادة، فكان عليهم بيان وجه بقائه -دعاء المسألة- تحت عنوان شرك العبادة بعد ذلك، فلم يفعلوا، بل اقتصروا على تقييده بطلب ما لا يقدر عليه إلا الله، ومجرّد تقييده بذلك لا يدخله في سلك العبادة"[٧].

وقد أنكرَ على ابن تيمية قولَه هذا صاحبُ كتاب الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال الزنادقة، أعني ابن حجر الهيثمي، إذ قال في الجوهر المنظم: "من خرافات ابن تيمية التي لم يقلها عالمٌ قبله، وصار بها بين أهل الإسلام مُثلَة: أنَّه أنكرَ الاستغاثة والتوسُّل به صلى الله عليه وآله، وليس كما افترى، بل التوسُّل به صلى الله عليه وآله حَسَنٌ في كلِّ حالٍ، قبل خلقه وبعده، في الدنيا والآخرة" واستشهد بعد ذلك على ما ذكره[٨]، وقد رماه السلفية بالتصوُّف إلا أنَّا نقول: هذا لا يخرج قولهم وقول غيرهم عن الخلل، والمدار في هذا المقام على الحجة وسلامتها.

وأما علم العامة المعروف، أحد أبرز شُرَّاح البخاري، أعني القسطلاني، فقد قال: "وينبغي للزائر أن يُكثِر من الدعاء والتضرُّع، والاستغاثة والتشفُّع والتوسّل به،

فجديرٌ بمن استشفع بهﷺ أن يُشَفِّعهُ الله فيه"، بل وقال: "واعلم أنَّ الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المُستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبِّر بلفظ الاستغاثة أو التوسّل أو التشفّع أو التجوّه أو التوجّه.."[٩].

الإشكال الفقهي

أمَّا إشكالهم الفقهي بـ (البدعة) على (التوسل)، فيكفي في ردِّه وروده عن النبيﷺ في ما قُبِلَ عندهم من حديث، بل رواه إمام الحنابلة أحمد في مسنده -وغيره في غيره-، قال: حدّثنا روح، قال: حدَّثنا شعبة، عن أبي جعفر المديني، قال: سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يُحَدِّثُ عن عثمان بن حُنيف: "أنَّ رجلاً ضريراً أتى النبيَّﷺ، فقال: يا نبيَّ الله، ادعُ الله أن يعافيني، قال: إن شئتَ أخَّرتُ ذلك؛ فهو أفضل لآخرتك، وإن شئتَ دعوتُ لك، قال: لا، بل ادعُ الله لي، فأمره أن يتوضَّأ، وأن يصلِّي ركعتَين، وأن يدعو بهذا الدعاء: "اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيِّك محمَّدٍ نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجّهُ بِكَ إلى ربّي في حاجتي هذه فتُقضى، وتشفعني فيه، وتشفعه فيَّ". قال: فكان يقولُ هذا مراراً، ثم قال بعد: أحسب أنَّ فيها: أن تشفعني فيه. قال: ففعل الرجل، فبرأ".

قال الأرناؤوط: "هو مكرّر سابقه، إلا أنَّ شيخ أحمد في هذه الرواية هو روح..."، وقال في سابقه: "إسناده صحيحٌ، رجاله ثقات"[١٠].

وأمَّا توجيهات بعضهم العليلة الصارفة للرواية عن ظاهرها -كتوجيه ابن عثيمين-، فهي أحرى بأن لا يُلتَفَت إليها؛ لتكلُّفها الذي لا يخفى على مطالعها.

وما ذكروه واستشهدوا به من آياتٍ وروايات في هذا المقام، فهي محمولةٌ على المحذورَين العقديَّين المتقدِّم ذكرهما، وقد أكَّدتُ الالتزام بالإشكال على مَن يقع سلوكه في دائرتهما فعلاً لا ادِّعاءً -على ما تمَّ بيانه-، ولا موجب لتناول الآيات

والروايات واحدةً تلو الأخرى في هذا المقام؛ إذ البناء على الإيجاز ما أمكن، وللتفصيل فيها محلُّه، فأسأل الله التوفيق له.

تسمية (التوسل) دعاءً

بعد التسليم بانتفاء الإشكال العقدي من شركٍ ونحوه في التوسل بالولي ومخاطبته لطلب الشفاعة أو سواها، يتساءل بعضُ المؤمنين: هل يَصُحُّ أن يُسَمَّى مثل (دعاء التوسُّل) المعروف (دعاءً)؟ أي وإن سُلِّم بانتفاء الإشكال العقدي عن هذه الدعاء المتعارف، هل تسميته بـ (الدعاء) تسميةٌ صحيحةٌ وفي محلِّها؟

للحكم على ذلك بالصحة أو الفساد، لا بأس بالالتفات لأمرَين:

قول أهل اللغة: ونكتفي هنا بأحدهم، قال الفيومي في المصباح المنير: "**دعوت الله أدعوه دعاءً ابتهلتُ إليه بالسؤال ورغبت في ما عنده من الخير، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله...**"[(١١)]، وما ذكره -كما ترى- ينسجم مع توصيف أو تسمية (التوسُّل) بالدعاء، أضف لذلك ما ذكره غيره من أهل اللغة من معانٍ استُعمِلَ فيها لفظ (دعو) ومشتقاته.

استعمال الشرع والمتشرِّعة: تسمية هذا النحو من الاستغاثة (دعاءً) مِمَّا اشتملت عليه أيضاً جملةٌ من النصوص الشريفة، ومنها ما تقدَّم ذكره من حديث مسند أحمد؛ إذ استعمل النبيﷺ والضرير مشتقّات (دعو)، بل وكذا ابن حنيف رحمه الله؛ إذ قال أنَّ النبيﷺ قد أمر الضرير بذاك (الدعاء)، وسيأتيك نظيرُه في رواياتٍ لاحقةٍ أيضاً إنْ شاء الله.

ولطيفٌ في هذا المقام أنَّه حتى شيخ السلفية ابن عثيمين قد استعمل لفظ (الدعاء) في غير دعاء الله، قال في (شرح ثلاثة الأصول): "**واعلم أنَّ الدعاء نوعان:**

دعاء مسألةٍ ودعاء عبادة، فدعاء المسألة هو دعاء الطلب؛ أي طلب الحاجات وهو عبادة إذا كان من العبد لربه؛ لأنه يتضمَّن الافتقار إلى الله (تعالى) واللجوء إليه، واعتقاد أنَّه قادرٌ كريم واسع الفضل والرحمة، ويجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر على الإجابة كما سبق في قول القائل: (يا فلان أطعمني)... "[١٢].

بل يُمكن أن يُقال أيضاً: إنَّ وجه تسميته (دعاءً) هو الخطابات الموجّهة فيه لله ﷻ، وإن اشتمل في أثنائه على خطابات موجهةٍ لغيره كما هو شأن دعاء الندبة مثلاً.

هل هو اختلاقٌ صفوي؟

وقد تبرز في المقام دعوى انتشرت على ألسنة البعض من ناقدي التشيُّع وتراثه مفادها أنَّ التشيُّع قد ابتُلِيَ في زمن الدولة الصفوية باختلاق رواياتٍ ونسبتها كذباً لأهل بيت العصمة عليهم السلام بنحوٍ كان دخيلاً في خلق صورةٍ أخرى للتشيُّع مغايرة عمَّا كانت عليه، ولستُ في مقام معالجة هذه الدعوى بكاملها -أسأل الله التوفيق لذلك في قابل الأيام-، بل في مقام ردِّ ما يرتبط بمحلّ بحث المقال؛ إذ قد ادُّعي أيضاً أنَّ دعاء التوسل المعروف -الذي رواه المجلسي قدس سره وعنه رواه المحدّث القمي رحمه الله في المفاتيح- من مصاديق هذه الحالة، وأنَّ التوسُّل بخطاب الأولياء غير معهودٍ قبل الدولة الصفوية.

والنظر في هذه الدعوى لجهتَين:

الأولى: كون التوسُّل بخطاب الأولياء غير معهودٍ قبل حقبة الدولة الصفوية.

الثانية: اختلاق رواية دعاء التوسُّل المعروف أثناء حقبة الدولة الصفوية.

ويكفي في ردِّ ذلك ما ذكره العلامة الحلي رحمه الله -المولود عام ٦٤٨ هـ والمتوفى عام ٧٢٦هـ - في كتابه منهاج الصلاح، حيث نقل تحت عنوان (في الدعاء للوسائل) دعاءً بدايته: "اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبيك نبي الرحمة محمدٍ عليه الصلاة والسلام، يا أبا القاسم يا رسول الله يا إمام الرحمة يا سيدنا ومولانا إنا توجّهنا واستشفعنا وتوسّلنا بك إلى الله وقدمناك بين يدي حاجاتنا، يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله... "[١٣] إلى آخر الدعاء، وألفاظه ألفاظ دعاء التوسُّل المعروف الذي رواه المحدّث المجلسي رحمه الله عن نسخةٍ قديمةٍ من كتابٍ لبعض أصحابنا رضي الله عنهم عن الصدوق رحمه الله وعن الكتاب الغروي العتيق[١٤]؛ إذ إن تأسيس الدولة الصفوية كان في بدايات القرن العاشر كما هو معروف، فضلاً عن سيطرتها على الجو العام وغير ذلك.

نعم، يمكن هنا تسجيل ملاحظتَين والتنبيه على أمرَين، وهما:

الملاحظة الأولى: لم يُسنِد العلامة قدس سره الدعاء لأحد لا لمعصومٍ ولا لسواه، في حين قال العلامة المجلسي رحمه الله: "وجدت في نسخة قديمة من مؤلفات بعض أصحابنا رضي الله عنهم ما هذا لفظه هذا الدعاء رواه محمد بن بابويه رحمه الله عن الأئمة عليهم السلام"[١٥]، ولعلَّ عدم إسناد العلامة الدعاءَ لأحدٍ ناشئٌ من أخذه من مصدرٍ لم يُحدِّد المعصوم الذي روي عنه الدعاء -مثلاً- كما هو شأن ما حكاه المجلسي إذ عبَّر المصدر الذي نقل عنه بـ"رواه محمد بن بابويه رحمه الله عن الأئمة عليهم السلام" من غير تحديدٍ للإمام المروي عنه، ولعلّ عدم إسناده راجعٌ لجهةٍ أخرى لم أطّلع عليها.

الملاحظة الثانية: هنالك اختلافٌ يسيرٌ في بعض الألفاظ بين المذكور في منهاج الصلاح والمذكور في بحار الأنوار، إلا أنَّ هذا الاختلاف يسيرٌ جداً وهو أشبه باختلاف النسخ في الكتاب الواحد والرواية الواحدة بين عدَّة كتب، وهذا ظاهرٌ

لمن له اعتيادٌ على ملاحظة فروق النسخ وطالع الفروق اليسيرة بين ما ورد في الكتابَين، فلا يضرُّ ذلك باتحاد الوارد فيهما.

التنبيه الأول: لو افترضنا عدم حصول الاطمئنان باتحاد المذكور في الكتابَين عند أحدٍ ما، فهذا لا يضرُّ بأنَّ دعوى عدم معهودية هذا اللون من الأدعية قبل عهد الدولة الصفوية قد انخرمت بهذا الشاهد، وستأتيك شواهد أخرى تؤكِّد بطلان هذه الدعوى.

التنبيه الثاني: اختلاق الدعاء في الحقبة الصفوية تبقى -لو لم يُسَلّم الآخر بما تقدَّم- مجرَّد دعوى، والدعوى لا تثبت بمجرَّد إلقائها، فلا بُدَّ من برهنة الدعوى، والعلامة المجلسي﵀ مِمَّن تسالمت الطائفة على عدالته وورعه وتقواه، فلا يمكن التزام الكذب في حقِّه إلا بمخالفة هذا التسالم.

هل أنشأه الخاجة الطوسي؟

مِمَّا طرق السمع من بعض المؤمنين أنَّ دعاء التوسل المعروف ليس مِمَّا أُثِرَ عن المعصومين، بل أنشأه الخاجة الطوسي﵀.

وللحكم على هذه الدعوى، من النافع المقارنة بين الدعاء المنسوب للخاجة﵀ وبين (دعاء التوسل) المعروف، لكن قبل المقارنة، لا بأس بالتنبيه على أمرٍ يساهم في دفع ما ذُكر أيضاً، وهو ما تقدَّم من أنَّ العلامة المجلسي﵀ قد قال عند نقله الدعاء: "وجدت في نسخة قديمة من مؤلفات بعض أصحابنا﵃ ما هذا لفظه: هذا الدعاء رواه محمد بن بابويه﵀ عن الأئمة﵈..."[١٦]، فمن نقل عنه المجلسي﵀ من أصحابنا﵃[١٧] يُصرِّح بأنَّ الصدوق﵀ قد رواه عن الأئمة﵈.

ولو غضضنا النظر عن ذلك، فمع المراجعة وملاحظة الدعائين والفروق

بينهما من الصعب أن لا نجزم بأنَّهما دعاءان متغايران لا دعاءٌ واحد؛ إذ الفروق ليست من الفروق اليسيرة المتعارفة، وادِّعاء كونهما دعاءً واحداً حينها فيه مؤنة ثقيلةٌ لا تخفى إلا لو ورد دليلٌ يُعتَدُّ به، وهو مفقودٌ في المقام، وسأذكر شاهدَين على تعدُّد الدعاءين؛ لتتضح الصورة أكثر:

- فقرة التوسل بالنبيﷺ في دعاء الخاجة الطوسي بهذه الصورة: "اللهم صلِّ وسلِّم وزد وبارك على النبي الأمي العربي الهاشمي القرشي المكي المدني الأبطحي التهامي السيد البهي السراج المضيء الكوكب الدرّي صاحب الوقار والسكينة المدفون بالمدينة العبد المؤيد والرسول المسدد المصطفى الأمجد المحمود الأحمد حبيب إله العالمين وسيد المرسلين وخاتم النبيين وشفيع المذنبين ورحمة للعالمين أبي القاسم محمدﷺ، الصلاة والسلام عليك يا أبا القاسم يا رسول الله يا إمام الرحمة يا شفيع الأمة يا حجَّة الله على خلقه، يا سيدنا ومولانا، إنَّا توجهنا واستشفعنا وتوسّلنا بك إلى الله وقدمناك بين يدي حاجاتنا في الدنيا والآخرة، يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله"[١٨] ولا اشتراك بينها وبين فقرة التوسل بالنبيﷺ في دعاء التوسل المعروف إلا في مقدارٍ معينٍ في آخرها.

- وفقرة أمير المؤمنينعليه السلام تبتدأ في دعاء الخاجة بـ"اللهمَّ صلِّ وزد وبارك على السيد المطهّر والإمام المظفّر والشجاع الغضنفر أبي شبير وشبر قاسم طوبى وسقر الأنزع البطين الأشجع المتين الأشرف المكين العالم المبين الناصر المعين ولي الدين الوالي..."[١٩]، ولا اشتراك بينها وبين فقرة الأميرعليه السلام إلا بقدارٍ معيَّنٍ في آخرها، كما تقدَّم في فقرة النبيﷺ.

وعلى هذا فقِس... نعم احتمل المحدِّث الشيخ عباس القميرحمه الله احتمالاً يحتمل الرجحان، وهو أنْ يكون الخاجة الطوسيرحمه الله قد اقتبس عبائر من دعاء

التوسل المعروف فضمَّنها دعاءه، قال﵀: "وأظنُّ التوسُّل بالأئمة الاثني عشر المنسوب إلى الخواجة نصير الدين هو تركيبٌ من هذا التوسُّل ومن الصلاة على الحجج الطاهرين في خطبةٍ بليغةٍ أوردها الكفعمي في أواخر كتاب المصباح"[٢٠].

ولربما كانت هذه الدعوى ناشئة من اشتباهٍ بين نِسبة دعاء التوسل المعروف لهم﵈ وبين نسبة دعاء التوسل للخاجة﵁ لأحدهم﵈؛ إذ قد نقل السيد مرتضى المجتهدي السيستاني﵀ عن العلامة العراقي﵀ في كتابه (دار السلام) حكايةً موجزها أنَّ الحجَّة ﵇ قد علَّم الخاجة الطوسي﵀ الدعاءَ في رؤيا له[٢١].

والمجتهدي رغم وصفه الحكاية بأنَّها "مبنية على ما هو المشهور في الألسنة وما هو في بعض الكتب"[٢٢] إلا أنَّه قال بعد نقلها: "هذه قضيةٌ متضمّنةٌ لصدور هذا الدعاء من الإمام المنتظر﵀، ولكن في صحَّة القضية ترديد كما صرّح به في (دار السلام)؛ لأنَّ تاريخ فتح [بغداد] لا يوافق زمن فوت ابن الحاجب (..) وفي تاريخ القضية نكاتٌ تستلزم الإشكال في صحتها..."[٢٣]، ورغم ذلك أيضاً إلا أنَّه أكّد على أهمية هذا الدعاء وأنَّه من مجربات العلامة العراقي والمقدَّس الأردبيلي﵉[٢٤].

نمط الدعاء في كُتب المتقدّمين

وللتأكيد على حضور هذا اللون من الأدعية في تراثنا وفي مصادرنا المتقدمة المعتبرة والمتأخرة المعتمدة، أُسرد مجموعةً من الشواهد التي تشتمل على استغاثةٍ وتوسلٍ بالولي عبر خطابه:

الدعاء الأول:

روى الكليني﵀ بسندٍ معتبرٍ على وجه[٢٥] عن عبدالرحمن القصير، قال: "دخلتُ على أبي عبدالله ﵇، فقلتُ: جُعِلتُ فِداك إني اخترعتُ دعاءً، قال: «دعني من

اختراعك، إذا نزل بك أمرٌ، فافزع إلى رسول الله ﷺ وصلِّ ركعتين تُهديهما إلى رسول الله ﷺ -إلى أن قال:- «ثمَّ خذ لحيتك بيدك اليسرى، وابكِ أو تباكَ، وقل: "يا محمَّد، يا رسول الله، أشكو إلى الله وإليك حاجتي، وإلى أهل بيتك الراشدين حاجتي، وبكم أتوجه إلى الله في حاجتي..."»[٢٦]. ورواه الصدوق رحمه الله بسندٍ يماثله من جهة الاعتبار[٢٧].

الدعاء الثاني:

وروى الكليني رحمه الله أيضاً بسندٍ معتبرٍ على وجه[٢٨] عن الكاظم عليه السلام، قال -أي الراوي وهو البطائني-: قال لي: «إني لموعوكٌ منذ سبعة أشهر، ولقد وعك ابني اثني عشر شهراً وهي تضاعف علينا، أشعرت أنَّها لا تأخذ في الجسد كله، وربما أخذت في أعلى الجسد ولم تأخذ في أسفله، وربما أخذت في أسفله ولم تأخذ في أعلى الجسد كله؟».

قلتُ: جُعلتُ فِداك، إن أذنتَ لي حدَّثتُكَ بحديثٍ عن أبي بصيرٍ عن جدِّك أنَّه كان إذا وعك استعان بالماء البارد، فيكون له ثوبان: ثوبٌ في الماء البارد، وثوبٌ على جسده يُراوح بينهما، ثم يُنادي حتى يُسمَع صوته على باب الدار: (يا فاطمة بنت محمد).

فقال عليه السلام: «صدقت...»[٢٩].

ووجهُ الشاهد بيِّنٌ؛ إذ الظاهر أنَّ نداءه عليه السلام كان استشفاءً بها عليها السلام.

الدعاء الثالث:

وروى ثقة الإسلام رحمه الله أيضاً بسنده عن شرحبيل الكندي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إذا أردتَ أمراً تسأله ربَّك، فتوضَّأ، وأحسِن الوضوء، ثمَّ صلِّ ركعتَين، وعظِّم الله، وصلِّ على النبيِّ ﷺ، وقل بعد التسليم: (اللهمّ إني أسألك بأنك ملك، وأنك على كل شيءٍ

قدير مقتدر، وبأنك ما تشاء من أمرٍ يكون، اللهم إني أتوجّه إليك بنبيِّك محمدٍ نبيِّ الرحمة ﷺ، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوجَّه بكَ إلى الله ربّك وربّي؛ ليُنجح طلبتي، اللهمّ بنبيّك أنجح لي طلبتي بمحمد) ثمَّ سَل حاجتك»[٣٠]. ورواه عنه الطوسي رحمه الله في تهذيبه[٣١].

الدعاء الرابع:

وروى أبو جعفر الكليني رحمه الله كذلك بسنده إلى أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ذو عيالٍ وعليَّ دَين، وقد اشتدَّت حالي، فعلِّمني دعاءً أدعو الله عز وجل به ليرزقني ما أقضي به دَيني وأستعين به على حالي.

فقال رسول الله ﷺ: يا عبدالله، توضّأ وأسبغ وضوءك، ثمَّ صلِّ ركعتَين تُتِمّ الركوع والسجود، ثم قل: (يا ماجد، يا واحد، يا كريم، يا دائم، أتوجّه إليك بمحمدٍ نبيّك نبي الرحمة صلى الله عليه وآله، يا محمّد، يا رسول الله إني أتوجَّه بِكَ إلى الله ربّك وربّي وربّ كلّ شيءٍ أن تصلّي على محمدٍ وأهل بيته، وأسألك نفحةً كريمةً من نفحاتك، وفتحاً يسيرًا، ورزقاً واسعاً ألمُّ به شعثي وأقضي به دَيني، وأستعين به على عيالي)» [٣٢].

ورواه عنه الشيخ رحمه الله في التهذيب[٣٣]، وذكره الطبرسي رحمه الله في مكارم الأخلاق[٣٤].

الدعاء الخامس:

وروى المحدّث الكليني رحمه الله بسنده عن إسماعيل بن يسار، عن بعض مَن رواه، قال: قال [لي]: «إذا أحزنك أمرٌ، فقل في آخر سجودك: يا جبرئيل، يا محمد، يا محمد، يا جبرئيل، يا محمد -تكرِّر ذلك- اكفياني ما أنا فيه؛ فإنكما كافيان، واحفظاني بإذن الله؛ فإنكما حافظان»[٣٥].

الدعاء السادس:

روى السيد علي بن طاووس رحمه الله بسندٍ معتبرٍ[٣٦] عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الإمام الجواد عليه السلام أنَّه قال: تدعو في أوَّل ليلةٍ من رجب بعد عشاء الآخرة بهذا الدعاء: "اللهمَّ إني أسألك بأنَّك مليكٌ، وأنَّك على كلِّ شيءٍ مقتدر، وأنَّك ما تشاء من أمرٍ يكون، اللهمَّ إني أتوجَّه إليك بنبيك محمدٍ نبي الرحمة (صلواتك عليه وآله)، يا محمّد يا رسول الله إني أتوجَّه إلى الله ربّي وربّك؛ لينجح بِكَ طلبتي، اللهمَّ بنبيّك محمدٍ وبالأئمة من أهل بيته أنجح طلبتي"، ثم تسأل حاجتك[٣٧].

ورواه جدّه الشيخ الطوسي رحمه الله في المصباح[٣٨]، وإنما قدّمت رواية ابن طاووس قدس سره؛ لتصريحه بمأخذه دون جده.

الدعاء السابع:

ذكر شيخ الطائفة رحمه الله في مصباح المتهجّد دعاءً يُقرأ بعد الوتيرة، وفيه: "واجعلني من الذين في خلواتهم وفي آناء الليل وأطراف النهار راقبوك وعبدوك، يا محمد يا علي بكما بكما..."[٣٩]. ورواه عنه حفيده ابن طاووس في فلاح السائل[٤٠].

الدعاء الثامن:

وذكر الشيخ قدس سره أيضاً دعاءً يُدعى به بعد صلاة جعفر الطيار، وقد تضمّن: "واجعل لي في ذلك الخيرة ولا تردني خائباً خاسرًا، واقلبني مفلحاً منجِحاً مستجاباً لي دعائي مغفوراً لي مرحوماً يا أرحم الراحمين، يا محمَّد يا أبا القاسم يا رسول الله، يا علي يا أمير المؤمنين، أنا عبدكما ومولاكما غير مستنكفٍ ولا مستكبرٍ، بل خاضع ذليلٌ عبدٌ مُقِر، متمسّكٌ بحبلكما، معتصمٌ من ذنوبي بولايتكما، أضرع إلى الله (تعالى) بكما وأتوسّل إلى الله بكما وأقدمكما بين يدي حوائجي إلى الله عزّ وجلّ واستغاثتي لي

في فكاك رقبتي من النار وغفران ذنوبي وإجابة دعائي"[٤١].

وذكره كذلك السيد ابن طاووس قدس سره في جمال الأسبوع[٤٢].

الدعاء التاسع:

قال ابن المشهدي رحمه الله في المزار الكبير: ويُستَحَبُّ أن يدعو بهذا الدعاء بعد صلاة الزيارة، فهو مرويٌّ عنه عليه السلام: «**اللهمَّ عظم البلاء وبرح الخفاء، وانكشف الغطاء، وضاقت الأرض ومُنِعَت السماء، وإليك يا ربِّ المشتكى، وعليك المُعَوَّل في الشدة والرخاء.**

اللهم صلِّ على محمدٍ وآله الذين فرضت علينا طاعتهم، وعرَّفتنا بذلك منزلتهم، ففرِّج عنَّا بحقِّهم فرجاً عاجلاً كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك.

يا محمد يا علي، يا علي يا محمد، انصراني؛ فإنكما ناصراي، واكفياني؛ فإنكما كافياني، يا مولاي يا صاحب الزمان، الغوث الغوث الغوث، أدركني أدركني»[٤٣].

ورواه الشيخ الطبرسي رحمه الله في كنوز النجاح وقال: "وهو الدعاء الذي علَّمه الإمام صاحب الزمان عليه السلام في المنام لأبي الحسن محمد بن أحمد بن أبي الليث رحمه الله في بلدة بغداد في مقابر قريش، وقد كان أبو الحسن قد هرب إلى مقابر قريش والتجأ إليها من خوف القتل، فنُجّي منه ببركة هذا الدعاء"[٤٤].

الدعاء العاشر:

روى ابن المشهدي رحمه الله أيضاً ضمن زيارات أمير المؤمنين عليه السلام زيارةً تشتمل على دعاءٍ بعد صلاة الزيارة، وفيه: «**يا أمير المؤمنين علي (صلَّى الله عليه)، يا محمد يا رسول الله، يا أمير المؤمنين يا علي، اشفعا لي إلى الله عز وجل، يا حسن، يا حسين، اشفعا لي إلى الله عز وجل بقضاء حوائجي، يا سادتي، يا موالي، يا أئمتي، اشفعوا لي إلى الله تبارك اسمه بقضاء حوائجي وخلاصي من النار...**»[٤٥]. وفي نفس الدعاء أيضاً ألفاظ أخرى من نفس النمط.

تلك عشرةٌ كاملة، وهنالك غيرها من الشواهد في كتبٍ متقدمةٍ ومتأخرة، ومنها: دلائل الإمامة للطبري الإمامي الصغيرﷺ، مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسيقدس سره، الإقبال وجمال الأسبوع للسيد ابن طاووسﷺ، المصباح والبلد الأمين للشيخ الكفعميقدس سره... وفي ما تقدّم الكفاية إن شاء الله.

تحفتان:

وربما كان من الحسن أن يُختَتَم البحث بتُحفَتَين، قد تُعَدَّان في الواقع شاهداً إضافياً على ما ذكرناه، إلا أنَّ الثانية ليست عن المعصوم، بل عن أحد وكلائه، والأولى عن ختم خاتمٍ للإمامعليه السلام أهداه أحد وكلائه.

خاتم الإمام:

روى الشيخ الصدوقﷺ بسندٍ معتبرٍ عن إبراهيم بن مهزيار[٤٦]، قال: قدمتُ مدينة الرسولصلى الله عليه وآله، فبحثت عن أخبار آل أبي محمد الحسن بن عليٍ الأخيرعليهما السلام، فلم أقع على شيءٍ منها، فرحلتُ منها إلى مكة مستبحثاً عن ذلك، فبينما أنا في الطواف إذ تراءى لي فتىً أسمر اللون، رائع الحُسن، جميل المخيلة، يطيل التوسُّم فيَّ، فعُدتُ إليه مؤمِّلاً عِرفان ما قصدتُ له، فلمّا قربت منه، سلّمتُ، فأحسن الإجابة، ثم قال: من أيّ البلاد أنت؟ قلتُ: رجلٌ من أهل العراق، قال: من أيّ العراق؟ قلتُ: من الأهواز. فقال: مرحباً بلقائك، هل تعرف بها جعفر بن حمدان الحصيني؟ قلتُ: دُعي فأجاب. قال: رحمة الله عليه، ما كان أطول ليله وأجزل نيله، فهل تعرف إبراهيم بن مهزيار؟ قلتُ: أنا إبراهيم بن مهزيار. فعانقني ملياً، ثم قال: مرحباً بِكَ يا أبا إسحاق، ما فعلتَ بالعلامة التي وشجت بينك وبين أبي محمدٍعليه السلام؟ فقلتُ: لعلك تريد الخاتم الذي آثرني اللهُ به من الطيّب أبي محمد الحسن بن عليعليهما السلام؟ فقال: ما أردتُ سواه، فأخرجتهُ إليه، فلمَّا نظر إليه استعبر وقبّله، ثم قرأ كتابته، فكانت: "يا الله، يا محمد، يا علي"، ثمَّ قال: بأبي

يداً طالما جلتَ فيها... إلى آخر الرواية التي اشتملت في ثناياها على لقائه بالحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف[٤٧].

القاسم بن العلاء يعود مبصراً:

روى الشيخ الطوسي قدس سره بسنده المعتبر عن الصفواني رحمه الله، قال: "رأيت القاسم بن العلاء وقد عمَّر مائة سنةٍ وسبع عشر سنة، منها ثمانون صحيح العينَين، لقي مولانا أبا الحسن وأبا محمد العسكريّين. وحُجِبَ بعد الثمانين، وردَّت عليه عيناه قبل وفاته بسبعة أيام (..) وحمَّ القاسم يوم السابع من ورود الكتاب، واشتدَّت به في ذلك اليوم العلّة، واستند في فراشه إلى الحائط (..) وكان جالساً ورداؤه مستور على وجهه في ناحية الدار، وأبو حامد في ناحيةٍ، وأبو علي بن جحدر وأنا وجماعة من أهل البلد نبكي إذ اتّكى القاسم على يديه إلى خلف، وجعل يقول: (يا محمد، يا علي، يا حسن، يا حسين، يا مواليّ، كونوا شفعائي إلى الله عز وجل) وقالها الثانية، وقالها الثالثة، فلمَّا بلغ في الثالثة (يا موسى، يا علي) تفرقعت أجفان عينيه كما يفرقع الصبيان شقائق النعمان، وانتفخت حدقته، وجعل يمسح بكمّه عينَيه، وخرج من عينيه شبيه بماء اللحم..."[٤٨].

والمراد من تفرقع أجفان العين الكناية عن تفتحها أي عودة العين مبصرةً.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الهوامش:

(١) لسان العرب، ج٣، ص٢٧٢ [ط٣ دار الفكر للطباعة والنشر – نسخة جامع الأحاديث ٣.٥].

(٢) مفهوم العبادة، المبحث الثاني، الإطلاق العقدي للعبادة، ص١٠١ [ط١ دار زين العابدين].

(٣) وقد ناقش الشيخ قدس سره في كتابه (مفهوم العبادة بين التكفيريين وباقي المسلمين) التعريفات

التي ذكرها علماء الفريقَين لمفهوم العبادة نقاشاً نافعاً وافياً.

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، في [معاني] التوسل، ص٤٢ [ط١ رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء].

(٥) قلت: "كما يقولون"؛ لأنّا نقول: إنّ جميع الممكنات عاجزةٌ عن كل فعلٍ ولا حول ولا قوة لها عليه إلا بالله، نعم هنالك أمورٌ خاصة لم يجعلها الله ﷻ في متناول قدرةَ عموم خلقه إلا أنّا نرىٰ أنه قد جعلها أو بعضها في متناول قدرة بعض أوليائه أو جعل دعاءهم فيها مُحقَّق الاستجابة.

(٦) وقد استوفى الشيخ ﷾ البحث في جوانب الخلل لدىٰ السلفية في فهم التوحيد بنحوٍ لافت.

(٧) الخلل الوهابي في فهم التوحيد القرآني، ب٣، المبحث الثاني، القسم الثاني، الخلل الثاني، ص٣١٧ [ط١ مكتبة فدك].

(٨) الجوهر المُنَظَّم، خاتمة، [الفائدة ١٣]، ص١٧١ [ط دار الحاوي].

(٩) المواهب اللدنية، ج٤، المقصد العاشر، زيارة قبره ﷺ ومسجده، بحثٌ في التوسل، ص٥٩٣ [ط٢ المكتب الإسلامي].

(١٠) مسند أحمد، ج٢٨، حديث عثمان بن حنيف، ح١٧٢٤١، ص٤٨٠ [ط مؤسسة الرسالة].

(١١) المصباح المنير، ج١، ك الدال، الدال مع العين وما يثلثهما، ص٣٢٥ [ط محمد علي صبيح وأولاده].

(١٢) مجموع فتاوىٰ ورسائل ابن العثيمين، ج٦، شرح ثلاثة الأصول، الدعاء وأنواعه، ص٥٢ [ط٢ دار الثريا].

(١٣) منهاج الصلاح، ب١٠ في دعوات الحوائج، ف٣ في الدعاء للوسائل، ص٥١١ [ط١ مكتبة العلامة المجلسي].

(١٤) بحار الأنوار، ج٩٩، ك المزار، ب١٠ كتاب الرقاع للحوائج...، ذيل ح٨، ص٢٤٧ [ط٢ دار إحياء التراث العربي-نسخة جامع الأحاديث ٣،٥].

(١٥) المصدر السابق.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) وقد عبَّر عن هذا المؤلّف﵀ في كتابه تحفة الزائر (فارسي) بـ (بعض الكتب المعتبرة)، حيث قال: "**در بعضى از كتب معتبره نقل كرده اند از محمد بن بابويه**" (تحفة الزائر: ب١١ بيان زيارات جامعه واستغاثه...، ف٢ در بيان كيفيت استشفاع وتوسل...، روايت ١٠، ص٦٤٣ [ط٢ مؤسسة الإمام الهادي﵇]).

(١٨) مهج الدعوات، دعاء التوسل بالمعصومين للطوسي، ص٤٢٥ [ط١ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات].

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) مفاتيح الجنان، ب١ في تعقيب الصلوات ودعوات أيام الأسبوع، ف٧ في الأدعية والتسبيحات المختارة، توسُّلٌ آخر...، ص١٢٠ [ط٢ مسجد جمكران المقدس].

(٢١) الصحيفة المباركة المهدية، ص٥٨٣ [ط١ منشورات ألماس].

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) الصحيفة المباركة المهدية، ص٥٨٦ [ط١ منشورات ألماس].

(٢٤) المصدر السابق.

(٢٥) والوجه توثيق القندي مطلقاً أو في خصوص ما روي عنه قبل الوقف كما عليه بعض علمائنا، والمروي عنه (عبدالرحمن القصير) كذلك وُثِّق وحُسِّن من بعض علمائنا، وفي كونه (عبدالرحمن) أو (عبدالرحيم) نقاشٌ؛ إذ ذهب البعض إلى كونه (عبدالرحيم) وأن (عبدالرحمن) محرَّفة عنها.

(٢٦) الكافي، ج٦، ك الصلاة، ب٩٥ صلاة الحوائج، ح١(٥٦٧١)، ص٦٢٠ [ط٣ دار الحديث].

(٢٧) من لا يحضره الفقيه، ج١، [ك الصلاة]، ب٨٣ صلاة الحاجة، ح٧(١٥٥٠)، ص٥٥٩ [ط٥ مؤسسة النشر الإسلامي].

(٢٨) والوجه هو توثيق علي بن أبي حمزة البطائني مطلقاً أو في ما روي عنه قبل الوقف كما عليه جملةٌ من علمائنا.

(٢٩) الكافي، ج١٥، ك الروضة، ح٨٧(١٤٩٠٢)، ص٢٦٦.

(٣٠) الكافي، ج٦، ك الصلاة، ب٩٥ صلاة الحوائج، ح٧(٥٦٧٧)، ص٦٢٧ [ط٣ دار الحديث].

(٣١) تهذيب الأحكام، ج٣، ك الصلاة، أبواب الزيادات، ب٣١ من الصلوات المرغّب فيها، ح١٧(٩٧١)، ص٣٤٦ [ط١ دار الكتب الإسلامية].

(٣٢) الكافي، ج٤، ك الدعاء، ب٥٣ الدعاء للرزق، ح٦(٣٣٦٧)، ص٤٨٧ وج٦، ك الصلاة، ب٩٤ الصلاة في طلب الرزق، ح٢(٥٦٦٥)، ص٦١٣[ط٣ دار الحديث].

(٣٣) تهذيب الأحكام، ج٣، ك الصلاة، أبواب الزيادات، ب٣١ من الصلوات المرغّب فيها، ح١٢(٩٦٦)، ص٣٤٤ [ط١ دار الكتب الإسلامية].

(٣٤) مكارم الأخلاق، ج٢، ب١٠ في الأدعية وما يتعلق بها، ف٤ في نوادر من الصلاة، صلاة في استجلاب الرزق، ح١(٢٣٣٧)، ص١٢٩ وصلاة الضر والفقر، ص١١٩ [ط٤ مؤسسة النشر الإسلامي].

(٣٥) الكافي: ج٤، ك الدعاء، ب٥٥ الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف، ح٩(٣٣٨٧)، ص٥٠٣ [ط٣ دار الحديث].

(٣٦) إذ صرّح في فلاح السائل -وهو أول كتب كتاب (المهمات والتتمات)- بأنه يختصر الطرق، وأحال علىٰ طرق جده شيخ الطائفة في الفهرست لمعرفة تمام الطريق، ولما حُكيَ عن توفُّر نسخ كتب جده بين يديه.

(٣٧) الإقبال بالأعمال، ج٣، [ج٢]، ب٨ في ما نذكره مِمَّا يختص بشهر رجب...، ف٦ في ما نذكره من الدعاء في أول ليلةٍ من رجب...، ص١٧٤ [ط٣ بوستان كتاب].

(٣٨) مصباح المتهجد، رجب، العمل في أول ليلة من رجب، ص٧٩٨ [ط١ مؤسسة فقه الشيعة].

(٣٩) مصباح المتهجد، الصلاة، ص١١٦ [ط١ مؤسسة فقه الشيعة].

(٤٠) فلاح السائل: ف٢٩ في صلاة الوتيرة وما نذكره من تعقيبها، ذكر صفة صلاة الوتيرة، ص٤٥٩ [ط١ دار جواد الأئمة عليه السلام].

(٤١) مصباح المتهجّد، أعمال الجمعة، صلاة التسبيح، ص٣١٤ [ط١ مؤسسة فقه الشيعة].

(٤٢) جمال الأسبوع، ف٣٠ في ما نذكره من صلاة جعفر بن أبي طالب...، دعاءٌ آخر بعد هذه الصلاة، ص١٩٠ [ط١ مؤسسة الآفاق].

(٤٣) المزار الكبير، ق٥ في زيارة سائر الأئمة عليهم السلام، ب٩ الخلف الصالح صاحب الزمان، القول عند نزول السرداب، ص٥٩١ [ط١ مؤسسة النشر الإسلامي].

(٤٤) كنوز النجاح، دعاء صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف، ص١١٢ [ط١ مجمع الإمام الحسين عليه السلام العلمي].

(٤٥) المزار الكبير، ق٣ في فضل الكوفة وأعمال مساجدها...، [زيارات أمير المؤمنين]، زيارةٌ أخرىٰ لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام، ح١٥، ص٣١٥ [ط١ مؤسسة النشر الإسلامي].

(٤٦) وإبراهيم بن مهزيار كذلك ثقةٌ عند جملةٍ من علمائنا؛ سلكوا في توثيقه عدة وجوه.

(٤٧) كمال الدين: ج٢، ب١١ ذكر من شاهد القائم عليه السلام ورآه وكلّمه، ح١٩، ص٤٧٣ [ط٥ مؤسسة النشر الإسلامي].

(٤٨) كتاب الغيبة (للطوسي)، ف٤، بعض ما ظهر من جهته عليه السلام من التوقيعات، ص٣١٠ وص٣١٣ [ط١ منشورات الرضا].

رجوع أحد الزّوجين في هبته

الشيخ علي فاضل الصددي

الملخّص:

يتعرّض الكاتب إلى مسألة رجوع أحد الزوجين والأقوال فيها وأخبارها، فيتعرض إلى الجمع بين الصحيحتين في المقام إما بالحمل على الكراهة أو الترديد بين الهبة والصدق، وبعد عدم تأتّي الجمع العرفي صار الكاتب إلى ترجيح إحدى الصحيحتين فرجح صحيحة النهي لموافقتها العموم الفوقاني.

وألحق الكاتبُ البحثَ بملحق تحت عنوان: كبرى الترجيح بالشهرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على محمّد النبيّ الأمين وآله الأئمة المعصومين

مقدّمة

لا تصحّ الهبة إلا بقبض الموهوب، وليس للواهب الرجوع فيها بعد القبض إذا تلفت، أو مع التعويض، أو قُصِد بها القُربة ووجه الله تعالى وثوابه، أو كانت لذي رحم.

مسألتنا، والأقوال فيها وأخبارها

وهل لأحد الزوجين الرجوع في هبته للآخر؟[١] فالمشهور أو الأكثر على الجواز مع الكراهة -كما في ملحقات العروة[٢]-، وقوّى المنعَ السيّدُ قدس سره فيها[٣]، والسيّد قدس سره في الوسيلة[٤]، ووافقه من أعلام المحشّين عليها الشيخُ محمّد رضا آل يس، والسيّد محمّد رضا الگلبايگاني قدس سره، وقوّى المنع الإمام الحكيم قدس سره في منهاجه[٥]، واستشكل الجوازَ السيّدُ الحجّة والسيّد الشهيد الصدر قدس سره، وتلميذه الأستاذ السيّد الحائري دام ظله[٦]، والميرزا التبريزي قدس سره[٧].

ومنشأ الخلاف اختلاف صحيحتي زرارة ومحمّد بن مسلم بالجواز والمنع، ففي الكافي والتهذيبين بإسنادهما عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّما الصدقة محدثة، إنّما كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ينحلون ويهبون، ولا ينبغي لمن أعطى لله عز وجل شيئاً أن يرجع فيه، قال: وما لم يُعط لله وفي الله فإنّه يرجع فيه، نحلةً كانت أو هبة، حيزت أو لم تحز، ولا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا المرأة فيما تهب لزوجها، حِيْز أو لميُحَز؛ أليس الله تبارك وتعالى يقول:** ﴿**وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**﴾، **وقال:** ﴿**فَإن طِبْنَ**

لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾، وهذا يدخل في الصداق والهبة»[٨].

ومثلها من قوله عليه السلام: «**لا يرجع..إلخ**» ما في التهذيب أيضاً بإسناده عن الحسن بن محبوب عن عليّ بن رئاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام[٩].

وفي الكافي والتهذيب بإسنادهما عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أنّه سئل عن رجل كانت له جارية فآذته امرأته فيها، فقال: «**هي عليكِ صدقة، فقال: إن كان قال ذلك لله عزّ وجلّ فليمضها، وإن كان لم يقل فله أن يرجع إن شاء فيها**»[١٠].

ونحوها ما في التهذيبين بسند صحيح عن ابن أبي عمير عن غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام[١١].

ويؤيّد الأولى صحيحة محمّد بن إسماعيل بن بزيع قال: سألت الرضا عليه السلام عن الرجل يأخذ من أمّ ولده شيئاً وهبه لها بغير طيب نفسها من خدم أو متاع، أيجوز ذلك له؟ قال: «**نعم إذا كانت أم ولده**»[١٢]. بدعوى أنّ مراده عليه السلام إذا كانت مملوكة لا زوجة.

الجمع العرفيّ:

وقد جمع بين الصحيحتين بوجهين:

الأوّل: حمل صحيحة زرارة على الكراهة؛ لصراحة صحيحة ابن مسلم في جواز الرجوع.

وقد أجيب عن هذا الوجه -مضافاً إلى أنّ عدم جواز الرجوع في الصداق يمنع من ذلك- بأنّ صحيحة ابن مسلم لا تصلح للتصرّف في صحيحة زرارة؛ وذلك لاحتمال كون المراد بقوله عليه السلام: «**وإن كان لم يقل فله أن يرجع إن شاء فيها**» أنّه إذا قصد القربة ولم يقل لله فله الرجوع؛ حيث إنّها مشروطة بقصد القربة، لا أن يكون المراد هو الهبة.

وإن أبيت إلا ظهور صحيحة ابن مسلم في النظر إلى الهبة مع كونها صريحة في جواز الرجوع، فإنّ صحيحة زرارة -هي الأخرى- صريحة في عدم جواز الرجوع ولزوم الهبة وعدم حلّ المال للواهب من الزوجين، ولا أقلّ من ظهورها بنحو يأبى التصرّف فيها، فهي من جهةٍ تتحدّث عن الحلّ الوضعي سيّما بعد تطبيق مفهوم قوله تعالى: ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾ على المورد، ومن جهةٍ أنّ المنع في المورد قد عضّد بالآيتين.

الوجه الثاني: إنّ صحيحة ابن مسلم وإن كانت نصّاً في جواز الرجوع إلا أنّ قوله عليه السلام: «**وإن كان لم يقل فله أن يرجع إن شاء فيها**» كما يحتمل نظره إلى الهبة يحتمل نظره إلى الصدقة، فموضوع جواز الرجوع مردّد بين الهبة والصدقة، بينما صحيحة زرارة صريحة أو كالصريحة في عدم جواز الزوجين في هبتهما، فلا تعارضها صحيحة ابن مسلم، بل وجودها -وحالها كما عرفت- كعدمها.

ويلاحظ عليه أنّ قوله عليه السلام: «**وإن كان لم يقل فله أن يرجع إن شاء فيها**» ظاهر في النظر إلى الهبة؛ وذلك بقرينة لفظ الرجوع؛ إذ لو كان النظر إلى الصدقة لما صحّ هذا التعبير الّذي يفيد صحتها، والحال أنّه مع عدم قصد القربة لا تصحّ الصدقة من رأس، لا أنّها تصحّ وله أن يرجع فيها، فجواز الرجوع لا يتسق إلا مع كون المنظور هو الهبة.

استقرار المعارضة والمرجِّح أو المرجع:

وبعد عدم تأتّي الجمع العرفيّ بين الصحيحتين واستقرار المعارضة بينهما- فتصل النوبة إلى المرجّح لإحدى الحجّتين على الأخرى، أو المرجع بعد التساقط، وذلك وجوه:

الأوّل: ما أفاده أحد الأعلام قدس سره من تقديم صحيحة ابن مسلم لشهرتها،

فيؤخذ بها، ويحكم بكراهة الرجوع وحسب[١٣].

والمظنون أنّه يريد الشهرة الاستناديّة، تبعاً لأستاذه السيّد البروجردي قدس سره؛ إذ هي أحد المرجّحات بنظره على ما استفاد من مقبولة عمر بن حنظلة[١٤].

ويلاحظ عليه -بقطع النظر عن تماميّة كبرى الترجيح بالشهرة المذكورة[١٥]- أوّلاً: أنّ مجرد موافقة فتوى المشهور بجواز الرجوع في الهبة لمضمون صحيحة ابن مسلم لا يعني استناده إليها، فكما يحتمل كونها مستندةً إلى صحيحة ابن مسلم يحتمل كونها لأجل الجمع بينها وبين صحيحة زرارة بالنحو الأوّل المتقدّم، فالمشهور كما استند إلى صحيحة ابن مسلم استند إلى صحيحة زرارة، ولذا ذهب الشيخ قدس سره في النهاية إلى كراهة رجوع الزوجين في هبتهما[١٦]، بل قال في المبسوط: "وعندنا أنّ الرجوع في هبة الزوج أو الزوجة مكروه"[١٧]، وبالكراهة قال ابن إدريس رحمه الله[١٨]، وكذا المحقّق في الشرائع ومختصره[١٩]، وما ذاك إلا لأجل الجمع بين الصحيحتين، وأيضاً كما يحتمل أنّ المشهور استند إلى صحيحة ابن مسلم في القول بجواز الرجوع يحتمل استناده إلى ما دلّ بإطلاقه على جواز الرجوع في الهبة كعموم فوقانيّ بعد فرض استقرار المعارضة بينها وبين صحيحة زرارة، وتساقطهما، هذا.

ولو أُحرز استناد بعضهم إلى صحيحة ابن مسلم خاصّة فهو لا يعني استناد المشهور إليها.

وثانياً: لو سلّمنا الاستناد إلى صحيحة ابن مسلم إلا أنّا لا نسلّم أنّ المستنِدين قد بلغوا حدّ الشهرة، نعم القول بالجواز مع الكراهة هو قول الأكثر-كما في مفاتيح الشرائع[٢٠]، وفي العروة[٢١]- المشهور أو الأكثر.

الوجه الثاني: ترجيح صحيحة زرارة لموافقتها لإطلاق قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِلُّ

﴿لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾[٢٢]، فلا يجوز رجوع أحد الزوجين في هبته، ولو قلنا بأنّ موافقة إطلاقات الكتاب ليست موافقة للكتاب، فالإطلاق المذكور وإن لم يكن مرجِّحاً، إلا أنّه مرجِعٌ وعمومٌ فوقانيٌّ بعد تساقط الصحيحتين.

أقول: المختار -كما بيّناه في بعض الرسائل- أنّ موافقة إطلاق الكتاب موافقة للكتاب، فبموافقته يتمّ الترجيح، ولو وصلت النوبة إلى الترجيح بمخالفة العامّة، فقد يقال: إنّ الترجيح لصحيحة ابن مسلم؛ فإنّ صحيحة زرارة موافقة لهم؛ وذلك لأنّ ابن قدامة في المغني وإن نقل اختلافهم في جواز رجوع الزوجة فيما وهبته لزوجها، إلا أنّه نقل اتفاقهم على عدم جواز رجوع الزوج فيما وهبه لامرأته[٢٣].

ولكن حيث لا معارض لصحيحة زرارة في شقّ عدم جواز رجوع الزوجة فيما وهبته لزوجها، فلو أخذنا معه بجواز رجوع الزوج فيما وهبه لامرأته؛ ترجيحاً لصحيحة ابن مسلم في هذا الشقّ الّذي تختلف فيه مع صحيحة زرارة- لزم المصير إلى ما لا قائل به من التفصيل في جواز الرجوع، هذا (أوّلاً).

و(ثانياً): إنّ تعليل المنع من رجوع الزوج فيما وهبه لزوجته- يمنع عرفاً من حمل المعلّل صدوراً لجهة التقيّة؛ فإنّ التقيّة ضرورة، والضرورات تقدّر بقدرها، وتعليل الحكم المتّقى فيه ممّا لا تدعو إليه الضرورة، سيّما أنّ التعليل بآيتين من الكتاب العزيز وبنحو الاستفهام الاستنكاريّ.

إذن نفس الجو الداخلي لصحيحة زرارة يتعالى على حمل ما دلّ على المنع من رجوع الزوج فيما وهبه لزوجته- على التقيّة، فلو لم نتمسّك بصحيحة زرارة للقول بالمنع فلا محالة يمنع مثل هذا الجو من التمسّك بما دلّ على الجواز، وهو صحيحة ابن مسلم.

الوجه الثالث: ما في بعض الكلمات بعد فرض التعارض والتساقط من الرجوع إلى عمومات جواز الهبة وعدم لزومها كصحاح زرارة وابن مسلم وأبي مريم وغيرها[٢٤]، فلا تصل النوبة إلى استصحاب بقاء ملكيّة الموهوب له مع قبضه بعد التساقط[٢٥].

أقول: قد عرفت -بعد استقرار المعارضة مع وجود المرجّح- أنّ النوبة لا تصل إلى التساقط والرجوع إلى العموم الفوقانيّ فضلاً عن الأصل.

النتيجة:

فالمتحصّل بعد عدم تأتّي الجمع العرفي بين الصحيحتين هو القول بعدم جواز رجوع أحد الزوجين في هبته ترجيحاً لصحيحة زرارة؛ لموافقتها لإطلاق قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً**﴾.

والحمد لله أوّلاً وآخراً، وصلّى الله على محمّد النبيّ وآله، وقع الفراغ من كتابة هذه الأسطر سحر ليلة الثالث عشر من محرّم الحرام من شهور سنة ١٤٣٩هـ في حرم آل محمّد عليهم السلام بلدة قم المقدّسة.

ملحق: في كبرى الترجيح بالشهرة

روى المحمّدون الثلاثة في الصحيح عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة في دَيْن أو ميراث، فيتحاكمان إلى السلطان وإلى القضاة، أيحلّ ذلك؟ فقال عليه السلام: «**من تحاكم إليهم في حقّ أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً، وإن كان حقّه ثابتا؛ لأنّه أخذ بحكم الطاغوت، وقد أمر الله تعالى أن يكفر به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ﴾**»، قال: وكيف يصنعان؟ قال: **ينظران إلى من كان**

منكم ممّن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حَكَما؛ فإنّي قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنّما بحكم الله استخفّ، وعلينا ردّ، والرادّ علينا الرادّ على الله، فهو على حدّ الشرك بالله. قلت: فإنّ كلّ واحد منهما اختار رجلا، وكلاهما اختلفا في حديثنا؟ قال: الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر، قال: فقلت: فإنّهما عدلان مرضيان عند أصحابنا، ليس يتفاضل كلّ واحد منهما على صاحبه؟قال: فقال: ينظر ما كان من روايتهما في ذلك الّذي حكما المجمع عليه (من) أصحابك فيؤخذ به من حكمنا، ويترك الشاذّ الّذي ليس بمشهور عند أصحابك؛ فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه، وإنما الأمور ثلاثة أمرٌ بيّنٌ رشدُه فيتّبع، وأمر بيّنٌ غيّه فيجتنب، وأمرٌ مشكل يردّ حكمه إلى الله ﷻ وإلى الرسول، قال رسول الله ﷺ: حلالٌ بيّن، وحرامٌ بيّن، وشبهات بيْن ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرّمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرّمات، وهلك من حيث لا يعلم، قلت: فإن كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم؟ قال: ينظر فيما وافق حكمه حكم الكتاب والسنّة وخالف العامة، فيؤخذ به، ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنّة ووافق العامّة.. الحديث[٢٦].

وهذه المقبولة هي عمدة ما استدلّ به على كون الشهرة من المرجّحات، ويقع البحث فيها سنداً ودلالة:

[وثاقة ابن حنظلة أو حجّيّة مقبولته]

أمّا من حيث سندها، فلا يوجد فيه من يتوقّف فيه سوى نفس ابن حنظلة، حيث يدّعى عدم وجود توثيقٍ تامٍّ له، ولكن يمكن التغلّب على هذا المشكل بطرق:

الأوّل: ورود توثيقه على لسان المعصوم، فقد روى الكلينيّ رحمه الله في الصحيح

عن يزيد بن خليفة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ عمر بن حنظلة أتانا عنك بوقت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**إذاً لا يكذبَ علينا..**» الحديث[٢٧].

ويزيد بن خليفة وإن لم يرد فيه توثيق بالخصوص إلا أنّه ممن روى عنه صفوان بن يحيى، وكبرى وثاقة من روى عنه صفوان أو البزنطيّ أو ابن أبي عمير تامّة على المختار.

الطريق الثاني: أنّ ابن حنظلة ممّن روى عنه صفوان، وهذا الطريق لإثبات وثاقته أقصر من سابقه، إلا أنّ ميّزة الطريق الأوّل كون التوثيق من المعصوم.

الطريق الثالث: أنّ ابن حنظلة وإن لم يرد فيه توثيق إلا أنّه من المعاريف، ولم يرد فيه قدح ولو بطريق غير معتبر، فيكشف ذلك عن حسن ظاهره عرفاً، وحسن الظاهر كاشف عن الوثاقة عرفاً.

الطريق الرابع: أنّ ابن حنظلة وإن سلّمنا عدم تماميّة طريق لإثبات وثاقته، إلا أنّ روايته في المقام متلقاة بالقبول من الأصحاب، وعملوا بها قديماً وحديثاً، حتى سمّيت بالمقبولة، وأوّل من وصفها بالمقبولة هو الشهيد الأوّل قدس سره (ت٧٨٤) في الذكرى[٢٨]، ثمّ المحقّق الثاني قدس سره (ت٩٤٠) في جامعه[٢٩]، وبعض رسائله[٣٠]، ثمّ الشهيد الثاني قدس سره (ت٩٦٥) في البداية[٣١]، والرعاية[٣٢]، وقد ردّ سيّد الأعاظم قدس سره المقبولة غير مرّة لأجل عدم ثبوت وثاقة ابن حنظلة عنده[٣٣]، إلا أنّه صار إلى اعتمادها بسبب تلقّي الأصحاب لها بالقبول، وأفاد قدس سره في وجه هذا التلقّي -ونعم ما أفاد- بأنّه يعلم استنادهم إليها من الإفتاء بمضمون ما ورد فيها من قوله عليه السلام: «**وما يحكم له فإنما يأخذ سحتا، وإن كان حقّه ثابتا**»، حيث إنّ هذه الجملة لم ترد في سائر أخبار باب القضاء، فراجع[٣٤]، هذا.

ولا ينحصر الطريق لحصول الاطمئنان باستنادهم إلى روايةٍ- بتشابه عباراتهم

مع ألفاظ الرواية.

نعم احتُمل أنّ مقبوليّتها بلحاظ وجود صفوان بن يحيى في سندها، وهو -كما قال الكشي رحمه الله- ممن أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصحّ عنهم[٣٥]، بل جزم بعض الأعلام بأنّ مقبوليّتها لذلك[٣٦].

وفيه -مضافاً إلى عدم تسليم ذلك ممّن يلتزم بانجبار ضعف الرواية بالشهرة[٣٧]- أنّ روايات أصحاب الإجماع كثيرة جدّاً، ولم يُتعاطى -عملاً وتوصيفاً- مع روايةٍ أخرى من تلكم الروايات -على كثرتها الكاثرة- تعاطيهم مع رواية المقام، ممّا يؤذن باستبعاد كون ذلك هو المبرِّر لوصفها بالمقبولة.

فتحصّل أنّه لا مشكل في المقبولة من جهة السند والصدور.

[الشهرة العمليّة مرجّحاً]

وأمّا من جهة دلالتها على كون الشهرة أحد المرجّحات فقد قرّب أحد الأعاظم قدس سره الاستدلال بها على أنّ إفتاء الأصحاب بمضمون رواية وأخذهم بها في مقام العمل وهو المعبر عنه بالشهرة العمليّة أو الاستناديّة- هو المرجّح لإحدى الروايتين المتعارضتين، ويجعلها مما لا ريب فيه، لا الشهرة الروائيّة فقط من دون الأخذ بها والاعتماد عليها، فذكر قدس سره -بعد أن أفاد بأنّ المقصود بـ (المجمع عليه) بقرينة ذكر (الشاذّ الّذي ليس بمشهور) في قباله هو المشهور لا المتّفق عليه- (ذكر) أنّ احتمال أن يكون المراد الشهرة الروائيّة واضح البطلان؛ إذ مقتضى إطلاقه على هذا لزوم الأخذ بالرواية الّتي رواها أكثر الأصحاب وإن أعرضوا عنها، وكان فتوى الجميع حتى الرواة لها مخالفةً لها، وهذا ممّا لا يمكن الالتزام به. كيف؟! والرواية على هذا تصير ممّا فيه كلّ الريْب، فكيف يحكم بكونها ممّا لا ريب فيه؟![٣٨].

ثمّ أشكل على نفسه بمخالفة حمل الشهرة على الشهرة الفتوائيّة لفرض الراوي كلاً منهما مشهوراً؛ لعدم تصوّر الشهرة الفتوائيّة في طرفَي المسألة، وأجاب عنه بأنّ المراد بالشهرة معناها اللغوي، وهو الوضوح، فالمشهور هو الواضح المعروف في قبال الشاذّ الّذي يُنكر، وليس المراد بالشهرة معناها المصطلح، وهو مذهب الأكثر في مسألة[٣٩].

[مناقشة الاستفادة]

ولكن الظاهر نظر المقبولة إلى الشهرة في الرواية؛ وذلك لإضافة الشهرة فيها إلى نفس الرواية، وأنّ الموصوف بكونه مجمعاً عليه بمعنى المشهور هو النقل لا المضمون، هذا (أوّلاً).

و(ثانياً): إنّ نفس الراوي قد فهم أنّ الشهرة هي شهرة الرواية، وأنّها عبارة عن روايات الثقات لها، فقال: "فإن كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم؟"، ولم يغيّر عليه الإمام عليه السلام، فظاهر السياق الحالي ارتضاؤه عليه السلام لفهمه.

ثمّ إنّ عدم إمكان الالتزام والأخذ بالرواية الّتي رواها أكثر الأصحاب وإن أعرضوا عنها، وكانت فتوى الجميع حتى الرواة لها مخالفةً لها لا يفضي إلى صرف الشهرة في المقبولة عن ظاهرها -وهو الشهرة الروائية- إلى غير ظاهرها -وهو الشهرة العمليّة-، بل ترفع اليد عن إطلاق المقبولة، فيؤخذ بالرواية الّتي رواها أكثر الأصحاب، ولا يؤخذ بها إن كانت مهجورة لا عامل بها أو كانت معرَضاً عنها لدى المشهور؛ لعدم كونها -والحال هذه- مصداقاً لما «لا ريب فيه»، والّذي يهوّن الخطب أنّ شهرة الرواية تساوق اشتهار العمل بها؛ إذ المتعارف بين القدماء نقل الرواية في مقام الفتوى، هذا.

[الشهرة الروائيّة مميّزاً]

ونفى سيّد الأعاظم قدس سره -بعد اختياره كون المراد من الشهرة في المقبولة هي الشهرة الروائيّة- (نفى) كونها من المرجحات؛ إذ أنّ المراد بالمجمع عليه فيها هو الخبر الذي أُجمع على صدوره من المعصوم، فيكون المراد منه الخبر المعلوم صدوره؛ لقوله عليه السلام: «**فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه**»، وقوله عليه السلام بعد ذلك: «**إنّما الأمور ثلاثة: أمر بيّن رشده فيتّبع، وأمر بيّن غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يردّ حكمه إلى الله..**»، فإنّ الإمام عليه السلام طبّق الأمر البيّن رشده على الخبر المجمع عليه، وحينئذٍ يكون الخبر المعارض له ساقطاً عن الحجّية في نفسه، لما دلّ على طرح الخبر المخالف للكتاب والسنّة، والمراد بالسنّة كلّ خبر مقطوع الصدور لا خصوص النبويّ كما هو ظاهر. -وأضاف قدس سره قائلاً-: ولا ينافي ما ذكرناه فرض الراوي الشهرة في كلتا الروايتين بعد أمر الإمام عليه السلام بالأخذ بالمجمع عليه؛ وذلك لأنّ القطع بصدور أحدهما لا يستلزم القطع بعدم صدور الآخر، بل يمكن أن يكون كلاهما صادراً من المعصوم عليه السلام، ويكون أحدهما صادراً لبيان الحكم الواقعيّ، والآخر للتقيّة[٤٠]،[٤١].

فهنا أمران، أحدهما: أنّ المراد من الشهرة في المقبولة هي شهرة الرواية بحيث يدخل الخبر معها في السنّة، والثاني: أنّ الشهرة -والحال كما وصف قدس سره- ليست من المرجّحات بل هي لتمييز الحجّة عن اللاحجّة.

ويشهد للأوّل -مضافاً إلى ما أفاده قدس سره- وصف الراوي للمشهور بأنّه رواه الثقات عنهم عليهم السلام، قائلاً: "**فإن كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم؟**"، وظاهره الشهرة في الطبقة الأولى الرَاوية عن الإمام عليه السلام، بحيث يكون الراوي عن الإمام متعدّداً، فيكون من قبيل المتواتر، مع أنّ النقل عن الإمام عليه السلام بوسائط كان قليلاً في عصور النصّ[٤٢].

فتحصّل أنّ الشهرة هي الشهرة الروائية لا العمليّة، وأنّها تساوق السنّة والمقطوع صدوره عنهم عليهم السلام، وأنّها ليست من المرجّحات، كلّ ذلك بالنظر إلى دلالة مفردة (المجمع عليه)، هذا.

[الترجيح بمزيّة تصرِف الريْب إلى المعارض]

وذكر السيّد الأستاذ (سلّمه الله) في محضر درسه الشريف (نعم ذكر) فهماً ينطلق من التعبير بـ(لا ريب فيه)، فأفاد -بتقرير منّي- ما يلي:

إنّ لنا فهماً (للمقبولة) -تبعاً للسيّد الأستاذ دام ظله- يختلف عن الفهم المعروف، ومحصّله أنّ الملاك للترجيح في (المقبولة) بتمام فقراتها هي (لا ريب فيه)، بيان ذلك: أنّ المرتكز العقلائيّ قائم في كلّ أمارتين متعارضتين على الأخذ بالأمارة الواجدة لمزيّة توجب صرف الريبة الناشئة عن العلم الإجماليّ إلى الطرف الفاقد للمزيّة.

توضيحة: أنّه إذا تعارض قولا طبيبين في تشخيص مرضٍ فإنّ تعارضهما يوجب العلم الإجماليّ بأنّ أحدهما لا بعينه محطّ الريْب ومحلّ التهمة، فإن كان أحد القولين واجداً لمزيّة، فتارةً تكون مجرد مزيّة توجب أقوائيّتها، كأن يكون أحد الطبيبين ممّن قد نجح في تشخيص مرضٍ شبيهٍ بهذا المرض، فهذا النوع من المزيّة لا يعتني به لدى العقلاء. وأخرى تكون المزيّة في أحدهما موجبة لصرف الريْب الحادث بالعلم الإجماليّ الناشئ عن التعارض إلى الآخر، كما لو كان أحدهما مشهوراً بين الحاذقين من الأطباء؛ فإنّ هذه الشهرة توجب وجداناً أن يكون محطّ الريب والتهمة هو قول الآخر، فهنا يُعتمَد على مثل هذه المزيّة، وهذا الأمر كما يجري في الآراء الحدسيّة يجري عندهم في الأخبار الحسّيّة كالتعارض بين نقلين، ومقبولة ابن حنظلة هي في مقام الإرشاد لما هو المرتكَز عند العقلاء؛ فإنّ قوله:

«ينظر ما كان من روايتهما في ذلك الّذي حكما المجمع عليه (من) أصحابك فيؤخذ به من حكمنا، ويترك الشاذّ الّذي ليس بمشهور عند أصحابك؛ فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه» ظاهرٌ في أنّ المطلوب في ترجيح أحد الخبرين المتعارضَين على الآخر أن يؤخذ بالخبر الواجد لمزيّة توجب أن يكون ممّا لا ريب فيه، وانصرافَ الريب إلى الخبر الآخر، والريب بمعنى التهمة الحاصلة بالعلم الإجماليّ نتيجة التعارض، لا بمعنى الشكّ، وبناءً على ذلك لا يختصّ الترجيح بالمرجّحات المنصوصة، بل يشمل كلّ مرجّح موجِبٍ لصرف الريب إلى الطرف الآخر، كما أنه لا يختصّ الأمر بتعارض الخبرين، بل يشمل جميع الأمارات، ومنها تعارض الفتويين، فإذا اختلف فقيهان في الفتوى، وكان أحدهما أعلم بحدٍّ يوجب صرف الريب إلى فتوى الآخر-لا مطلق الأعلميّة وبأيّ درجةٍ اتفقت- فإنّ فتوى الأوّل هي الحجّة دون فتوى الآخر، وهذا هو المرتكز العقلائيّ في مقام الترجيح، فغاية مفاد المقبولة أنّها إمضاءٌ للترجيح بالمزيّة الموجِبة لصرف الريب إلى المعارض، وليست في مقام جعل (المجمع عليه) حجّة كي نبحث في تحديد معناه.

[مناقشة الفهم]

ويلاحظ عليه أوّلاً: إنّ عدم الريب في كثير من الاستعمالات لا يراد به إلا عدم الشكّ، فقد استعمل في الكتاب العزيز بما لا يقل عن عشرة استعمالات بمعنى عدم الشكّ بالإضافة إلى الكتاب العزيز والساعة ويوم القيامة، كقوله سبحانه: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤٣]، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٤٥]، ولا يوجد أيّ استعمال لهذا التركيب بمعنى عدم التهمة، ولا أقلّ من أنّه لا معيّن لإرادة عدم التهمة.

وثانياً: لو فرض دلالة قوله: «**فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه**» على الترجيح بمطلق المزيّة الموجبة لصرف الريبة إلى الرواية الفاقدة للمزيّة- فلا معنى للسؤال عن العلاج والمرجّحات واحداً بعد واحد عند التساوي، ولاكتفى بإطلاق القول كضابطة وكبرى كلّيّة، ولنبّهه عليه السلام على غفلته عمّا أجاب به من الكلّيّة الّتي لا يحتاج معها إلى السؤال عن علاج المتساويين مرّة بعد أخرى، ولما أرجأه -بعد فرض تساوي الخبرين في المزايا المنصوصة- إلى ملاقاة الإمام عليه السلام[٤٦].

وثالثاً: إنّ الارتكاز العقلائيّ بالترجيح بالمزيّة الموجبة لصرف الريب إلى الآخر لئن سلّم إلا أنّ استفادة الإرشاد إليه وإمضاءه من قوله عليه السلام: «**فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه**» ليست بيّنة -بعد ما عرفت في الملاحظة الثانية- وبعد أن كان المجمع عليه المساوق للسنّة القطعيّة لا ريب فيه أصلاً، لا أنّه لا ريب فيه عرفاً مثلاً، وأيضاً المجمع عليه لا ريب فيه في نفسه لا بالإضافة والقياس إلى غيره، هذا.

[تعقّب المناقشة]

وقد رفعت هذه المناقشة إلى سماحة السيّد الأستاذ (دامت بركاته)[٤٧]، فأجابني بما يلي: "**ذكرت في بحث الأصول أنّ تماميّة مطلبه** دام ظله -يريد أستاذه- **لا تتوقّف على كون الريب بمعنى التهمة**"[٤٨]، بل حتى لو كان بمعنى الشكّ أو الشبهة فإنّ المطلب يتمّ بمعنى أنّ هناك ارتكازاً عقلائيّاً أنّه إذا تعارضت أمارتان، وكانت إحداهما واجدة لمزيّة واضحة توجب أن يكون احتمال الخطأ والخلل في الأخرى احتمالاً معتدّاً به كان ذلك موجباً لتقديم الأوّل في مجال الحسّ أو الحدس، هذا أوّلاً.

وثانياً: إذا لوحظت بقيّة الفقرات في المقبولة سيُرى التأكيد على هذا المناط، فقوله عليه السلام -مَثَلاً-: «**حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك**» ظاهرٌ في أنّ المدار في الترجيح أو التقديم أن يكون أحد المتعارضَين مصداقاً للشيء البيّن، أي الواضح

الحكم مقابل كون الآخر مصداقاً للشبهة، وكذلك قوله عليه السلام: «**ما خالف العامّة ففيه الرشاد**» ظاهرٌ في أنّ المناط في التقديم أن يكون أحدهما مصداقاً لما فيه الرشاد، فمجموع الفقرات ترشد إلى مناط واحد في التقديم من دون خصوصيّة للمرجّحات المنصوصة، وهذا التحليل يلتقي مع القول بأنّ ما ذكر مرجّح لإحدى الحجّتين على الأخرى، ولكونه من باب تمييز الحجّة عن اللاحجّة انتهى كلامه، رُفع مقامه.

وقع الفراغ من كتابة هذه الأسطر ليلة السادس عشر من محرّم من سنة ١٤٣٩هـ ببلدة قم المقدّسة، والحمد لله كما هو أهله، وصلّى الله على من لا نبي بعده محمّد النبيّ وآله.

الهوامش:

(١) وقد عُنونت هذه المسألة في جملة من الكلمات- بالإلحاق بذي الرحم وعدمه، وقد يوهم ذلك أنّ منشأ الخلاف فيها كونهما من الأرحام عرفاً وعدمه، ولكن مقصودهم ثبوت التشريك بين الزوجين والأرحام في لزوم الهبة أو نفي التشريك؛ إذ من الواضح جدّاً أنّ الزوجيّة لا تجعل بين الزوجين علاقة رحم، وإلا لما انفصمت بالفراق، كما أنّ لمسألتنا -إثباتاً ونفياً- رواياتها الخاصّة.

(٢) العروة الوثقىٰ ط. جماعة المدرّسين ٦: ٢٥٩ م٤.

(٣) العروة الوثقىٰ٦: ٢٥٨ م٤.

(٤) وسيلة النجاة وبهامشه تعاليق سبعة من الأعلام٢: ١٨٦ م٨.

(٥) منهاج الصالحين وبهامشه تعليقة الشهيد الصدر قدس سره٢: ٢٠٧.

(٦) منهاج الصالحين - المعاملات- القسم الأوّل: ٣٤٠.

(٧) منهاج الصالحين٢: ٢٧٠ م٩٧٥.

(٨) الكافي٧: ٣٠ باب ما يجوز من الوقف والصدقة والنحل والهبة ح٣، التهذيب٩: ١٥٢ (٤) باب النحل والهبة ح١، الاستبصار٤: ١١٠، ٦٧ باب الهبة المقبوضة، ح١٧.

(٩) التهذيب٧: ٤٦٣ (٤١) باب من الزيادات في فقه النكاح٦٦.

(١٠) الكافي٧: ٣٢ باب ما يجوز من الوقف والصدقة والنحل والهبة، ح١٢، التهذيب٩: ١٥١ (٣) باب الوقوف والصدقات، ح٦٤.

(١١) التهذيب٨: ٣١٧ باب النذور ح٥٦، الاستبصار: ٤٥ أبواب النذور، ٢٧ باب أقسام النذر، ح٣.

(١٢) التهذيب٨: ٢٠٦ (٩) باب السراري وملك اليمين، ح٣٥.

(١٣) تفصيل الشريعة١٩: ٤٨٢.

(١٤) نهاية الأصول: ٥٤٢، ٥٤٣.

(١٥) وقد ألحقت بهذه الأسطر ملحقاً في كبرىٰ الترجيح بالشهرة، والمراد منها اعتماداً علىٰ مقبولة ابن حنظلة.

(١٦) النهاية: ٦٠٣.

(١٧) المبسوط٣: ١٣٧.

(١٨) السرائر٣: ١٧٣.

(١٩) شرائع الإسلام٢: ٢٣٠، المختصر النافع: ٢٦٠.

(٢٠) مفاتيح الشرائع٣: ٢٠٤، مفتاح ١١٠٥.

(٢١) العروة الوثقىٰ٦: ٢٥٩ م٤.

(٢٢) ولم أذكر قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾؛ لأنّ دلالته بإطلاق مفهومه، وإطلاق المفهوم لا يؤخذ به؛ لعدم كون المتكلّم في مقام بيان المفهوم ليؤخذ بإطلاقه. نعم ساقه الإمام عليه السلام دليلاً علىٰ عدم جواز رجوع الزوج في هبته لزوجته، ولكنك عرفت أنّ الإطلاق مرجّح لأحد المتعارضين مع كونه علىٰ مسافة واحدة منهما، وليس كذلك حيث يعتمد علىٰ دلالة أحدهما.

(٢٣) المغني بالآثار ٦: ٢٩٧.

(٢٤) وسائل الشيعة١٩: ٢٣١، ٢٣٢ ب٣، ٤ من كتاب الهبات ح١، ٢، ٢، أقول: صحيحة زرارة المشار إليها هي صدر صحيحة زرارة في مسألتنا، فيكون مرجعاً وعموماً فوقانيّاً بعد سقوط الذيل، ولكنّ صحيحة أبي مريم مقطوعة.

(٢٥) التعليقة الاستدلاليّة علىٰ تحرير الوسيلة للشيخ عليّ المشكينيّ ٢: ٤٤٢، ٤٤٣.

(٢٦) التهذيب٦: ٣٠١ كتاب القضايا والأحكام ب٩٢ ح٥٢، والألفاظ بنقله، الكافي١: ٦٧ كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث ح١٠، الفقيه٣: ٨ كتاب القضايا والأحكام، باب الاتفاق

علىٰ عدلين في الحكومة (٣٢٣٣).

(٢٧) الكافي٣: ٢٧٥ كتاب الصلاة، باب وقت الظهر والعصر ح١.

(٢٨) ذكرىٰ الشيعة١: ٤٢.

(٢٩) جامع المقاصد٢: ٣٧٧.

(٣٠) رسائل المحقّق الكركيّ ١: ١٤٣، ١٦٨.

(٣١) البداية في علم الدراية: ٣٤.

(٣٢) الرعاية لحال البداية: ٧١.

(٣٣) مصباح الأصول٣، موسوعة الإمام الخوئي٤٨: ٤٨٥، ٥٠٥.

(٣٤) مصباح الأصول٣، موسوعة الإمام الخوئي ٤٨: ٤٩١، وفي حاشية المحقّق الخراسانيّ قدس سره علىٰ الرسائل -درر الفوائد في الحاشية علىٰ الفرائد: ٤٥٥- إشارةٌ إلىٰ هذا الوجه، حيث قال: "اللّهم إلا أن يقال: إنّ المقبولة ليس ضعفها لو كان منجبراً بمجرد العمل بها[ا] في الجملة كي تشاركها [غيرها] فيه، بل بما يختصّ بها الّذي صار[ت] لأجله مقبولة، وسمّيت بها؛ بداهةَ أنّ مجرد العمل على طبقها[ا] في الجملة لا يوجب ذلك.."

(٣٥) اختيار معرفة الرجال٢: ٨٣٠ (١٠٥٠).

(٣٦) أصول الفقه للشيخ المظفّر قدس سره٢: ٢٥٠.

(٣٧) منتقىٰ الأصول٧: ٤٠٦ هامشاً، وهو من إفادات المقرّر الشهيد آية الله السيّد عبد الصاحب الحكيم قدس سره.

(٣٨) نهاية الأصول: ٥٤١، ٥٤٢، وذكر هذا أيضاً أحد حضّار بحثه قدس سره، وأضاف: "ومعلومٌ أنّ مراده من قوله: «فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه» ليس جعلَ التعبّد بذلك، بل تنبيه بأمر عقلائيّ ارتكازيّ بين العقلاء؛ فإنّ الإجماع والاشتهار بين بطانة كلّ رئيس يكشف عن رضاه به، فإحدىٰ الروايتين إذا كانت بهذه الصفة يؤخذ بها وبالحكم المستند إليها، ويترك الشاذّ المقابل لها" -التعادل والترجيح للإمام الخميني قدس سره: ١٧٥-، ثمّ أضاف بـ "أنّ الاشتهار بين الأصحاب بما صرّحت به المقبولة ليس من المرجّحات لإحدى الحجّتين لما عرفت أنّ المراد به الاشتهار بحسب الفتوى وكون الطرف المقابل شاذّاً معرَضاً عنه، وما كان حاله كذلك يسقط عن الحجّيّة، كان في مقابله معارض أو لا، وأمّا كثرة الرواية واشتهار النقل مجرداً عن الفتوى فلا دليل على كونها مرجّحة، بل لو دلّ دليل على وجوب الأخذ بالرواية الّتي اشتهرت روايتها وترك الشاذّ روايةً لا يدلّ على الاشتهار بحسب الرواية دون الفتوى؛ لأنّ المرسوم المتعارف لدى قدماء أصحابنا هو

نقل الرواية في مقام الفتوى، وكانت متون الروايات فتاواهم، فنقل الرواية وشهرتها كانت مساوقة للشهرة الفتوائيّة، كما يتّضح ذلك بالرجوع إلى الروايات، خصوصاً باب وجوب الرجوع في القضاء والفتوى إلى رواة الحديث من كتاب قضاء (الوسائل) وإلى كتب قدماء أصحابنا كالصدوقَين ومن في طبقتهما أو يقرب منهما": ١٧٧.

(٣٩) نهاية الأصول: ٥٤٢.

(٤٠) مصباح الأصول٢، بحث حجّية الشهرة، موسوعة الإمام الخوئيّ قدس سره ٤٧: ١٦٤، ١٦٥.

(٤١) وأضاف إلى ما ذكره هنا في بحث المرجّحات ما يلي: "وظهر بما ذكرناه: أنّه لا يمكن الاستدلال بالمقبولة ولا بالمرفوعة على الترجيح بموافقة الكتاب ومخالفة العامّة؛ لكون موردهما الخبرين المشهورين أي المقطوع صدورهما، فلا تدلان على الترجيح بموافقة الكتاب ومخالفة العامّة فيما إذا كان الخبران مظنوني الصدور كما هو محل الكلام، وما اشتهر من أنّ المورد لا يكون مخصصّاً مسلّم فيما إذا كان في كلام المعصوم إطلاق أو عموم، فيؤخذ بالإطلاق أو العموم ولو كان المورد خاصّاً، وليس في المقبولة والمرفوعة عموم أو إطلاق بالنسبة إلى الخبر الظنّيّ؛ فإنّ الإمام عليه السلام أمر بالأخذ بما وافق الكتاب وخالف العامّة من الخبرين اللّذين فُرض في كلام الراوي كون كليهما مشهورين".- مصباح الأصول٣، بحث المرجّحات، موسوعة الإمام الخوئيّ ٤٨: ٤٩٧-.

(٤٢) منتقىٰ الأصول٧: ٤٠٨ متناً وهامشاً.

(٤٣) سورة البقرة: ١، ٢.

(٤٤) سورة آل عمران: ٩.

(٤٥) سورة الحجّ: ٧.

(٤٦) درر الفوائد في الحاشية علىٰ الفرائد: ٤٥٨، فقد استظهر من خلال ثلاث قرائنَ سياقيّةٍ الاقتصار علىٰ المرجّحات المنصوصة، وكما هو ردٌّ لما ذهب إليه الشيخ الأعظم قدس سره من الترجيح بمطلق المزيّة ولو لم تكن منصوصة، فهو ردٌّ للترجيح بالمزيّة الموجبة لصرف الريبة إلى الطرف الآخر، وانظر: منتقىٰ الأصول٧: ٤٢١.

(٤٧) رفعت المناقشة ما عدا الملاحظة الثانية منها؛ فقد أضفتها لاحقاً.

(٤٨) وهذا منه (سلّمه الله) يستبطن تسليماً بالملاحظة الأولىٰ.

Advisory Board :

Sh. Abdulla Ali Al daqaq

Sh. Ali Fadhel Alsadadi

General Superviser :

Sh. Abdulraoof Hasan Alrabeea

Editor in Chief :

Sh.mohammed ali khatam

Editor in Director :

Sh.Abbas Ali Alsayegh

The assistant manager :

Sh.Jaafar Abdulnabi Aljaboori

Editorial Board :

Sh.Aziz Hasan Salman

Sh.Jasim Bader almutawa

Sh.Ali Aqeel Aljamri

Sh.MAnsoor Ebrahim Hussain

S.Jalal Adnan Alawi

مجلّة طلابيّة فصليّة
تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية
تصدر عن طلاب البحرين في الحوزة العلميّة
بمدينة قم المقدسة

www.ralqalam.com
info@ralqalam.com
ralqalam

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم المقدسة
شارع جمهوري ـ شارع قيام ـ فرع ٨ ـ مبنى ١٠
+٩٨ ٢٥٣٢٨٩٨٤٧٠